

مجمد الغزالي

فتاوى السيرة

تمتاز هذه الطبعة بمراجعة أحاديث السيرة
ونقد أسانيدها وامتونها وتخص قيمتها العلمية

بطلب من
دار الكتب الحديثة لباجا توفيق عفيفي عامر
١٣ شارع الجمهورية بعبدين تيفون ٧-٩١٦١٠

الطبعة السادسة

ديسمبر ١٩٦٥

خَرَّجَ أَحَادِيثَ الْكِتَابِ
مُحَدَّثُ الدَّهَارِ الشَّامِيَةِ الْعَلَامَةِ
مُحَمَّدُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هناك عطاء كثير من ، يقرأ الناس قصص حياتهم ليتعلموا من عناصر النبوغ فيها ، وليتألموا بإعجاب مسالكها في الحياة وواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشكلات وصعاب ، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرابطة الفذ بين أولئك العطاء ومن يتعرف عليهم ، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة .

وأبادر إلى القول بأنني لم أكتب عن صاحب الرسالة العظيم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي نفسي هذا المعنى المحدود .

فأنا رجل مسلم عن علم ، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين ؟ ولماذا صدقت بقبولة محمد ؟ ولماذا اتبعت الكتاب الذي جاء به ؟ بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسي من هذا كله .

وقد سبق لي أن نشرت في السيرة فصولاً متنوعة وهل ابتعدت عنها في شيء مما كتبت ؟ إن الرسائل التي عالجتها فيها بحوث العقيدة والخلق والمعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبي الكريم في كيانها وسياقها ولذلك يصح أن أقول :

إن هذا الكتاب ليس صلة محدثة برسول الإسلام ، ولا جملة من الدلائل على صدقه ، ولا لحاح تكشف للمؤلف عن عبقريته وسناء دعوته . .

فإن ذلك قد استفاض به الكلام في مواضع أخرى ! ولكنني توفرت على إخراج هذا الكتاب وأمل في غاية معينة أرجو أن أكون بآلفتم .

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة عشوراً خفيفة ، لا تحرك القلوب ، ولا تستثير الهمم ، وهم يعظمون النبي وصحبه عن تقليد ، ووروث ومعرفة قليلة ، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو القافه تساوى الجهل بها . إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة . ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى ، إن حياة محمد ليست — بالنسبة للمسلم — مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا . إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأى حيف في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه .

وقد بذلت وسعى في إعطاء الفارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث ، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتييل .

وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة . إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك . وذلك أحسن ما في طريقتهم . . .

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة نقائص ذات خطر لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها . .

ولعل هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاؤه روح واحد . ثم وزعت النصوص والروايات الأخرى بحيث تنسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتيان صورته وإكمال حقيقته .

وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينشئ الإيمان ويُرَكِّب الخلق
ويطلب الكفاح ، ويعزى باعتناق الحق والوفاء له . ويضم ثروة طائلة من الأمثلة
الرائعة لهذا كله .

إننى أكتب فى السيرة كما يكتب جندى عن قائده ، أو تابع عن سيده ،
أو تلميذ عن أستاذه ، ولست — كما قلت — مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن
يكتب عنه .

ثم إننى أكتب وأمام عينيّ مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاظمى والفكرى .
فلا عجب إذ قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومى من قرب أو بعد إلى حاضرنا
للؤسف ، كما أوردت قصة جعلتها تحمل فى طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة
الفكر وجلال العمل ، كي أعالج هذا التأخر المتبر .

. . .

ومحمد ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون
فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان ولا إكناج حبه يكون بتأليف
مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ، ويتأوهون أو لا يتأوهون !
فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملققة بالأكذوبه على
الدين ، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير — فى الإبانة عن تعلقهم بنبيهم —
إلا يوم أن تركوا الباب اللئى وأعيام حمله ، فاحتفوا بالمظاهر والأشكال . ولما
كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام ، فقد افتنوا فى اختلاق صور
أخرى ! ولا عليهم ! فهى لن تكافهم جهداً ينكصون عنه ، إن الجهد الذى يتطلب
اللزما هو فى الاستمسك بالباب الممجور ، والعودة إلى جوهر الدين ذاته فبدلاً
من الاستماع إلى قصة الولد يتلوها صوت رخيم ، ينهض المرء إلى تقويم نفسه

وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من منن محمد صلى الله عليه وسلم في معاشه ومعاده ،
وحر به وسلمه ، وعلمه وعمله ، وعاداته وعباداته . . .

إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره ، ولا تتبعه بصيرته في عمله
وتفكيره لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم واللييلة .

وأريد هنا أن أنبه إلى ضرورة الفصل بين الجد والمزول في حياتنا . ولا بأس
أن نجعل للهو واللعب وتما لا يحدوه ، وللجد والإنتاج وقتاً لا يقصر عنه .

فإذا أراد أحد أن يغنى أو يستمتع إلى غناء فليقلع أما تحويل الإسلام نفسه
إلى غناء فيصبح القرآن ألحاناً عذبة ، وتصبح السيرة قصائد وتواشيح ، فهذا
ما لا مساغ له وما لا يقبله إلا الصغار المافلون . وقد تم هذا التحويل على حساب
الإسلام فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب . وحق
فيمن فعلوا ذلك قول الله عز وجل : « وَذَكَرَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ أَمْيَالًا وَلَهُوًّا
وَفَرَّغَتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . » .

وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب ، يستمتع إليها عشاق الطرب هو الذي
جعل لليهود والنصارى يذبحونه في الآفاق ، وهم واثقون أنه ان يُحيى موتاً
وتحول السيرة إلى قصص وقصائد غزل (١) وصلوات مبهمه جعل الاستماع إليها
كذلك ضرباً من الخلل النفسى أو الشذوذ الناشئ - في نظرى - من اضطراب
الغرائز وفساد المجتمع .

وخير من هذا كله أن يستمتع طلاب الغناء إلى اللهو الجرد والألحان الطروب
فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيب طلبوه من مصادره المصفاة : قرآنًا يأمر وينهى ليفعل
أمره ويترك نهيه وسنة تفصل وتوضح لئلا يسار في هديها وينتفع من حكمها ، وسيرة
تفج روادها بالأدب الزكى ، والقواعد الحصيفة ، والسياسة الرشيدة .
وذلك هو الإسلام . . .

بدأت أكتب هذه الصحف وأنا في المدينة المنورة ، في الجوار الطيب
الذي سعدت به حيناً ، وأعانتني على إتمام دراسات جيدة في السنة المطهرة
والسيرة العطرة .

ولله المنة على ما أولى من نعمة . ولعله — جل شأنه — يجعلني ممن يحبونه
ويحبون رسولهم ، ولما كنت لا أحسن القول والعمل إلا في نطاق الصراحة ،
فلا بد أن أشير إلى أن البون بعيد بين المسلمين ورسولهم . مهما أكنوا له من
حب وأدمنوا من صلوات . لقد رأيتهم يزورون الروضة مشوقين متلهفين ،
ويعودون إلى مواطنهم ليجدوا من يفيطهم على حظهم . ويود لو ظفر بمائنا لواء .
أما أن محبة رسول الله واجبة فهذا مالا يمارى فيه مؤمن . وما يفيض حبه
إلا من قلب منافق جحد .

ولسكن أن تكون هذه العاطفة مظهر الولاء له . فمـذا ما يحتاج إلى
تهذيب وبيان .

إن يثرب من ناحية العمران العام أقل منها يوم كانت موطناً للأوس
والخزرج في الجاهلية الأولى وما يزرع اليوم من أرضها عشر ما كان يزرعه العرب
قديماً وجمهور السكان من رواسب المواسم المزدهجة بالحجيج والزوار . وهم يؤثرون
الجوار العاطل على العودة للعمل في بلادهم ! ويسمون ذلك هجرة . فهل ذلك
إسلام أو حب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . أذكر أنه قابلي نفر من أهل
المغرب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ، فأفهمتهم أنهم
فارئون من الزحف ، لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين الغزاة . وهم مجرمون بتركهم
المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح (١) .

(١) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وفرنسا تحتل أقطار المغرب الثلاثة وغيرها
من ديار الإسلام .

إن هذا الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم غير مفهوم ، وهذه الهجرة لمدينته غير متقبلة . وصلة نبي الله بعباد الله أسدٌ وأحكم من أن تأخذ هذه السبيل الشاردة للفتنة .

إن أعداء الإسلام — كنوا — في غفلة أهله — أن يصدعوا بناءه ويجعلوه أنقاضاً . فكيف يترك تراث محمد نهياً للعوادي ؟ وكيف يمهّد للجاهلية الأولى أن تعود ؟ وكيف يقع هذا التبدل الخطير في سكون ؟ بل في مظهر من الحب لرسول الله ؟

فليفقه المسلمون سيرة رسولهم العظيم .
وهيات أن يتم ذلك إلا بالفقه في الرسالة نفسها والإدراك الحق لحياة صاحبها ،
والالتزام الدقيق لما جاء به .

إلا ما أرحص الحب إذا كان كلاماً ، وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً !

* * *

إنني أعتذر عن تقصيري في إيفاء هذا الموضوع حقه . فشأن رسول الله كبير
والإبانة عن سيرته تحتاج إلى نفس أرقّ وذكاء أنقى .
وحسبي أن ذاك جهدي .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم
وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك
حميد مجيد ؟

حولُ حَدِيثِ هَذَا الْكِتَابِ

سرّني أن تخرج هذه الطبعة الجديدة بعد أن راجعها الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وقد أثبت فيها كل التعليقات التي ارتأها على ماقلت في هذه للسيرة من آثار نبوية ..

وأرجو أن أكون معيناً على إبراز الحقيقة العلمية وضبط الوقائع التاريخية بإثبات هذا النقد ، وشكركم لمن تطوع به ..

إن آفة المؤرخين للسيرة الشريفة ولغيرها من أحداث الناس وأطوار الزمان قلة التثبت وضعف التمهّص .

وقد وقع كثير من الأقدمين والمحدثين في هذا الخطأ ، على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه .

وعندما شرعت أكتب سيرة لسيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهدت أن ألزم للمهج السوى ، وأن أعتمد على المصادر المحترمة ..

وأظنني بلغت في هذا المجال مبلغاً حسناً ، واستجمعت من الأخبار ما تطمئن إليه نفس العالم البصير .

أسكن القارىء سيري في تعقيبات الشيخ ناصر الدين ما يبعث ريبته في هذا الظن .

وهنا أراني مكلفاً بشرح المهج الذى سرت عليه .

قد يختلف علماء السنة في تصحيح حديث أو تضعيفه ، ويرى الشيخ ناصر —

بعد تمحيصه للأسانيد — أن الحديث ضعيف ، وللرجل من رسوخ قدمه في السنة

ما يعطيه هذا الحق ، أو قد يكون الحديث ضعيفاً عند جمهرة المحدثين ، لكننى أنا قد أنظر لمتن الحديث فأجد معناه متفقاً كل الاتفاق مع آية من كتاب الله ، أو أثر من سنة صحيحة « فلا أرى حرجاً من روايته ، ولا أخشى ضيراً من كتابته .

إذ هو لم يأت بجديد فى ميدان الأحكام والفرائض ، ولم يزد أن يكون شرحاً لما تقرر من قبل فى الأصول المتينة ،

خذ مثلاً أول حديث حكم الأستاذ بتضعيفه : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني بحب الله » .

وقد يرى الأستاذ المحدث أن نحسين الترمذى وتصحيح الحاكم لاتعويل عليهما فى قبول هذا الحديث ، وله ذلك .

بيد أنى لم أجد فى المطالبة بحب الله ورسوله ما يحملنى على التوقف فيه ولذلك أثبتته وأنا مطمئن .

وفى الوقت الذى فسحت فيه مكاناً لهذا الأثر - على ما به - صددت عن إثبات رواية البخارى ومسلم مثلاً للطريقة التى تمت بها غزوة بنى المصطلق .

فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم باغت القوم وهم غارثون (١) ما عرضت عليهم دعوة الإسلام ، ولا بدا من جانبهم نكوص ، ولا عرف من أحوالهم ما يلقى . !

وقتل يبدؤ المسلمون على هذا النحو مستنكر فى منطق الإسلام ، مستبعد فى سيرة رسوله .

ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو .

وسكنت نفسى إلى السياق الذى رواه ابن جرير . . . فهو - على ضعفه -

(١) أخذهم على غرة

الذى كشفه الأستاذ الشيخ ناصر - يتفق مع قواعد الإسلام المتينة ، أنه لا عدوان إلا على الظالمين .

أما الغارون الوادعون فإن اجتياحهم لا مبالغ له

وحديث الصحيحين في هذا لا موضع له إلا أن يكون وصفاً لمرحلة ثانية من القتال ، بأن يكون أخذ القوم من غرة جاء بعد ما وقعت الخصومة بينهم وبين المسلمين ، وأمسى كل للفريقين يبيت الآخر ، ويستعد للنيل منه .

فانهز المسلمون فرصة من عدوهم - والحرب خدعة - وأمسكنهم القلب عليهم وهم غارون .

وفي هذه الحالة لا بد من التمهيد لرواية البخارى ومسلم ، بكلام يشبه ما نقله ابن جرير ووهنه فيه الشيخ ناصر .

ولست بدءاً في تلك الخطة التي اخترتها . . . فإن أغلب العلماء جرى على مثالها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على سواء .

وقرروا أن الحديث الضعيف يعمل به مادام ملتزماً مع الأصول العامة ، والقواعد الجامعة .

وهذه الأصول والقواعد مستفادة - بداهة - من الكتاب والسنة . وعلى ضوء هذا النظر المنصف حكمت استشارة رسول الله عليه الصلاة والسلام للحجاب في موقعة بدر - وإن وهن الحديثون سندها - لأنها تدور في نطاق الفضائل التي أمر بها الله ورسوله ، وليس في سوقها ما يحذر قط .

ذلك بالنسبة إلى الأحاديث الضعاف .

أما الصحاح فإن في تفاوت دلالتها مجالاً رحباً للترجيح والرد . كما يعلم أستاذ الحديث .

وما من إمام فقيه إلا ردّ بعض ما صح ، بإشاراً لما ظهر أنه أصح .

ومعاذ الله أن نشغب على السنة ، فهي الأصل الثاني للإسلام بيقيناً .

بيد أنى إذا اتبعت السنن فعرفت أنها - في جملتها - تتفق مع القرآن الكريم في أنه لا حرب إلا بعد دعوة وإعذار وتعريف مشرق لا تبقى معه شائبة غموض ، فكيف أقبل ما يوم غير هذا ؟

الله جل شأنه يأمر نبيه في قرآنه الكريم (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَبَلِّغْ أَلَّامُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ * وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ) .

بعد هذا الإعلام الذي يستوى في الإحاطة به الداعون والمدعون ، وبعد أن سار النبي عليه الصلاة والسلام في مغازيه ، وسار الخلفاء في معاركهم على هذا النحو من توضيح الدعوة ، وإتاحة الفرصة للناس كي يقبلوا أو يرفضوا .

بعد هذا لأرى أن يلزمني أحد بقبول ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عون ، قال : كتبت إلى نافع رحمه الله أسأله أن الدعاء قبل القتال . فكتب إلى إنما كان ذلك في أول الإسلام (١) وقد أثار عليه الصلاة والسلام على بني المصطلق وهم غارثون ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذ جويرية ..

قال : حدثني به عبد الله بن عمر ، وكان في ذلك الجيش « ١١٠٠٠ »

وكما تجاوزت هذا الحديث ، تجاوزت عن مثله أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه وأعلمهم بالفتن ، وأصحابها ، إلى قيام الساعة ..

فقد صح من كتاب الله وسنة رسوله أنه لا يعلم الغيوب على هذا النحو المفصل

« الشامل العجيب » .

آثرت هذا المنهج في كتابة السيرة ، فقبلت الأثر الذي يستقيم مقنه مع ماصح
من قواعد وأحكام ، وإن وهى سنده ..

وأعرضت عن أحاديث أخرى توصف بالصحة ، لأنها - فى فهمى لدين الله ،
ومياسة الدعوة - لم تنسجم مع السياق الامام ...

ولا أرى مكاناً لبسط وجهة نظرى فى أمور كثيرة خالفت فيها
الأستاذ المحدث .

ولكنى أرى المكان متسعاً لتسجيل تعقيباته كلها على ما أوردت من
نصوص ، فإننى عظيم الخفاوة بهذا الاستبحار العلمى ، وهو يمثل وجهة نظر محترمة
فى تمحيص القضايا الدينية .

وأعتقد أن من حق القارىء على أن يعرف رأى أحد المحققين المتشددى فى
الرويات التى أحسبها هنا ، سواء خافته أم وافقته .

وشكراً لله له جهده فى المحافظة على تراث النبوة ، وهذا جميعاً سواء السبيل

(۱)

رسالة وإيصال

الوثنية تسود الحضارة القديمة

إن تاريخ الحياة مؤسف .

منذ هبط آدم وبنوه في الأرض ، ثم بعد أن شبَّ بهم الزمن واطَّرد العمران
وتشعبت الحضارات وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى ، منذ ذلك الحين
السحيق والناس أخلاط متنافرون ، لانستقيم مهم السبل يوماً إلا شردت أياماً ،
ولا يشيرون بوارق الحق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً .

ولو تقصَّينا تاريخ البشر - على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه - لوجدناه
العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه -
في سورة الألم - رشده ، فهو يهذى ولا يدرى ..

وقد كان في تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مزدجر يزع عن الشر ويردُّ إلى
الخير ، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة .

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد صلى الله عليه وسلم ؟
لقد صرت عليها قرون طوال أفادت فيها علماء كثيراً ، ووعت تجارب خطيرة ،
وممت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار .

ومع ذلك فقد غلب الطيش ، واستحكم ، وسقطت أمم شتى دون المسكنة
المنشودة لها .

فإذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي
فارس وروما ؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية
العاطنة والعقل .

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية .
فأمسى الإنسان الذي استخلقه الله ليكون ملكاً في السموات والأرض ،
أمسى عبداً مسخراً لأدنى شيء في السموات والأرض .

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، وتعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟

إن الوثنية هوان يأتى من داخل النفس لآمن خارج الحياة ، وكما يفرض المهرزون كآبته على ماحوله ، وكما يتخيل المارغوب الأجسام القائمة أشباحاً جامئة كذلك يفرض المرء للمسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التى التى يحيا فيها ، فيؤثر له من جواده وحيوانها ما يشاء .

ويوم ينفس القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد ، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة ، فإن هذه الانعكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها .

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه ، فلو ذبحت العجول المقدسة ، ونكست الأصنام المرموقة ، وبقيت النفس على ظلامها القديم ، ما أجدى ذلك شيئاً فى حرب الوثنية ! مبيحت العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا ، يوفضون إليها من جديد ! وما أكثر الوثنيين فى الدنيا وإن لم يلتفتوا حول نصب وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق ، وربّه الأعلى ، والجري وراء وهم جديد . . . !



والخرافة لا تأخذ مجراها فى الحياة وهى تعلن عن باطلها أو تكشف عن هراسها . كلا ، إنها تدارى مجونها بثوب الجد ، وتستعير من الحق لبوسه المقبول وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجها ، ثم تنزين بعد ذلك للمخدوعين .

وكذلك فعلت الوثنية ! لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة ، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع ، بل كما تغير الديدان وأسرار الجراد على الحقائق الغناء ، فتحيلها قاءاً بليقاً . . .

وهي إذا أفسدت . أتركت لم تصلح مأخذت ، وأئن كان مأخذته خيراً قبل
أن تتصل به ، لقد أصبح شرأ بعد ما تحول في جوفها إلى سموم .
وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تقرب إليه
وتبغى مرضاته ... ١١

جزء من الحق ، في أجزاء من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر
من الله ، ويبعدهم عن صاحته ... ١١

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ، ما أصاب شريعة
عيسى ابن مريم عليه السلام من تبدل مروع ، ردها ليلاً وسلامها وبلاً ،
وجعل الوحدة شركة ، واتكس بالإنسان ، فعلق همته بالقرايين ، وفكره
بالأنغاز المعماة .

إن خرافة الثلاث والفساد تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في
إقحامها إقحاماً على النصرانية الجديدة : وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في
تدعيم نفسها ، والأخرى في تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام ، كانت منارات الهدى قد
انطفتت في مشارق الأرض ومغاربها ، وكان الشيطان يذرع الأنظار الفبيح فيرى
ما غرس من أشواك قد نما وامتد ...

فالجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين ، وبلاد العرب
وسائر المجاهيل ...

والنصرانية التي تناوىء هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهند
والمصريين القدماء ، فهي تجعل لله صاحبة وولداً ، وتقرى أتباعها في « رومة »
ومصر والقسطنطينية بلون من الإشرار أرق مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان
شرك مثوب بتوحيد محارب شركاً محضاً ... ١١١

ولكن ما قيمة هذه النقائص التي جمعت النصرانية بين شتاتها ؟

« قالوا : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * سبحانه هو الغنى * له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا * أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مصر جثمهم * ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون . »

ويظهر أن آصرة الشرك بين الجوسية والديانات السماوية المشوهة هى التى جعلت هذه الأحزاب إلباء على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب فى آن . ووصاها أن يتذرع بالصبر أمام هذا التحامل . « لتُبَلَّوْنَ فى أموالكم وأنفُسكم * وأنتم من الذين أُوتُوا الكتاب * من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً * وإن تصبروا وتتَّقُوا فإن ذلك من عزم الأمور . »

* * *

والظلام الذى ران على الأفئدة والعقول فى غيبة أنوار التوحيد طوى فى صواده أيضاً تقاليد الجماعة . وأنظمة الحكم فكانت الأرض مذابة يسودها الفتن والإغتيال ، وبفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والمكينة .

وأى خير يرجى فى أحضان وثنية كفرت بالعقل ، ونسيت الله ، ولانت فى أيدي الدجالين ؟ .

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء فى الحديث « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقهم ، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » (١) .

وهذه البقايا هى التى ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذى طم البقاع والتلاع .

(١) من حديث طويل رواه مسند سلمة بن كهيل .

لقد شملت الدنيا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيرة وبؤس . فاءت
بهما اليكواهل .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم
فعاهل الروم يطغى في رعيته وعامل افرس من كبر أصم عى
حتى تأذن الله ايحسمن هذه الآثار ، وليسوقن هدايته السكبرى إلى الأمام
فأرسل إلى الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام .

طبيعة الرسالة الخاتمة

وتماز بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها عامة ودائمة :
والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ولكل عصر
مرشداً .

وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ،
فلم استعيض عن ذلك كله برجل فذ ؟ .

الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإعجاز الهدي يحصل المعنى الكثير في اللفظ
اليسير ، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عوضاً كاملاً عن إرسال جيش من
النبیین يتوزع على الأعصار والأمصار ، بل إنها سدت مسد إرسال كريم إلى
كل إنسان تدب على الأرض قدماءه ، ما بقيت على الأرض حياة ، وما تطلعت عين
إلى الهدى والنجاة . . . ! !
ولسكن كيف ذلك ! .

في المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : أغض عينيك واتبعنى ، أو
لا تسأل عن شئ . يستثيرك ؟ وربما تكون السلامة في طاعته . فأنت تمشى وراءه
حتى تبلغ مأمنك . إنه في هذه الحل رائدك المعين ، الذى يفكر لك ، وينظر لك
ويأخذ بيدك . فلو هلك هلكت معه .

أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير ، وحذرك مواطن الخطر ، وشرح لك في إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون للتعب . وسار معك قليلا ليدربك على العمل بما علمت . فأنت في هذه الحال رائد نفسك ، تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج وأما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأي من الناس .

والله عز وجل عندما بعث محمداً عليه الصلاة والسلام لهداية العالم ، ضمن رسالته الأصول التي تفتق للأبواب منافذ المعرفة بما كان ويكون .
والقرآن الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حي ، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشده .

لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام إماماً لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه ، قلما انتهى ذهبوا معه في خبر كان ، بل كان قوة من قوى الخير ، لها في عالم للعاني ما لا اكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور في الوجود الإنساني ، كان البشر قبلها في وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه ، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده . وجاء الخطاب الإلهي إليه — عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم — يشرح له كيف يعيش في الأرض ، وكيف يعود إلى السماء . فإذا بقي محمد صلى الله عليه وسلم أو ذهب فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته . إن رسالته تفتيح الأعين والآذان ، وتجليه البصائر والأذهان ، وذلك مودع في تراثه الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناساً قلوا أو كثروا إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذي يصبح به وجودهم ، والنور الذي يبصرون به غايتهم .

فن عرف في حياته الحق ، وكان له نور يمشي به في الناس فقد عرف محمداً صلى الله عليه وسلم واستظل بلوائه وإن لم ير شبهه ويعيش معه .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

* * *

فإذا رأيت بعض الناس يقتنسى دروس الأستاذ، ويتشبث بثيابه وهو حي ، أو يتعلق برافته وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غريب . ليس أهلاً لأن يخاطب بمعاليم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها .

في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة رأيت حشداً من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويود أن يقضى العمر بجانبها .

ولو خرج النبي حياً على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم .

إن رثاة هيتهم وقلة فقهم ، وفراغ أيديهم ، وضياح أوقاتهم ، وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهى من خيط العنكبوت .

قلت لهم : ما تفيدون من جوار النبي ؟ وما يفيد هو نفسه منكم ؟

إن الذين يفقهون رسالته ويميئون وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد صلى الله عليه وسلم منكم . إن القرابة الروحية والعقلية هي الرباط الوحيد بين محمد عليه الصلاة والسلام ومن يمتون إليه .

فأني للأرواح المريضة والعقول السكيلة أن تنصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا ؟

أهذا الحوار آية حب ووسيلة مغفرة ؟ .

إنك لن تحب لله إلا إذا عرفت أولاً الله الذي تحب من أجله !! فالترتيب الطبيعي أن تعرف قبل كل شيء : من ربك ؟ وما دينك ؟ فإذا عرفت ذلك - يعقل نظيف - وزنت - بقلب شاكر - جميل من بلغك عن الله وتحمل العنت من -

أجلك : وذلك معنى الأثر « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني بحب الله .. » (١) ومعنى الآية « قل : إن كنتم تحبّون الله فاتبعون ما يحبّكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

ثم إن نبي الإسلام لم ينصب نفسه « بابا » يهب المغفرة للبشر ويمنح البركات ، إنه لم يفعل ذلك يوماً ما ، لأنه لم يشتغل بالدجل قط ١١٠ .

إنه يقول لك تعال معي ؛ أو اذهب مع غيرك من الناس لنقف جميعاً في مساحة رب العالمين فنأجيه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . فإذا رضى عنك هذا النبي — دعا الله لك . . . وإذا رضيت أنت عنه ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له ! فإنك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً »

وليس عمل محمد عليه الصلاة والسلام أن يحرك بحجل إلى الجنة ، وإنما عمله أن يقذف في ضميرك البصر الذي ترى به الحق . ووسياته إلى ذلك كذاب لا يأتية

(١) هذا حديث ضعيف الاسناد أخرجه الترمذى (٤ / ٣٤٣ - ٣٤٤ بهشرح التحفة) والحاكم (٣ / ١٥٠) وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣ / ٢١١) والخطيب في تاريخه (٤ / ١٦٠) من طريق هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلى عن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً به وقال الترمذى : « حديث حسن غريب ، إنما نرفعه من هذا الوجه » وقال الحاكم : « صحيح الاسناد » ووافقه الذهبي . وهذا من تساهلهم جميعاً لاسيما الذهبي فقد أورد النوفلى هذا الحديث في « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » وقال فيه : « فيه جهالة . ما حدث عنه سوى هشام بن يوسف » ثم ساق له الحديث فأتى له الصحة ؟! وقد تفرد به هذا المجهول ، ولم يوثقه أحد ، ولذا قال فيه الحافظ ابن حجر في « التقريب » ، إنه « مقبول » بمعنى عند المتابعة فأتى المتابع له ؟ ! ولذلك فقد أصاب ابن الجوزى حين قال ، « هو غرر صحيح » كما نقله اللناوى في « قبض القدير » وتعبه بما لا طائل تحته ! يقول : ومع نقد الأستاذ لهذا الحديث فنحن نقبله لأن معناه يوافق الآية ولأنه في الفضائل .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه مُبَيَّنٌ لَأَذْكَرَ، محفوظ من الزيف . وذلك
مر الخلود في رسالته .

* * *

فانظر كيف عالج الرسول عليه الصلاة والسلام البيئة التي ظهر فيها على ضوء
هذه الطبيعة المفروضة في رسالته ، ولنظر قبل ذلك إلى أحوال هذه البيئة
نفسها .

العرب حين البعثة

كان أهل مسكة ضعاف التفكير أقرباء الشهوات :
إذ لاصلة بين نضج الفكر ونضج العزيمة ولا بين تخلف الجماعات من الناحية
العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .
إن عَرام الشهوات الذي نسمع عنه في « بارس » و « هوايود » لا يزيد
كثيراً عما وعته القرى والحالية من مفاصد الإنسان على ظهر الأرض .
وتقدم الحضارة لأثره من هذه الناحية إلا في وسائل زيادة الاغراء فحسب .
أما الشهوات نفسها فهي من قبل الطوفان ومن بعده الأثرة والجشع والرياء
والنهارش والحقد ، وغير ذلك من ذمم الخصال ، ملأت الدنيا من قديم ، وإن
تغيرت الأزمان التي ظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان يرى في القرية القافية ، وهي القبيلة الساذجة ، من التنافس على
المال والظهور ما يراه في أرقى البيئات وكثير من الناس تفوتهم أوصية رائعة من
العلم والفضل ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتياال والتطلع والدس :
وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريية من أغه . ومع ذلك
فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه !!

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا العباء وهذا العناد .

ف عندما دعى قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده كانت إجاباتهم لنوح لا تتم
بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعي ، وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة !

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم . يريد أن
يتفضل عليكم . ولو شاء الله لأنزل ملائكة . . . » .

ما أكثر منافذ الهدى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى في
الأخلاق والأفكار ، والسير والسياسات .

وقد كانت « مكة » في عهد البمثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم ،
وكان الرجال الذين يمحون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلسل الأفكار ،
أو نمائها في ظل الهوى الجامع وتخدمته وحده . . .

كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعم الدنيا وإغراق في التشبع منه ، رغبة
عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة ، عصيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك ،
تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادى والأدبى داخل هذا النطاق المحدود .

من الخطأ أن تحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء
موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الغرورات التي تمسك عليها الرمق . كلا ، إنها
شبت حتى بطرت . وتنازعت الكبرياء حتى تطاحت عليها ، وكثر فيها من
تغلغل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراج منه . فهم بين عم عن الصواب
أو جاحد له ، وفي هذا المجتمع الذى لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية باغ غرور
الفرد مداه ، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطمواه .

قال عمرو بن هشام — معللاً كفره برسالة محمد عليه الصلاة والسلام —
زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرى رهان ، قالوا : منابى يوحى
إليه ! والله لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتى 11

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ! لأنى أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً !
وهذه السفاهات العاتية ، لم تنفرد مكة بها . فما كان كفر عبد الله بن أبي في المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد الهجرة — يعود سعد بن عبادَةَ في مرض أصابه قبل وقعة بدر ، فركب حماراً وأردف وراءه أسامة بن زيد ، وساروا حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي . وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشرّكين عبدة الأوثان واليهود . وفي المسلمين عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خر ابن أبي أنفه بردائه ، ثم قال : لا تغبروا علينا . فلم يرسل الله عليه الصلاة والسلام ، ثم وقف ونزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله : أيها المرء إنه لا أحسن ما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ! وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه . .

فقال ابن رواحة : بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا ، فإننا نحب ذلك ، فاستبّ المسلمون والمشرّكون واليهود حتى كادوا يتثأرون . فلم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام يحفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبادَةَ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم تسمع ما قال أبو حباب — يعنى ابن أبى — ؟ قال سعد : وما قال ؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : قال كذا وكذا . . . يقال سعد : اعف عنه يا رسول الله ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى أنزل عليك ، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة — يعنى المدينة — على أن يتوجّوه ، ويعصوبوه بالعصاية . فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك ، شَرَقَ بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت (١) . .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٨٥/٧ — ١٨٦) بشرح فتح البارى ومسلم (١٨٢/٥ — ١٨٣) وأحمد ٢٠٣/٥ من حديث أسامة بن زيد .

إن ابن أبي غص بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل ، ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هنا ألوفاً غيرهم لا يدر كونه قبيلاً ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

ووسط هذه الجملات البسيطة أو المركبة ، والعدوات المقصودة أو المضللة ، وسط نماذج لا حضر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته ، فأخرج أمة من الظلام إلى النور ؛ بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيء ويهدي ، والدروس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواء موقوتاً أو مخصوصاً ، بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذ الغائث ومستظل ما بقى الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان ونجدد الحياة .

رسول معلم

كانت الاشارات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبيا قرب ظهوره ، ولهذه الاشارات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسول أن يتابعوا فلا تطول فترة الانقطاع بين أحدهم والآخر ، وكثيراً ما تعاصر المرسلون فجمعتهم أقطار واحدة أو متجاورة ولكن الأمر تغير بعد عيسى ، فكادت المائة السادسة تتم بعد بعثته ، ولما يأت نبى جديد .

فلما اكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات زاد التطلمع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب ، وكان هناك رجال ممن يفكرون الجملة السائدة يستشفون للمنصب الجليل ، ويتمنون لو اختيروا له منهم « أمية بن الصلت » الذي حفل شعره بالتحدث عن الله وما يجب له من محامد ، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « كاد أمية أن يسلم » (١) . وعن عمرو بن الشريد عن أبيه : ردت رسول الله

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤٩/٧) وابن ماجه (٤١٠/٢) من حديث عن أبي هريرة ، وأخرجه أيضاً من حديث للثرند وهو تمام الحديث الآتى بعده .

حلى الله عليه وسلم يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن الصلت ؟ قلت : نعم ، فقال : هيه فأنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت (١) .

غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المقطوعين من شعراء وناثرين ، وألقى بالأمانة الكبرى على رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » .

إن الاصطفاء بالرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها .

وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل ، وكم من راسخين يطوبهم الصمت ، حتى إذا كفروا أنوا بالعجب العجيب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها ، والذي يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفساً عظيمة ، وقد كان العرب في جاهليتهم يرمقون محمداً صلى الله عليه وسلم بالاجلال ، ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة ، إلا أنهم لم يتخيلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله ، وأن الحكمة سنة فجر من ذلك الفم الطهور ، فخطوى السهوب والجدوب ، ونثب الوهاد والنجاد .

إنهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر ، تشغله الصفحة المهادنة عن الغور البعيد .

كان اصطفاء الله لمحمد مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفت عنه ، ثم ثبت الكاهل الجلد لما ألقى عليه ، ومضى على المنهج مسدداً مؤيداً .

ومكث الوحي ينزل ثلاثاً وعشرين سنة ، كانت الآيات تنزل خلالها حسب الحوادث والأحوال ، وهذه الفترة الطويلة الحافلة هي فترة تعلم وتعليم .

الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية ، فيديرها في نفسه حتى يحيلها جزءاً من كميانه ، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذاً .

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه .

ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم ، فإن الزمن حزم
من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام .

واتساق القرآن في أغراضه ومعانيه - على طول المدة التي استغرقتها تجميعه -
يعتبر من وجوه إعجازه فإن خواتيمه -- بعد ربع قرن - جاءت مطابقة
مساوقة لقواتمه ، يصدق بعضها بعضاً ويكملها ، كأننا أرسلت في نفس واحد .

وقد تساءل العرب : لم نزل القرآن كذلك ؟ (قَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ مُجْمَلَةٌ وَاحِدَةٌ ه كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ه
وَلَا يَكُونُ لَكَ يَنْكِلٌ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة ، وهو - في
دعوته العامة - يبسط الشبهات العارضة ويفندها ، ويسوق أدلته وهو على بيئة
من آراء خصومه ، ويتبع أفصى ما يثار ضده ثم يكر عليه بالحجة فيسحقه ، وقد
بدأ القرآن بين قوم تشعب الكفر في نفوسهم ، ومرت على الجدل ألسنتهم ، وكان
انقدر تخير هذه للبيئة لتكون مجعاً يمثل آخر ما يحيك في القلوب من ريبة ، وآخر
ما يبذله الباطل من التعدي ، فإذا أدام الإسلام في تبديد هذه الريب ، وتذليل
هذه العوائق ، فهو على مادونها أنذر . . . ! !

والاسئلة التي توجه للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو التي ينتظر أن توجه إليه
في مختلف العقائد والأحكام وجدت إجابتها الشافية في القرآن ، باعتبار أن السؤال
لا يمثل حاجة صاحبه وحدها ، بل حاجات الناس على مر الأيام .

وفي هذا الجو المليء بالتساؤل استفهاماً أو استنكاراً كان الإلهام يلاحق
الرسول صلى الله عليه وسلم : قل كذا ، قل كذا .

وما أكثر الآيات التي صدرت بهذا الأمر إجابة لسؤال ورد أو مفترض .

وَأنت تحس - إذ تقرأ هذه الأجوبة المستفيضة - أيضاً من اليقين ينساب إلى
قلبك ، كأنها حسيت وسأوس عرضت لك أوفى الإمكان أن تعرض .
والرسالة الخالدة هي التي تصلها بضمائر الناس هذه الأواصر المتينة .
إن القرآن رسول حي ، تسأله فيجاوبك ، وتستمع إليه فيقنمك .

انظر : كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء ، وينوه بشمول الإرادة والقدرة
في ثنايا إجابة على سؤال موجه وكيف صغيت المعاني في أخذ ورد ، واعتراض
ودفع . كأنها حوار سيال ، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر :

(أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ
لَنَا مَثَلًا وَآسَىٰ خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي
أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ
فَارًّا ، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

ان هذا مثل للاستدلال القائم على النظر الصائب ، لا يختص به زمان دون
زمان ولا مكان دون مكان فهو خطاب للعقل العام في البشر أجمعين ، وهو بيان
لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، ردأعلى
معارض له من أسئلة في أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو إلى الله ، ثم ثبت السؤال
والجواب ليكون منها علم - ينفع الناس آخر الدهر .

• • •

وقد استوقف الأمر بـ « قل » نظر العلماء انه تعليم من الله لرسوله ، وتعليم
من الرسول للناس ، وقد سبقت بعد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ما شاء الله
من النصائح والعظات والأحكام .

فعندما أحب المشركون - على عاداتهم - أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة المدين ، إلى شخص الرسول وأتباعه نزلت الآيات (قل أرأيتم إن أهلكنى الله وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ قل هو الرحمن آمَنَّا بِهِ ، وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين) .

فانظر كيف يستخلص الباب وسط غبار الجدل ! ما يجديكم تنقص الرسول ومن معه ؟ فكروا فى أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها عن الجادة ؟ إنه ليس للرسول الله ومن معه تفكير فى أنفسهم وحظوظها ، إهم دعاة الرحمن ، آمنوا به ، وتوكلوا عليه فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن ميسرة ١١ .

وليس من الضروري أى يقع سؤال ما لتأتى الإجابة عليه من لدن الله « قل » ١١ فرمما يحىء السياق على هذا النحو ابتداءً عند عرض أصول الدعوة وآدابها ، وتكون الغاية منه التعريف الإسلام ونبه تعريفًا مشبعًا مقنعًا يستأصل الريب قبل أن تولد :

(قل : إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وما كان من المشركين ه قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ه قل : أغير الله أبغى ربًّا وهو رب كل شئ ؟ ولا تكسب كل نفس نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . .) .

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أسرارًا إلى كل حى وجد فى عهده ، أو يوجد من بعده أن يتدبر - بعقله - ما يلقى إليه ، وأن يحكم - بضميره - على مدى صحته وإخلاصه .

فإذا تعلق بقلبه إيمان فهو إيمان برب كل شئ وعمل الرسول ينتهى عند هذا الحد ، عند وصل العقول والقلوب ببارئها وإيضاح الصراط المستقيم لها ، وعلى كل انسان تحمل تبعته فى فعل الخير أو الشر بعد ذلك .

فليس الرسول صلى الله عليه وسلم وسيطاً يحمل لك خيراً قدمته ، ولا قرباناً يحمل عنك عقاباً استحقته ، لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . وهنا يبدو بعد الشقة بين المسيحية والإسلام .

الإسلام يغالى بقدر الإنسان ، ويعطيه جزاءه الحق على الرفعة والفضة . أما النصرانية فالمرء عندها أنزل قدراً من أن يتصل برب العالمين من تلقاء نفسه لابد من آخر يحمل قربته ويقبل توبته ، ومن ذلك الآخر ؟ شخص دعى ١١ فإذا اقترف ذنباً فليس هو الذى يلقى قصاصه ، إن القربان ذبح قديماً من أجل خطيئته تلك ، وعليه أن يصدق بذلك لينجو إن أراد النجاة . . . ١١

هذا الخبط يحتاج إلى جرارات ثقيلة ! ليسير في الحياة مراغماً المنطق والعدالة أما الإسلام فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام قولاً تنفتح له الأعين والأفهام :

﴿ قل : من ربُّ السموات والأرض : قل : الله . قل : أتتخذن من دونه أولياءَ لا يملكون لأنفسهنَّ نفعاَ ولا ضرراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالقُ كلِّ شئٍ وهو الواحد القهار ﴾ .

إن هذه الاستفهامات المترادفة سباط تلزع الباطل ، وتجعل النائم يصحو من سباته ، وتحفز الإنسان إلى اعتناق الحقيقة ، والتسامى بها . وذلك ما يعلنه ويعمل له رسول الإسلام .

° ° °

وقد اتقى الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنية السائدة ، فهي لم تانق أنفاسها في معركة أو معركة : بل قاتلت يأس شديد على كل شبر من الأرض . وكان الظن أن قواها خارت وانماعت عندما أدى لرسول أمانيه وذهب إلى الرفيق الأعلى بيد أن الجزيرة انتفضت بأسرها في عهد أبي بكر ، وانحصر المسلمون وسط

طوفان من الردة العمياء شرعوا يكافحونه مرة أخرى فما استطاعوا كسر شوكتهم إلا بعد ما تكبدوا من الخسائر أكثر مما فقدوا على عهد النبي عليه الصلاة والسلام في مقاتلة أولئك المشركين .

إن الرجال الذين ثبتوا على الحق بعد رحيل نبيهم عنهم هم المسلمون حقا فإن الإسلام رباط بمبادئ لا بأشخاص ، وقد علم الله نبيه وعلم المسلمين في شخصه أن يلتزموا الحق الذي عرفوا ، وأن يتشبثوا به مهما غولبوا وحوروا .

والدنيا طافحة بأسباب الزيف ، وهي تحاول ألا الأتبقى للإيمان مكاناً بها ، فإذا ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلأينه حتى ينزل عن شيء ويكتفي بشيء ولو أفلحت في إصتدراجه إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز عليه ، ولذلك جاءت أوامر الله في كتابه حاسمة تقضى بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، وأن منازقة الكافرين على هذه الحقيقة لا يجوز أن تهدأ ، فلا بد من الاستمسك بهذه التعاليم المترابطة ، والحب والبغض عليهما ، والمسألة أو المحاربة دونها فإن نصيب العاطفة في خدمة العقيدة ، لا يقل عن نصيب العقل .

والآيات الواردة في ذلك هي أوامر للمسلمين تنزلت في شكل خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم : (يا أيها النبي اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً * وأتبع ما يوحي إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً * ونوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) .

فليس الرسول صلى الله عليه وسلم مظنة أن طيع الكافرين والمنافقين حتى ينبيه إلى التحرز منهم ولكننا - نحن - المعنيون بهذا الارشاد .

ومن ذلك : (ادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر) .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم من بدء دعوته حرباً على الشرك وعلى الآلهة الأخرى . ومنه تعلم الناس هذه الخصوصية ويستحيل أن يتوقع منه غيرها .

ومن ذلك : « لا تمدن عنيك إلى مامتعنآ به أزواجآ منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطآ .
وقل : الحق من ربكم » .

« فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » .

قال المفسرون : خطبت الأمة في شخص رسولها كما تصدر الأوامر إلى القائد مع أن الجند هم المنفذون .

وقيل : بل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريق الالهاجة واستشارة الهمة يقال للقوى البادية العزم : لا تهن . وللعاقل الصحيح الذهن : لا تنفل . وليس يخاف عليهما وهن ولا غفلة ، واسكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء .
والشجاع يزداد على الموت إقبالا إذا قيل له : لا تبجن ...

وسواء كان هذا أم ذاك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام مناط الأسوة الحسنة ، ومن سلوكه يأخذ الناس مثلهم الأعلى . وقد أمر وأمرنا معه بالتوجس من الضالين ، والتناهي عن خلقهم وعملهم ، وازدراء متاعهم وغرورهم .

وذلك لأن هناك أحيانا شتى يضعف فيها الحق ويميز التمسك به ويقوى فيها الباطل وتكثر المغريات على مصادقته ، أو مهادته .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يشددوا في تدعيم جانبها ، وأن يتنكروا لما يمسها من بعيد .

والأوامر التي تنظم هذه المشاعر لن تنقصها الصرامة ، وماذا بعد أن يقول الله لنبيه « ممن أشركت لي حبطن عملك ولستكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » :

إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه ، كما قيل : « إياك أعنى واسمعى » وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تأليب المسامحين على الفساد وترهيبهم من الركوع إليه ، بله الوقوع فيه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضاً على الآية « فإن كنت في شك بها أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . . . » .

الخطاب للقارىء ، أو السامع ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على جهة التوبيخ والتعرض كما علمت : إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام لن يقع منه شك في أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل كما قيل في سورة أخرى « قل إن كان للرحمن ولد فأننا أول العبادين » . ولكن مامعنى سؤال أهل الكتاب ! قالوا : المراد الثقات المنصفون منهم ، فهم لن يكتموا شهادة الحق إذا طلبت إليهم .

وعندى أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما أظن الآية تعنى ذلك .

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاسة ماعنده من خير إذا رأى ماعند غيره من غلط ، ولو ارتبت لحظة في أن القرآن من عند الله ، ثم تصفحت كتب المهدين القديم والجديد ، لعدت — على عجل — إلى كتابك تتشبه به ، وتحمداً لله ألف مرة أن هديت إليه !!

وأحسب أن هذا ما تشير إليه الآية ، فإن تبين ما في الإسلام من حق يزداد قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه ، وهذا يتفق مع قوله تعالى : « ولئن آتيت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولي » . ولا نصير . ويزكى فهمنا هذا في الآية الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « يامعشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث للكتب بالله ، تقرءونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من

عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا ،
والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم » ١١

إن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حب لها
وإعزاز ، وكرهية للباطل وعداء صريح .

إن هناك أناساً في مشاعرهم برودة يلقون بها الرأي وضده ! وقد يتصور هؤلاء
في بعض المسائل النافذة . أما أن يتعلق الأمر بالإيمان ، والإلحاد ، والتجسس
والعفاف ، فلا ...

إن الله علم رسوله الكتاب ، والإيمان ، فكان من عرفان الرسول صلى الله
عليه وسلم بهذا الفضل الإلهي أن غالى بإيمانه واعتز بقرآنه ، فعاش بهما وعاش لهما ،
وخاصم وسالم فيهما ، وطالما تمنى عدائه أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكن هيبات
« ودوا لو تدهن فيدهنون » والأمة الجديرة بالانتماء إليه هي الأمة التي تناضل على
الحق فلا تسمح بانتقاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها إنها أمة فتكورة ومنهاج
يقوم كيانها المادي والأدبي على ما تبذل في ذلك من جهد وتثمر من نتاج .

منزلة السنة من الكتاب الكريم

من حق المسلم أن يرتب المصادر التي يأخذ عنها دينه ، وأن يدرك الوضع
الصحيح للمحفوظ من قول النبي عليه الصلاة والسلام وفعله إلى جوار السجل
الثابت للوحي الإلهي الذي خصت به الرسالة الخاتمة .

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته الحكمة شرع دستوره وبسطت
دعوته ، وقد تكمل الله بحفظه فصينت به حقيقة الدين ، وكتب لها الخلود أبد
الآبدين ؛ والرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالته ، كان « قرآنًا »

حيًا يسعى بين الناس، كان مثالا لما صوره القرآن من إيمان وإخبات، وسعى وجهاد، وحق وقوة، وفقه وبيان، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه، يهتدون إلى حياته كلها تعد ركنا في الدين، وشرعة للمؤمنين .

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال؟ ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة؟ إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته، وللقانون نص وروح، وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد، نجد فتاوى وتدوين نصائح وتحفظ تجارب وعبر، وثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى روحه .. وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام، والسنة هي تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الانباع فيما يأمر به ووجهى عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة الله، وليست خضوعاً أعشى لواحد من الناس .

قال الله عز وجل: « من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن نول فمنا أرسلناك عليهم حفيظاً » وقال: « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقال: « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنها فانتهوا » على أن الإلهام الأعلى لا يعطل مواهب الإنسان الراق، فمن الخطأ أن نتصور المرسلين أناساً مسخرين تنطقهم الملائكة أو تسكتهم إنهم لو لم يكونوا أنبياء لكانوا أربالاً يرمقون باحترام، ويقدمون عن جدارة .

إن الوحي لا يصيب الناس اتفاقاً . بل يرشح له أكل الناس رشداً وأسبقهم فضلاً، وأنبلهم خلقاً، وأنضجهم رأياً . ومسيرة هؤلاء في الحياة ليست مما ينبذ وكلهم ليس مما يهمل . فكيف إذا تأيدت هذه المعرفة بالعصمة . وهذا الدكاء بالتسديد؟

إن السير في ركاب المسلمين هو الخير كله ، ومن ثم كانت سنة محمد عليه الصلاة والسلام مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به وجمهور المسلمين على هذا الفهم .
إلا أن السنن الماثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل . ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وضع موضعه !!

والمسلمون لم يؤدوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أودوا من الأحاديث التي أسمى فهمها واضطربت أوضاعها . حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جماعة نظرة ريبة واتهام ، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، ونقدت بحذر ، ومحضت بدقة كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال ؟ والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية . لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لسكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها ؟؟

عندما درسنا تراث محمد عليه الصلاة والسلام في « الأخلاق » وذاكرناه أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب المعجز ، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الضخمة ، إلا أن الاشتغال بالسنة - مع هذا - يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التي تجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين .

١ - فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر فإن القرآن هو الدستور الأصيل للإسلام وهو الذي يحدد للمسلم بدقة قامة واجباته ، وحقوقه ويرتب التكاليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تعطى عبادة على أخرى ، ولا تعطى كلها على عمله للحياة ومكانه فيها .

والمرء الذى يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يعوضه عن فقدانها
شئ آخر والصورة التى تستقر فى نفسه للإسلام - من غير القرآن - تضطرب
فيها النسب والألوان، وربما لحقها اختلاف كبير .

ولذلك حرص أئمة الصحابة على أن يُخلّوا الطريق للقرآن الكريم ليحتل
مكاته الأولى فى القلوب، وحرصوا على ألا يزاحمه فى موضع الصدارة شئ .
روى ابن عبد البر فى كتابه (جامع بيان العلم وفضله) بأسانيد التى ذكرها ،
قال :

عن جابر بن ^(١) عبد الله بن يسار قال: سمعت علياً يقول : أعزم على كل من
كان عنده نسب إلا رجع فحاه ، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم
وتركوا كتاب ربهم وعن الزهرى عن عروة ^(٢) أن عمر بن الخطاب رضى الله
عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام فى ذلك ،
فأشاروا عليه بأن يكتبها ، فطهق عمر يستخير الله فيها شهراً . ثم أصبح يوماً ،
وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت أريد أن أكتب السنن ، وإني ذكرت قوما
كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني - والله -
لا أشوب ، وفى رواية : لا أنسى كتاب الله بشئ أبداً .

وعن ابن سيرين قال : إنما ضل بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم .
ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن

(٢) كذا هو فى « جامع بيان العلم » ١ / ٢٦ وهو خطأ من الناسخ أو الطابع ، ومثله
فيه كثير! والصواب : « عن جابر عن عبد الله بن يسار » وجابر هذا . وهو الجعفى وهو
ضعيف جداً ، وقد كذبه الجوزجاني وغيره .

(٢) عرواه هو ابن الزبير لم يسمع من عمر بل لم يدركه ، فهذا الأثر منقطع ضعيف كذلك
رواه الخطيب فى (تقييد العلم) (ص ٤٩ - ٥١) من طرق من عروة . اللهم إلا رواية
راشد عن الزهرى فانه وصله بذكر عبد الله بن عمر بن عروة وعمر . وهى شاذة كما أشار
إلى ذلك الخطيب نفسه .

قال عبدالله بن مسعود : يا جارية هاتي بطشت واسكبي فيه ماء ، فجعل يمحوها بيده ويقول : نحن نقص عليك أحسن القصص . فقال له : انظر فيم احديثاً عجبياً ، فجعل يمحوها ويقول : إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره . كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل السكتاب .

وعن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فشئ معنا عمر إلى (صرار) ثم قال : أندرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشيت معنا تريد أن تشيعنا ونسكرمنا . فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدومم بالأحاديث فتشغلهم . جودوا القرآن وأفولوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم . فلما قدم « قرظة » قالوا : حدثنا . قال : نهانا عمر بن الخطاب وعمر وعلى وغيرهما من الأئمة لا يحدون السنة . ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال . وذلك هو الترتيب الطبيعي فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل لبعض أجزائه ، إذ أن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شغلت الأذهان فلم تترك بها فراغاً للأصول اللازمة في القواعد الهامة .

وخصوصاً لأن الطريقة التي تروى بها الأحاديث تجمع في صعيد واحد ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام متناثرأفي أمكنة شتى وأزمنة شتى ولا يلبس شئ . عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يعجبك أبو هريرة ؟ جاء يجلس إلى جانب حبرتي يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يسمعي . وكنت أسبح فقام قبل أن أفنى سبحتي - أنهى صلاتي - ولو أدر كفته لرددت عليه . إن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يكن يسرد الحديث كسر دم^(١)

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما (وأبو داود) ١ (١١٥ - طبع التازي) وابن عبد البر ١٢ (١٢١) .

٢ - ويحيى بعد رسوخ القدم في فهم القرآن - فهم ما يرد من السنن على وجه الحق « فخير لمن فهم السنن أن يحبس لسانه في فهمه فلا يقول : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعي إلا اليسير . وتعجب السيدة عائشة من أبي هريرة حين جلس يروي ليس لأنها تهمة بكذب ، بل لأن أسلوب تحفته يهدر الملاحظات التي قيلت فيها هذه الأحاديث بعد ما طويت طياً في سرده الموصول . وقد روى مسلم في صحيحه أن عمر ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولعل عمر فعل ذلك لأنه وجد أبا هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يعي منه إلا أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراءها (١) ومنع الحديث - ولو صح - إذا وحى بهذه الجملة أفضل من إباحة روايته . .

وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة نفسه قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر من الخطأ لضربني عمر بالدرة !!

وفقه عمر في هذا المنع أنه يريد - كما علمت - بناء المجتمع على تعاليم القرآن وشغل الأفكار بتدبرها والاصتنباط منها ، فإذا رويت السنن بعدئذ تلقفتها أذهان فيرة ، فلم تعد معها معناها الصحيح . .

يستطيع أبو هريرة - لجودة حفظه - أن يسرد مائة حديث في الصلاة مثلاً وعمر ربما لا يرى حرجاً من سرد هذه السنن في مدرسة خاصة ، ولكنه يكره أن

(١) قلت : هذا الاحتمال بعيد بل باطل فإن في الحديث نفسه عن مسلم (١/٥١/٤٥) أن عمر (رض) كان أول من لقى أبو هريرة وأول من حدثه هذا الحديث فلعل الأستاذ المؤلف يميل للنظر فيه .

يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفيهم منه القليل ، ثم ينصرفون بعده إلى عمل أجدى .
على الإسلام وأهله ...

وذلك سر مطاردته للرواة المكثرين !

لقد روى ابن حزم قرابة ألف صدقة من الأحاديث في الوضوء ولمن شاء أن يتوفر على هذا اللون من العلم ، لكن شغل عامة المسلمين به حق ! فإذا بقي بعدئذ للقرآن نفسه ؟ بل إن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقرأوا القرآن ، ولا تغفلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به (١) ... ! !

وإن يكن هؤلاء الحفظ فضل فلأنهم حملوا العلم إلى من يحسن الاستفادة منه . على نحو ما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رب حامل فقه إلى من أفقه منه » (٢) عن أبي يوسف قال : سألت الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير . فأجبت ، فقال لي : من أين قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت بالحديث الذي حدثتني أنت ! ثم حدثته ! فقال لي يا يعقوب ، إنى لا حفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ما عرفت تأويله إلا الآن ... ! !

وقد يبصر أبو يوسف الفقيه ما يغيب عن الأعمش الحافظ ، ولكن المحذور ليس في الحفظ بل أفهم ، بل أن يفهم الأمر على غير وجهه ..

والترتيب الفني للسنن - كما دونت وتلقيناها - يجعل ما ورد في الإيمان باباً وما ورد في القضاء باباً ... وهكذا ...

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٢٨/٣ . ٤٤٤) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٠/٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً . وسنده صحيح . وقواعد الحافظ في الفتح (٨٢/٩) .

(٢) حديث صحيح رواه ابن عبد البر (٣٩/١) وكذا أصحاب السنن والداري وأحمد في حديث يزيد بن ثابت وسنده صحيح ، وصححه ابن حبان وابن حجر وغيرهم .

ولما كان الإسلام جملة هذه الحقائق . فإن السنة أصبحت كتاجر كبير للملابس وزعت فيه أنواعها على مختلف الجوانب ، هنا أغطية الرأس ، وهنا سراويل ، وهنا قمصان . وهنا حلل سابعة . . إلخ .

والطبيعى أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجوانب كلها ليأخذ ما يفي به من رأسه إلى قدمه ، ولكن يحدث كثيراً أن ترى من يشتري قلنسوتين ويخرج حافياً ، أو من يشتري منديلاً ويخرج عارياً . ١١

إن هذا مثل طوائف اشتغلت بالسنة ، ثم - بعد طول تطواف - خرجت على الناس ، وفي يديها من السنن سواك ، وعمامة مقطوعة الذنب اعتبروها شعار الإسلام ، وسر ذلك أنهم دخلوا المعرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله في حديث أو سنة محدودة ، فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعاً .

٣ - إن قصر الباع في السنة - على كثرة الاشتغال بها - أضر بتوجيه المسلمين ، وأشاع بينهم طائفة من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة ، نابو عنها روح القرآن والسنة وإن اعتمدت على حديث لم يفهم ، أو أثر لم يفقه . . .

وذلك أن الإسلام - في الشؤون الهامة - جاء بطائفة من الأحكام ، ذكرت في الكتاب العزيز أو وردت على لسان النبي . وهى جميعاً متكاملة يفصل بعضها بعضاً ويوثقه ، فإذا ظهر في دليل منها ما يعارض سائر الأدلة ، بحث في تأويله حتى يتم الجمع بينها كلها ، أو قبل الأرجح سنداً ورد الآخر .

ولذلك يرى المحققون أن سنن الأحاد ترفض إذا خالفت ظواهر الآى ، وعموم النص ، أو خالفت قياساً يعتمد على أحكام القرآن نفسه ، وهم يفرقون بين الأحاديث التى يروها رجال فقهاء . والتى يروها رجال حفاظ فحسب .

ولنضرب لك ، مثلاً يكشف عما يصيب الأمم من عقم رضاء نتيجة فهمها الخاطيء - لأثر وارد .

كثير من المسلمين يحكون على المرأة ألا ترى أحداً ولا يراها أحد وفي المدينة تسيح النسوة في الطرق يرتدين خياماً مغلقة طامسة . بها خرقان من أعلى لإمكان الرؤية . وقد تخفى هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو الباغة ...

وهذا التقليد السائد يعتمد على حديث سمعت إمام الحرم النبوي يردده من فوق المنبر في خطبة الجمعة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره النسوة أن يرين عبد الله أن أم مكتوم ، فلما احتججن بأنه أعمى لا يراها ! قال لهما : « أفعمياوان أنما (١) » ؟

وقد استنكرت على الخطيب إirاده لهذا الحديث . فإن علماء السنة تكلموا في معناه ، ومن الجهل بالسنة تقريره عند بيان وظيفة المرأة ، وأسلوب حياتها ، وقواعد اتصالها بالمجتمع العام ، ولم لا تذكر السنن التي رواها البخاري في ذلك وهي أدق وأصح ؟؟

أثبت البخاري تحت عنوان « باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال . . عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم « أحد » انهزم الناس عن النبي قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدماً سوقهما .

(١) أخرجه أبو داود (٢ - ١٨٣) والترمذي (٤ - ١٥) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٧ - ١٢٦ ، ١٢٨) والبيهقي (٧ - ٩١) من طريق الزهري قال : حدثني نهبان مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت . كنت عند رسول الله (ص) وعنده ميمونه : فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمر بالحجاب فقال (ص) : احتجبا منه (فلما : بإرسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يدرفنا ؟ فقال : أفعمياوان أنما) ألسنا تبصرانه ؟ وقال الترمذي : (هذا حديث حسن صحيح) وقوى الحافظ إسناده في (الفتح) ، وفيه غلط (فان نهبان هذا لم يوثقه غير ابن حبان) وهو معروف بتساهله في التوثيق كما بينه الحافظ نفسه في مقدمة (إسان البزاة) ولهذا نراه في (التقريب) لم يوثق نهبان هذا بل قال فيه : (مقبول) أي عند للتابعة (وليس له متابع على هذا الحديث) فكلما يقتضي أن هذا الحديث غير مقبول . وقد قال ابن عبد البر : لأنه ليس ممن يحتج بحديثه . وإن حديثه هذا مستكر . كما نقله ابن التركلاني في (الجوهر النقي) .

تنقلان القرب على متونهما - ظهورهما - ثم تفرغانه - الماء - في أفواه القوم ،
ثم ترجعان فتملاّنها ، ثم تجمّتان فتفرغانها في أفواه القوم .

وذكر تحت « باب غزو المرأة في البحر » . . سمعت أنسا رضى الله عنه
يقول : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على « ابنة ملحان » فأتسكا عندها ثم
ضحك . فقالت : لم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : ناس من أمتي يركبون البحر
الأخضر في سبيل الله . مثلهم مثل الملوك على الأسرة . فقالت : يا رسول الله ، ادع الله
أن يجعلني منهم . قال : اللهم اجعلها منهم ثم عاد فضحك . فقالت له : مم ذلك ؟
فقال لها مثل ذلك ! فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : أنت من الأولين ،
ولست من الآخرين : قال أنس . فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع
بنت قرظة فلما قتلت ركبت دابتها ، فوقعت بها فسقطت عنها فماتت . .

وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء للقرب ، إلى الناس في الغزو » . أن
عمر بن الخطاب قسم سروطاً بين نساء المدينة . فبقي مرط جيد فقال له بعض من
عنده . يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام التي عندك -
يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر : أم سليط أحق (وأم سليط من نساء
الأنصار ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام) قال عمر . فإنها كانت تزف
لنا القرب يوم « أحد » أى تخيطها .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى في الغزو » عن الربيع بنت
معوذ قالت : كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام نسقي ، ونداوى الجرحى ، ونرد
القتلى إلى المدينة . . الخ .

وافترض أن البخارى لم يرو هذه الأحاديث الصحيح إمكان حديث العمياوين
بسلط على المجتمع ، ويحجر به على النساء في دورهن فلا يخرجن من هذا السجن
أبداً ؟ إن حكما مثل هذا لا يعرف من القرآن . بل إن القرآن يحمل هذا الحكم

بعقوبة لانسوة اللاتي يرتكبن الفواحش (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) .

اسكن المسلمين لما استوعروا سبل التريبة المهدبة للذكور والإناث - بسبب المنحرفهم عن القرآن - لجأوا إلى السجن والاضطر فكان ما كان .

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث . .

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة . .

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين . .

ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم . .

وكان تطور الفكر الإسلامي ، على هذا النحو وبالا على الإسلام وأهله .
روى ابن عبد البر عن الضم — جاك بن مزاحم « يأتي على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعيش عليه العنكبوت ، لا ينتفع بما فيه ، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث » وسبيل الرشدي هذه العناية أن تعود إلى القرآن ، فنجعله دعامة حياتنا العقلية والروحية ، فإذا وصلنا إلى درجة التشبع منه ، نظرنا في السنة فانتفعنا بحكمة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه ، ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل الخبرة بالقرآن ، أو قليل الخبرة بالروايات أو ضعيف البصر بمواقعها ومناسباتها .

النبي وخوارق العادات

جرت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام - الخاصة والعامة - على قوانين السكون المعتادة ، فلم يخرج - في جلستها - عن هذه السقن الدائمة .

هو - من حيث إنه بشر - مجوع وبشبع ، ويصح ويمرض ، ويتعب ويستريح ويحزن ويسر ، ولكن الناس أنقسم ، في هذه النواحي ، صنوف لاتجمعها قاعدة

عامّة منهم المهالك على ضروراته، فلو نقص حظه منها قليلاً طاش لبه وخارت قواه.
ومنهم الجلد الصبار يحزّنه النزر اليسير، ويمضى لعاقبه رافع الرأس موطن العزم.
إن الآلات التي تدار بالزبوت تتفاوت : منها الرديء الذي يستهلك أثقال
الوقود ولا يجدي فتيلاً ومنها الجيد الذي يروع إنتاجه على قلة إمداده .
والبشر كذلك مع أبدانهم وضرورتها ومرفهاها .

والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله يرى من طبيعة حياته الخاصة صلابة المعدن الذي
صيغ منه بدنه صياغة أعجزت العاقبة ، وأسكنت صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة
ومشاق الجهاد ، ولأواء العيش ، وهو منتصب مقدام .

نعم . هناك من العباقرة عصى وصم ومعمودون ومصدرون غير أن العبقرية (١)
شأن دون النبوة ومن تمام نعمة الله على امرئ . ما أن يرزق العافية من هذه الأدواء
كلها لتتم بهذه العافية السابعة العناصر التي تصحح نظره إلى الحياة ومسلكه فيها .
وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام - من هذه الناحية - بشراً كاملاً . وكانت
حياته متسقة مع سنن الله الكونية في البطولات الممتازة .

* * *

أما حياته العامة - رسولاً يبلغ عن الله ويربّي المؤمنين ، ويقاوم الكافرين ،
ويدأب على نشر دعوته حتى تؤتى ثمارها في الآفاق - فلا شك أن القرآن العزيز
هو مهادها وبنّاؤها .

ومع أن القرآن كتاب معجز إلا أنه يقوم على إيقاظ المواهب العليا في الإنسان
فهو أشبه بالأحداث الجليّة التي تعرض لك فتحملك على التفكير بأصالة وبصر
ومن ثم فهو كتاب إنساني يعين الوعي العام على النضج والساد .

« إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » « كتاب فصلت آياته قرآناً
عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً » .

(١) راجع كتابنا « عقيدة المسلم » .

والفارق بين توجيه العرب بالقرآن وتوجيه اليهود بنتى الجبل ، كالفارق بين صوت الارشاد يهذى الماقل إلى الطريق ، وسوط العذاب يلسع الدابة البليدة .
لتمضى إلى الأمام ، فلا تسير خطوة إلا رمت بعجزها إلى الوراء خطوات .
وكان عبدالله بن رواحة ينشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
بيت يخافى جنبه عن فراشه إذا استنقلت بالمشركين المضاجع

° ° °

ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله عليه الصلاة والسلام . وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقدون بالتحدى ، ولم يعرف هذا التحدى إلا بالقرآن .

وقد ملنا إلى قريب من هذا رأى (١) ، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام .

على أنه لا صلة للعقيدة ولا للعمل بهذه البحوث ، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساد إيمانه بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أغلته غمامة ، أو كبه جماد والرجل الصالح لا يغمز مكائنه إنكاره لهذه الخوارق ..

فإن هذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمى لأدلة الاثبات ، والتقويم المحض لما في الوقائع نفسها من معان ، وإيس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان .

° ° °

وقد سرت في المسلمين لوثة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم ، حتى كادت جهرتهم تقرن بين علو المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات وحتى جاء من المؤلفين في علم التوحيد من يقول .

(١) راجع كتابنا (عقيدة المسلم) . يبحث النبوات .

وأثبتن للأوليا . الكرامة . ومن نفاها فانبذن كلامه !!

وصلة هذا الإثبات بعلم التوحيد كصلته بعلم الذنوع أو علم الفلك !! أى أن حقيقة الدين بعيدة عن هذه البحوث ، سواء انتهت بالسلب أو بالإيجاب .

والخوارق التى يتهمس بها المفتونون لأوليائهم هى تعبير سيء عن ردائل الكسل والحق التى تكمن فى طواياهم . كما أن الأحلام الطائشة التى تترى النائم تعبير عن الاضطراب الذى يلا نفسه ويرهق أعصابه .

هذا فتح الباب الموصد من غير مفتاح ، وهذا طار فى الهواء بغير جناح ، وهذا بال على حجر فاقطب ذهباً وهذا اطاع الغيب واتخذ عند الرحمن عهداً ... !!

وأمثل هذه السخافات كثير وهى تدل على جهل بحقيقة الدين وحقيقة الدنيا . وتدل على أن مسروحيها أضل عقولا وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرة أصحابه .

ما كان محمد رجل خيال يتيه فى مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافة . بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها . فإن أراد شيئاً هياً له أسبابه . وبذل فى تهيتها - على ضوء الواقع المر - أقصى ما فى طاقته من حذر وجهد ، وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد ، أو تنشط له حيث يكسل ، أو تحتاط له حيث يفرط . ولم تكن خوارق العادات ونواقض الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاء فى بناء رجل عظيم أو أمة عظيمة .

إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا ، وخصصوا وسالموا ، وانتصروا وانهمزوا ، ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق ، وهم على كل شبر من الأرض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم ، وحملوا المغارم الباهظة فى سبيل ربهم ؛ فكانوا فى ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والمنسكين .

وقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر في أى صدام ، وان كانوا أحصاف رأيا من أن يتوقعوا هذا .

قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ . فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ هـ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ » وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً هـ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَعَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْغُوبَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ هـ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) .

فانظر : كيف يكلفون - وهم في الصلاة وبين يدي الله - بأشد الحذر والانتباه ؟ إن الله لم يدع أملا يخامر أنفسهم بأن الملائكة سوف تنزل لعونهم ! إن لم يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد ! ذلك هو خطاب الله لحمد وصحبه ... وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة « أحد » كُطِمْوا الطمة موجهة جندلت من أبطالهم سبعين ، وأمضهم خزى الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ - أبوسفیان - يقول - اعل هبيل ...

وأبلى النبي عليه الصلاة والسلام بلاءاً شديداً لينقد الموقف ، وقاتل وقتل ، وأصيب في نفسه .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه هكذا - ويشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله (١) » .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٢٩٨/٧) ومسلم (١٨٩/٥) في « صحيحهما » .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت ربايعته يوم أحد وشج رأسه . فجعل يسלט الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم وكسروا ربايعته وهو يدعوهم إلى الله ؟ . فأنزل الله عز وجل قوله : « ليس لك من الأمر شيء . أو يتوب عليهم . أو يُعذّبهم فإنهم ظالمون ^(١) » .

أرأيت التفريط في أسباب النصر جلب شيئاً غير الهزيمة ؟ أو لو كان الذين انهزموا هم ممثلي التوحيد الحق ؟ ! أو لو كان الذين انتصروا هم مدنة الوثنية المحضة !!

○ ○

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد غزوة ورئى بغيرها ويقول : الحرب خدعة ^(٢) ، ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله ، واحترامه للقوانين الطبيعية التي تنظم حياة البشر . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقتلوه عن آخرهم في بئر معونة ، فما دلت على مصارعهم إلا الطيور تخلق في الجو مصرفة على أشلاء الشهداء . . .

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية الغدر من أحب خلق الله إلى الله ، ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح ، أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليرم .

ولئن كان الحذر والحيلة من سنن النبوة ، إن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من آكد هذه السنن ، وماذا تحسب محمداً عليه الصلاة والسلام انتصر على الناس ؟ لقد انضج رجاله بالإيمان كما ينضج الصيف بلهيه البطيء أطايب ثماره ، فلما

(١) حديث صحيح أخرجه الشيعان فيما تقدم أيضاً

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤١١/١) بسند صحيح من حديث كعب بن مالك وهو في الصحيحين بنحوه

أرسلهم إلى أنحاء الدنيا طوفوا بها ، ولم زئير كزئير العاصفة المكتسحة
للمتوجة ...

بل إن الإسلام - من يوم بدئه - كان معركة يقودها الوحي ، ولذلك شبه
بواذره الهامية بعاصفة ذات صواعق ورعود :

(أو كصيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي
آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (١).

أترى للترخي والتواكل ثغرة في هذه الصفوف المتزاحفة ؟ . ياويل مسلمي
اليوم من انتظارهم لخوارق العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم .

نحن لانسكر أن هناك عجائب خارقة تقع للناس . بيد أنها تقع للمؤمن
والكافر والبر والفاجر . فلو أن رجلاً سار على الماء دون أن يقتل قدماء ، مادل
ذلك على صلاحه ، لأن مناط الصلح بما شرع الله من عمل وإيمان لحسب ، وإثبات
هذه الخوارق لأصحابها مسألة تاريخية محتمة لمن شاء تقصى العجائب ، ولا ارتباط
لها بأصل الإيمان والنكليف ، وذلك - بداهة - غير المعجزات المشاهدة للمسلمين
بصحة التبليغ عن الله ، على أن النبوات بما قرنها من خوارق قد انتهت مع الماضي
البعيد ، فليس للتحكك بها من جدوى - وقد علمت أن معجزة محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم لم تكن على غرار ما سبقها ، بل كانت معجزة إنسانية عقلية
دائمة . ثم نظم الله له حياته ودعوته وفق قوانين الأسباب والمسببات كما رأيت .

* * *

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يعرف الغيب . كان كأي بشر آخر لا يدري
ماذا يكسب غداً ؟

ولا ينبغي أن ينتظر منه شيء من ذلك بعد أن انتهى إليه أمر الله : « قل : لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله * ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء * إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ^(١) .

وربما اقترب منه من يضر الشر ويشهر الود - وهو لا يعلم به - حتى تضحه التجارب « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » ^(٢) .

وسيفاجأ يوم القيامة برجال تركهم وهو يعدم مؤمنين ذبتين ، ثم تكشففت القتن عن سواد باطنهم وسوء عقابهم . فيقول ما قال عيسى من قبل : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » ^(٣) .

وقد يطلعه الله على بعض الغيوب لحكم خاصة . كما جاء في التنزيل الإنباء بهزيمة الفرس أمام الروم بعد النصر الذي سبق لهم أن أحرزوه وسارت بحديثه الركبان ، وشمّت له الوثنيون ، وحزن له المسلمون لمظاهرة منهم لأهل الكتاب .

وقد وردت أحاديث صحاح تحسب على ظاهرها كأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف ما يكون مثل ماورد عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتوه آخر فشكا إليه قطع السيل : فقال : « يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ » قلت : لم أرها ، وقد أنبت عنها . فقال : « إن طالت بك حياة لترين الظمينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله : قلت في نفسي : فأين ديار طيء الذين سعروا في البلاد ؟؟ « ولئن طالت بك حياة لفتحن كنوز كسرى » قلت : كسرى بن هرمز ؟؟ قال : كسرى بن هرمز ! ! » .

قال : فرأيت الظمينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ^(٤) .

(١) الاعراف : ٨٨ . (٢) التوبة : ١٠١ . (٣) المائدة : ١١٧ . معنى هذا في

« صحيح البخاري » في « التفسير » من حديث ابن عباس (رض)

(٤) أخرجه البخاري (٦ / ٤٧٧ - ٤٧٩) وغيره عن عدى .

والحق أن هذه الأحاديث وأشباهاها لم تكن إخباراً بغيب^(١)، إنما كانت تصديقاً لوعده الله بأن المستقبل للإسلام، وبأن هذا الدين سيسود المشرق والمغرب، فكانت تفسيراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله في كتابه «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» (٢٨:٤٨) «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات آيستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا» (٥٥:٢٤).
وفريب من ذلك الأحاديث المنبئة عن الفتن.

إن الرجل الخبير بالأسواق لا يلبث - بعد استعراض يسير لأحوالها - حتى يصدر حكماً صائباً عليها، والخبير بطوايا النفوس يستطيع من نظرة خاطفة أن يستشف ما وراءها ويسكشف خباياها، ومن ذلك قول الشاعر:

الألعى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعاً

وكان محمد عليه الصلاة والسلام خبيراً بالنفوس ومعادنها، والدنيا وأطوارها، والزمان وتقلبه، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم في الحياة، وعتول الأنبياء من ورأها فطر مجلوة، وإلهام ملاح فكيف بشيخ الأنبياء الذي تمهده القدر من نشأته ليحمل رسالة معجزتها في أسلوبها وأسلوبها يقوم على ترقية الفطر وتفتيق الأبواب!!

إن هذا يجعله أشد الناس تقديراً لموقعه. وانتظاراً لما يفد به، هل يستطيع السائر في مناطق الشمال أن يقدر خلوة الجو من الضباب الداكن، أو هل يستطيع السائر في مناطق خط الاستواء ألا يتوقع عواصف القيقظ! فكيف يليق بصاحب دين

(١) بل هي من الإخبار بالنبي بإعلام الله تعالى إياه، والتأويل المذكور لا مبرر له مادام أن المؤلف حفظه الله يسلم بأصل الاعلام كما ذكر آنفاً. وفي هذا الحديث ما يشير إلى ذلك، إذ أنه قال إن طالت بك حياة. فهل هذا التنبؤ الدقيق للزمن يمكن أن يعرفه «الخبير» إلا بإعلام اللطيف الخبير سبحانه وتعالى.

خطير أن يتنامى الفتن العارضة لعالم دينه ولرجالها ، ما قرب منها وما بعد ، ما ظهر منها وما بطن ..

لذلك كثر كلام الرسول عن الفتن ، وليس القصد الإخبار عنها ، بل التحذير منها : تحدث الفتن التي تلحق الأشخاص من اختلاف أديانهم وتنافر أمزجتهم .. وتحدث عن الفتن التي تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحاسد عابها ... وتحدث عن الفتن التي تصيب الأمة بعد أن يثوب الكفر من هول الهزائم التي منى بها . ويتماسك مرة أخرى بعدما انحلت عراها .. فكان أن خوف أصحابه من ذلك كله في أحاديث يطول سردها .

* وأخطر هذه الفتن ما يصيب تعاليم الإسلام نفسها من ذبول واضمحلال .
* فالصلاة تفقد روحها ، وهو الخشوع ، ثم يتآكل جسمها فتتحول نقرأ مخيفاً والجهاد ، يفقد روحه وهو الإخلاص ، ثم يتحول انتهاياً للغنائم واستعباداً للأحرار .
ثم تفتقر حدته ، ثم يبطل ...

* والصيام ينتهى من صبر على الحرمان وتأديب الغرائز المتطلعة إلى استعداد للولائم ومضاعفة للنفقة ...

* والحكم يتطور من خدمة الجمهور برضاه إلى ناله عليه عن بغى واستكراه ، ثم يسقط ويضيع الحاكم والمحكوم معاً ..

* وحتى محبة المسلمين لرسولهم تتحول بعد موته إلى سوق حول قبره تضج بالصياح المنسكرة والمهمة الحائرة .

• • •

عندما زرت المدينة توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، وكانت المشاعر التي تنبعث من قلبي تطن في أذني . فلما تبينت لي معالم الضريح يمت شطره وأنا أنضال في نفسي ، وكأني كرة تندرج تحت أقدام عملاق ...

وسلمت بالعبارة التي شرع ، لم أزد عليها إلا بيتاً من الشعر لم أدر ما وراءه

لما عراني من اضطراب غفمت به شفتاي ولم تسمعه أذناي :

ياخير من دفنت في التراب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

ثم انصرفت ...

بيد أن لاحظت أمواجاً تقد فتصرخ بكلام طويل . هذا يقرأ في كتاب
وهذا يسمع من حافظ ، وهذا يشوش على ذلك ، والكل يشوش على المصلين ،
وتتواكب هذه الوفود في هرج ومرج لا ينفطعاني .

ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعني تلك الحال عندما قال : اللهم لا تجعل
قبري بعدى وثناً يعبد ؟ ... (١)

وما أن تعرفت أحوال الكافرين في المسجد والبادية . حتى كدت أدع
الصلاة فيه ، فإني أكره أشد الكراهية البدع والفوضى والجهل .

وقد ذكرت قصة عروة بن الزبير لما بنى قصراً بوادي العقيق وابتعد عن
المدينة ، فقل له الناس : قد جفوت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !!
فقل : إني رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم
عالية ، وكان فيما هنالك عما أنتم فيه عافية . وقيل : إنه لما عوتب في ذلك قال :
وما بقي ؟ إنما بقي شامت بنكبة ، أو حامد على نعمة !!

نسأل الله العفو والعافية .

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (١/ ٨٣٦) وابن سعد في الطبقات (ج ٢ ق ٣
٣٦) من حديث أبي هريرة ، وسنده صحيح .

(٢)

من الميلاد إلى البعث

ولد محمد صلى الله عليه وسلم من أسرة زاكية للمعدن نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضاع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » (١) .

وعراقة الأصل لا تمتنع الرجل الفاضل فضلاً ، كاصطب إذا ترك لأصداً يسمى لا غناء فيه ، أما إذا تعهدته اليد الصناعات فإنها تبدع منه الكثير .

ولذلك لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم ؟ قال : « فممن معادن العرب تسألونى ؟ » قالوا . نعم ، قال « فخيرهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (٢) .

وكان منبت محمد صلى الله عليه وسلم فى أسرة لها شأنها ، بعض ما أعد الله لرسالته من نجاح . فالجتمع العربى الأول كان يقوم على العصبية القبلية الحادة ، العصبية التى نفى القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يمت إليها . وقد ظل الإسلام حينئذ من الدهر يعيش فى حى هذه التقاليد المارعية حتى استغنى بنفسه كما تستغنى الشجرة عما يحملها بعد ما تفلظ وتمتوى ...

وكان « لوط » يتمنى شيئاً من هذه التقاليد ، عندما أحس الخطر على الأضياف النازلين به ، ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلاً تهيجهم الحمية ، فقال لقومه : « اتقوا

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم (٥٨ / ٧) من حديث وائلة بن الاسمع وصححه الترمذى (٢٩٢ / ٤) .

(٢) صحيح . أخرجه البخارى (٤١٢ / ٦ - ٤١٣) ومسلم (١٨١ / ٧) من حديث أبى هريرة .

الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد؟^(١) ثم قال : «لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد» !!

* * *

لكن محمداً عليه الصلاة والسلام ، على كرم محمده ، لم يرزق حظاً وافراً من الثراء ، فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سبباً في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات . إن أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطوة ، فإذا فقدوا هذا السلاح ، وكانت لهم تقاليد كريمة ، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشممهم . ولذلك يقول قائلهم :

وإننا — على عض الزمان الذي بنا —
نعالج من كره المخازي الدواهيما
وربما لا يرى بعض الناس حرجاً من أن يعلن فاقتة ويكشف صفحته .

غير أن هناك بعض آخر يطوون همومهم في همتهم ثم يبرزون للدنيا مشمرين ، ومن هؤلاء عبد المطلب . . .

كان عبد المطلب سيد مكة ، بيد أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به ولم تستقر في عقبه ، إذ اشتد ساعد منافسيهم في زعامة أم القرى ، وبدا كأن الأمر سيؤول إليهم . بل إن هي إلا أعوام حتى تصدرت أسرة عبد شمس ، ثم تمر أعوام أخرى فإذا أبو سفيان يتزعم مكة ، وبذلك تنقل السيادة عن بني هاشم .

و « عبد الله » أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جلييلة ، وقد زوجه بأمنة بنت وهب ، ثم تركه يسعى في الحياة وحده ، فخرج وهو عروس بعد أشهر من بنائه بأمنة ، خرج يضرب في مناكب الأرض ابتغاء الرزق ، وذهب في رحلة الصيف إلى الشام ، فذهب ولم يعد . . . عادت القافلة تحمل أنباء مرضه ، ثم جاء بعد قليل نعيه .

وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد لتهنأ بحياها معه ، ولتشعره بأن في أحشائها جنيناً يوشك أن تقر به عينهما . غير أن القدر - الحكمة العليا - حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوج المحسودة أيتماً .

تعد الليالى لتودع الحياة الموحشة «يتيمها» الفريد

قال الزهرى : أرسل عبد المطلب ابنه عبدالله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات بها ، وقيل : بل كان بالشام ، فأقبل في غير قریش ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها ودفن في دار النابغة الجعدي وله خمس وعشرون سنة ، وتوفى قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولد محمد صلى الله عليه وسلم بمكة ولادة معتادة ، لم يقع فيها ما يستدعى العجب أو يستلفت النظر ، ولم يكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذى ولد فيه على وجه الدقة ، وأغلب الروايات تتجه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش على مكة سنة ٥٧٠ م في الثانى عشر من ربيع الأول ٥٣ ق . ه .

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال ، فالأحفال التى تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشريعة .

وقد روى البعض أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخذت النار التى يعيدها الجحوس ، وانهدمت تلك كنائس حول بحيرة «ساوة» بعد أن غاضت . قال البوصيرى :

| | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| أبان مولده عن طيب عنصره | يا طيب مبتدأ منه ومختم |
| يوم قرّس فيه الفرس أنهم | قد أئذروا بحلول البؤس والقهم |
| وبات إيوان كسرى وهو منصدع | كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم |
| والنار خامدة الأنفاس من أسف | عليه ، والنهر ساهى الين من سدم |
| وساء ساوة أن غاضت بحيرتها | ورد واردها بالغيظ حين ظمى |

وهذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان حقاً إلهياً
بزوال الظلم واندثار عهده واندكك معامله . وكذلك كان ميلاد موسى ، الأترى
أن الله لما وصف جبروت فرعون ، واستكانة الناس إلى بغيه ، ثم أعلن عن إرادته
في تحرير العبيد واستنقاذ المستضعفين . قص علينا قصة البطل الذي يقوم بهذه
الأعمال فقال : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . » .

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم لتحرير العقلي
والمادى وكان جند القرآن أعدل رجال وعام التاريخ ، وأحصى فعالهم في تدوين
المستبدين وكسر شوكتهم ، طغية إثر طاغية .

فلما أحب الناس — بعد انطلاقتهم من قيود العسف — تصوير هذه الحقيقة
تخيّلوا هذه الإرهافات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد غنى عن هذا كله .
فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها .

• • •

استقبل « عبد المطلب » ميلاد حفيده باستبشار وجذل ، لعله رأى في مقدمه
عوضاً عن ابنه الذى هصرت المنون شبابه . فحول مشاعره عن الراحل الفاهب
إلى الوافد الجديد يكلؤه ويغالى به .

ومن المواقف الجميلة أن يُدّعى « عبد المطلب » تسمية (١) حفيده « محمداً » .
إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم ! ولم يكن للعرب ألفون هذه الأعلام ، لذلك
سألوه : لم رغب عن أسماء آبائه ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء ، وأن
يحمده الخلق في الأرض ، فكأن هذه الإرادة كانت استشفافاً للغيب ، فإن أحداً
من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأسدى كله
يستحق ذلك النبي العوى الحمّد .

(١) سماه كذلك بعد ماخذه في يومه السابع .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله . « ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً وأنا محمد ! » (١) .

لكن الحقيقة القاسية - برغم حفاوة الجد الحنون - باقية . فإن « محمداً » يتيم . برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا . ليسكن !! ولنفرض عبد الله بقى حياً !! فإذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يريه ليهب له النبوة ؟ . ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تنحكم في مستقبل الطفل وتحفر له فى الحياة مجراه . ولو كانت النبوة بالاك كتنساب ما قربتها حياة الوالد شبرا . فكيف وهى اصطفاء ؟ .

كان يعقوب حياً يرزق . له شيخوخته وتجربته وحكمته ، بل له نبوته . وقد نظر يوماً ما فلم يجد يوسف قريباً منه . إنه فقدته فى أخطر فترات العمر ، فترة الصبا والادن واليقظة الغضة . ومع فساد اليبثات التى احتوت يوسف فقد كان باطنه ينضج بالتقى والعفاف ، كما يتقد المصباح فى أهواء الليل المدهم ، فلما التقى الابن بوالده بعد لأى ، رأى يعقوب ابنه نبياً صديقاً . . .

لقد ولّى عبد الله وترك ابنه يتيماً ، بيد أن هذا اليتيم كان يُعدُّ من اللحظة الأولى لأمر جلال ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار . وما الأب والجد ، ما الأفرون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله .

○ ○ ○

أقبلت « آمنة » على ابنها تحنو عليه فى انتظار المراضع المقبلات من البادية ، يتلمسن تربية أولاد الأشراف . والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار . ولم يكن لمحمد أب تُرَقَّب عطاياه ، أو غنى تفرى جدواه . فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره .

(١) الحديث صحيح أخرجه البخارى (٦ - ٤٣٥ - ٤٣٦) .

وكانت « حليمة ابنة أبي ذؤيب » من قبيلة بني سعد إحدى القاديات إلى مكة ابتغاء العودة برضيع تستعين على العيش بحضنته . ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يقيم أنها لم تجد طلبتها واستجيت أن تعود صفر اليدين فرجعت إلى « آمنة » تأخذ منها « محمداً » .

وكانت البركة في مقدمه معها ، كانت سنواتها عجافاً من قبله . فامتن الله عليها بخير مضاعف : درت للضروع بعد جفاف ولان العيش وأخصب ، وشعرت حليمة وزوجها وولدهما بأن أوتبهم من مكة كانت باليمن والغنم لا بالفقر واليتم ، مما زاد تعلقهم بالطفل وإعزازهم له .

وتنشئة الأولاد في البادية ، يمرحوا في كنف الطبيعة ، ويستمتعون بجوها الطاق وشعاعها المرسل ، أدنى إلى تركية الفطرة ، وإنماء الأعضاء والمشاعر ، وإطلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أخلفت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش .

ولاشك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود إليه - إلى البعد عن الطبيعة ، والإغراق في التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتسكون عرصات الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التريية يود لو تسكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .

شق الصدر

مكث « محمد » في مضارب « بني سعد » خمس سنوات ، صح فيها بدنه واطرد نمؤه ، وهذه السنوات الخمس هي عمر الطفل . فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن السنن الصحاح سجلت في هذه الفترة ما عرف بمدى مجادته « شق الصدر » .

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقه، فقال: هذا خط الشيطان منك: ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعني مرضعته — أن محمداً قد قتل. فاستقبلوه، وهو منتقع اللون» (١).

وهذه القصة التي رويت حليمة وزوجها، ومحمد مسترضع فيهم، نجدتها قد تكررت مرة أخرى ومحمد عليه الصلاة والسلام رسول جاوز الخمسين من عمره، فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال: بينا أنا في الحطيم — وربما قال في الحجر — مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت، فشق ما بين هذه إلى هذه — يعني ثغرة فمهم إلى شمرته — قال: فاستخرج قلبي: ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد... (٢).

ولو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق... لقلنا: إن ظواهر هذه الآثار مقصودة. ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك، بل من البديهي أنه بالذات الروحية في الإنسان الصق. وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم (١٠١/١-١٠٢) وأحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٢٨) زاد في آخره: وقال أنس وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره وللحديث شواهد كثيرة، منها عن عتبة بن عبد السلمي عند الدارمي (٨١١) والحاكم (٦١٦/٢) صحيحه وواقعه الذهبي، ومنها عن أبي بن كعب عند عبد الله بن أحمد في زوائد المستند (١٣٩/٥) ومنها عند أبي ذر عند ابن جرير في تاريخه (٥١/٢-٥٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٣٧/٦) ومسلم (١٠٣/١-١٠٤) والنسائي (٧٦/١) من حديث مالك بن صعصعة.

في نطاقها ، أو بتمبير آخر عندما ينتهى البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسيّر بها الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم ، يصبح البحث لا جدوى منه ، لأنه فوق الطاقة .

وشىء واحد هو الذى نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت للشر « موجات » تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين — بتولى الله لها — لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في « متابعة الترقى » لافي « مقاومة التبدلي » وفي تطهير العامة من المنسكر لافي التطهر منه ، فقد عاقد الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله قال . وإيأي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » (١) .

وفي حديث عن عائشة ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . أغرت ؟ قالت : وما لئلى أن يغار على مثلك ! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد جاءك شيطانك ! قالت : أو معى شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا ومعه شيطان . قالت : ومعهك ؟ قال : نعم ولكن أعاننى الله عليه فأسلم ، (٢) أى انقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهيجس بشر .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الخصائص التي أضفاها الله على محمد صلى الله عليه وسلم فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنسانى ومفان الحياة الأرضية ، وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى — أيام الرضاعة — هند

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩/٨) عن ابن مسعود .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم عنها ، في الموضع السابق .

تفسيره لقول الله عز وجل : « ألم نشرح لك صدرك » ووضعنا عنك وزرك *
الذى أنقض ظمرك... » ؟

وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طيب .
وبحسن أن تعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة .

عن عائشة أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن : يا رسول الله ،
أينا أسرع بك لحوقاً ؟ قال : أطولكن يدا . فأخذن قصبة يذرعهما (١) فكانت
سودة أطولهن يدا . فعملنا بعد أنما كان طول يدها بالصدقة . وكانت تحب الصدقة
وكانت أسرعنا لحوقاً به (١) ... »

* * *

آب « محمد » صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد أعوام طيبة قضاها فى البادية ،
... آب ليجد أمًا كريمة حبست نفسها عليه ، وشيخاً مهيباً يلتمس فى مرآة العزاء
عن ابنه الذى خلى مكانه فى شرخ الشباب . وكان الأيام أثبت له قراراً بين هذه
الصدور الرقيقة ، فأخذت تحرمه منها ، واحداً بعد الآخر .

رأت « آمنة » وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بـ « يثرب » فخرجت
من « مكة » قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلومتر فى الذهاب غير مثيلتها فى الإياب .
ومعها فى هذه السفرة الشاقة ابنها « محمد » صلى الله عليه وسلم وخادمتها « أم أيمن » .
وعبد الله لم يمت فى أرض غريبة ، فقد مات بين أخواله بنى النجار . قال ابن الأثير :

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٢٧٢/٣) من طريق مسروق عن عائشة بهذا
السياق إلا أنه قال : « وكانت أسرعنا لحوقاً به ، وكانت تحب الصدقة » وأخرجه مسلم
(١٤٤٤/٧) من طريق عائشة بنت طلحة ، والحاكم من طريق عمرة ، كلتاهما عن عائشة
بنحوه ، وفى روايتهما : « فكانت أطولنا يداً زينب . لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق »
وهذا يخالف رواية البخارى فإن ظاهرها أن سودة هى التى لحقت به أولاً وهو خطأ بين
كاحفته الحافظ فى الفتحة . وقد رجح فيه رواية مسلم وهو الحق : فمن شاء الزيادة فى التحقيق
فليرجع إليه . وزينب هذه هى بنت ججش لا بنت خزيمة كما توهم بعضهم .

« إن هاشمًا شخص في تجارة إلى الشام . فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن لبيد الخزرجي ، فرأى ابنته « سلمى » فأعجبته ، فتزوجها ، وشرط أبوها ألا تلد ولدًا إلا في أهلها ، ثم مضى هاشم لوجهه . وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت . فلما أثقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام فمات بـ « غزة » وولدت له « سلمى » عبد المطاب فحكث في المدينة سبع سنين . » .

وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام لدى أخواله قريبًا من قبر أبيه نحو شهر . ثم نقل عائداً إلى مكة . وإذا المرض يلاحق أمه ويلج عليها في أوائل الطريق فمات بـ « الأبواء » وتركته وحيداً مع الخادم المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ، ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين .

إن المصاب الجديد نكسًا الجروح القديمة مما جعل مشاعر الحنو في فؤاد « عبد المطاب » تربو نحو الصبي الناشئ ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثر أن يصحبه في مجالسه العامة . كان إذا جلس على فراشه بجوار السكبة ، أدناه منه في حين يجلس الشيوخ حوله .

وقد تأخرت سن عبد المطاب حتى قيل : إنه توفي وله مائة وعشرون سنة إلا أنه سطارق الحياة وعمر « محمد » يناهز الثمانية . فرأى — قبل وفاته — أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب .

ونض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكل وجهه ، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته ، وبصادق وبخاص من أجله .

ودرج محمد عليه الصلاة والسلام في بيت أبي طالب والسن تمضي به قدماً إلى الوعي العميق بما حوله . فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش ، إذ كان أبو طالب — على كثرة أولاده — قليل المال ، فلما قرر أن يمضي على سنين آبائه في متابعة الرحيل إلى الشام ابتغاء الاتجار والربح قرر أن يكون معه . وكان عمره نحو الثلاث عشرة سنة .

بحيرا الراهب

ولانجد في السنن الصحاح أنباء تصف هذه الرحلة . إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة ، وأعظمها أثراً . ومثل محمد عليه الصلاة والسلام في صفاء ذهنه وبقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى ، في حله أو ترحاله ، على أن من المقطوع به أنه لم يخرج لدراسة دين أو فلسفة ، ولم يلق من يتحدث معه في ذلك وقدرت كتب الأخبار بمض خوارق ، ذكرت أنها وقعت له ، من ذلك التقاؤه بالراهب ، « بحيرا » الذي تفرس فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه ، فلما سأل أبا طاب : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال : ما ينبغي أن يكون أبوه حياً ؟ قال : فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود .

وقد تكون هذه القصة صحيحة . فإن البشارة بنبي بعد عيسى عليه السلام موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى . وهم - منذ تكذيبهم برسالة محمد عليه الصلاة والسلام - يرمون هذا النبي المنتظر . ولن يجيء أبداً ... لأنه جاء فعلاً وسواء صحت قصة « بحيرا » هذه أم بطلت (١) فمن المقطوع به أنها لم تختلف بعدها أثراً ، فلا محمد - عليه الصلاة والسلام - أشرف للنبوة أو استعد لها - لكلام الراهب - ولا أصحاب القافلة تذاكروا هذا الحديث أو أشاعوه . لقد طويت كأن لم تحدث مما يرجح استبعادها .

وقيل أيضاً ، إن كوكبة من فرسان الروم أقبلت على « بحيرا » كأنها تبحث عن شيء . فلما سألها : ما جاء بك ؟ قالوا : جئنا لأن نبشرك هذا الشهر . فلم يبق .

() بل هي صحيحة . فقد أخرجها الترمذي (٢٩٦/٤) من حديث أبي موسى الأشعري . وقال : « هذا حديث حسن » . قلت : وإسناده صحيح . كما قال الجزري . قال : « وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ » . قلت : وقد رواه البراء فقال : « وأرسله عنه عمه رجلاً » .

طريق إلا بعث إليها ناس — لالقبض عليه (١) فجادلهم « بحيرا » حتى أقتلهم
سجبت ما يطلبون .

والحققون^(٢) على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لما يذكره الإنجيليون
من أن ناساً طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، وهى عند المسيحيين مضاهاة لما عند
الوثنيين من أن « بوذا » لما وضعته أمه العذراء (١) طلبه الأعداء ليقتلوه . .
إن علماء السنة يهتمون بالأخبار الواردة — من ناحيتي المتن والسند — فإذا
لم تجد علماً ثابتاً ، أرضاً راجحاً لم يكثر ثوابها . وقد انضمت أساطير كثيرة إلى
حسير المرسلين . عندما تعرض على القواعد المقررة في فن التحديث يظهر عوارها
ويشاخ أطرافها .

(١) من م هؤلاء : الحققون ، ومن أين جاء الوضع المذكور . وهذه الرواية هى فى
حديث أبى موسى المتقدم وقد علمت صحته . ومادا نضر للاضاهاة بعد الثبوت ؟ أفلا ترى أن
ما يذكره الإنجيليون يضاهى ما هو ثابت فى القرآن الكريم من طلب فرعون لموسى فى قتله
الأنبياء ؟ أفترد وهذا المشابه المذكورة ! اللهم : لا . مع تقديرنا لكلام الاستاذ العلامة
الشيخ : « ناصر الدين » فإننا نذكر طرفاً من كلام العلماء والمحققين حول هذه القصة :
« قال الجزرى — كما نقل الشيخ ناصر — : اسناده صحيح . ورجاله رجال الصحيح .
أو أحدهما . وذكر أبى بكر وبلال فيه غير محفوظ . « عدهما أئمتنا وهما (١) وهو كذلك (١) »
« فإن سن النبى — صلى الله عليه وسلم — إذ ذاك اثنتا عشرة سنة . وأبو بكر أصغر منه
ببنتين . وبلال لله لم يكن ولد فى ذلك الوقت ا هـ . وقال الذهبي فى ميزان الاعتدال :
« قيل : ما يدل على بطلان هذا الحديث قوله : « وبث معه أبو بكر بلالا (١) » .
« وبلال لم يخلق بعد وأبو بكر كان صبياً . ا هـ . قال صاحب « تحفة الأحوذى » :
« وضعف الذهبي هذا الحديث لقوله : « وبث معه أبو بكر بلالا » فإن أبا بكر إذ ذاك
« ما اشترى بلالا . وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة : رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه
النقطة فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته .
كذا فى « المواهب اللدنية » . قال « ابن القيم » فى زاد المعاد : ووقع فى كتاب
الترمذى وغيره : أنه بث معه أبو بكر بلالا وهو من الغلط الواضح (١) فإن ذاك لله
لم يكن موجوداً . وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر . راجع تحفة الأحوذى
طبع الهند (١ / ٢٩٣ كتاب المذهب) .

ذلك . وقد قال الحافظ ابن كثير فى السيرة (١ / ٢٧٤ ط « حلى ») : روى
هذا الحديث الترمذى . والحاكم . والبيهقى . وابن عساكر . قلت : — أى ابن
كثير — فيه من الغرائب أنه من مراسلات الصحابة فإن أباً موسى الأشعرى إنما قدم فى
سنة خيبر (سنة سبع من الهجرة) وعلى كل تقدير فهو . : « مرسل » .
فالحديث « معطل » . طبقاً لما قررره العلماء فى علم المصطلح .

حياة الكدح

عاد محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الرحلة ليستأنف مع عمه حياة الكدح . فليس من شأن الرجال أن يقعدوا . ومن قبله كان المرسلون يأكلون من عمل أيديهم ، ويحترفون مهناً شتى ليعيشوا على كسبها . وقد صرح أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - اشتغل صدر حياته برعى النعم وقال : « كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » . . . كما ثبت أن عدداً من الأنبياء اشتغل برعايتها ^(١) ، أترى ذلك تعويذاً لهم على سياسة العامة ، والرفق بالضعفاء والسمير على حمايتهم ؟ ؟

وقد تسأل : أنتقدح المعارف المتصلة بالكون وماوراءه ، والناس وما فيضون فيه - أنتقدح حقائقها في نفوس المرسلين فجأة ، دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمه ؟ والجواب كلا . فالأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطرق والقوانين التي يتعلم بها أمثالنا - لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نعلم من أساليب .

ما العلم الذي ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين ؟ إن هناك ببيغاوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعي . ولقد أرى أطفالاً صغاراً يلقون - باتقان وتمثيل - خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة .

فلا الأطفال - بل استحضروا من كلام الأئمة - أصبحوا رجالاً ولا البيغاوات تحوات بشراً .

وقد نجد من يحفظ ، ويفقه ، ويجادل ويقاب ، ولكن العلم في نفسه كعروق

الذهب في الصخور المهملة ، لا يبعث على خير ولا يزجر عن شر .

وقد شبه القرآن أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحجر « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩/٤) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى النعم . فقال أصحابه : وأنت . فقال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » .
(٢) الجمعة : ٥٥ .

وهذه الطبايع التي تحمل العلم لا تصلح به إنما تسمى إليه ، ولذلك بحسن الضن به عليها . وفي الأثر « واضع العلم عند غير أهله كقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » (١) .

ثم هناك الخرافيون الذين يغالطون في الحقائق أنفسهم كأن عقولهم ميزان ثقلت إحدى كفتيه — تغير سبب — فهو لا يضبط وزناً أبداً ، ينسبطون للمستحيلات ويقبلونها . ويتجهمون للوقائع ويرفضونها .

وقد بلونا أناساً ظلوا يتعاملون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خبط عشواء ، فإذا عرضت القضية نفسها على أمي سليم الفطرة نقي العقل صدع فيها بالحق لأول وهلة . ومعنى ذلك أن هناك من تبذل في إقامة عوجه العقلي عشرين سنة ، حافلة بالبحث والدرس ، فتعجز عن الوصول به إلى مرتبة رجل أوتي رشده بأصل الحلقة .

ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد وأنه — قبل رعى الغنم وبعده ، وقبل احتراف التجارة وبعدها — كان يعيش يقظ القلب في أعماق الصحراء ، صاحباً بين السكارى والغافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد خول الخامل وحدة اليقظان ، كالشعاع الذي ينشئ الأشواك والورود معاً ، وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يستمعين بصمته الطويل ... صمته الموصول بالليل والنهار ، صمته المطبق على الرمال الممتدة والعرمان القليل . كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل ، وإدمان الفكر ، واستكناه الحق .

(١) حديث ضعيف جداً ، علقه ابن عبد البر في « جامع العلم » (١ / ١١١) ووصله ابن ماجه في سننه (١ / ٩٨) . وفي سننه حفص بن سليمان وهو الأسدي القاري . قال ابن خراش : « كذاب يضع الحديث » وضعفه غيره ، وقال أبو حاتم : « متروك » . وكذا قال الحفاظ في التعريب .

ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من النظر الدائم أرجح يقينا من حفظ لافهم فيه ،
أو فهم لا أدب معه . ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من
أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

ولاشك أن القدر حاطه بما يحفظ عليه هذا الاتجاه القذ . فعندما تتحرك
نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا - وذلك من قبيل الصغار التافهة -
تدخل العناية للحيلولة بينه وبين هذه الأمور .

روى ابن الأثير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هممت بشيء مما كان
أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به
حتى أكرمنى برسائله . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت
لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقل : أفعل . فخرجت
حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت : ما هذا فنادوا : عرس
فلان بفلانة . فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، فمت فما أيقظنى إلا حر
الشمس . فعدت إلى صاحبى ، فسألنى ، فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل
ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة . . . ثم ما هممت بعده بسوء . . . » (١)

. . .

(١) حديث ضعيف أخرجه الحاكم (٢/٤٠٤) من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن عبد
الله بن مخزوم عن الحسن بن محمد بن علي عن جده علي بن أبي طالب (ض) قال سمعت رسول
الله (ص) يقول فذكره وقال : (هذا حديث صحيح على شرط مسلم) ووافقه الذهبي قلت :
وهو وم منها مما لأمرين : الأول : أن ابن إسحاق إنما يروى له مسلم مرة وتنا بغيره
كما ذكر ذلك الذهبي نفسه فى الميزان ، والحاكم لم يروه عنه مقرونا بغيره كما ترى ، فليس
هو على شرط مسلم . الثانى : أن محمد بن عبد الله بن قيس ليس مشهور العدالة فلم يؤت به غير
ابن حبان ، وتوثيقه عند ما ينفرد به لا يؤتى به لأن من قاعدته أن —

إن مراتب التعليم المختلفة هي مراحل جهاد متصل لتهديب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظره إلى السكون والحياة والأحياء . فكل تعليم يقصر بأصحابه عن هذا الشأ ولا يؤبه له ، مهما وسم بالشهادات والجازات ! وأحق منه بالخفاوة ، وأسبق منه إلى الغاية المنشودة ، أن ينال المرء حظاً وافراً من حسن النقطـة وأصالة الفكرة ، وسداد الوسيلة والهدف . وقد أشار القرآن الكريم إلى نصيب « إبراهيم » من هذه الخصال عندما قال : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ » (١)

ومحمد عليه الصلاة والسلام في هذا النهج كجده إبراهيم إنه لم يتلق علماً على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده ، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية . طلع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ، نهاف منها ماساءه من خرافة وزأى عنها ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم . فما وجده حسناً شارك فيه بقدر ، وإلا عاد إلى عزاته العتيقة ، يتابع النظر الدائم في ملكوت

== يوثق المجهازين كما أفاده المحققون كالحافظ ابن حجر في اللسان ولهذا لما أورد الحافظ ابن قيس هذا في « التقريب » لم يوثقه بل قال فيه مقبول يعني أنه ابن الحديث حيث لا يتابع كما نص على هذا في مقدمة الكتاب . ثم هو ليس من رجال مسلم خلافاً لمن روم ، وقد ضعف هذا الحديث الحافظ ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية (٢/٢٨٧) بمد أن ساقه بالسند المذكور من رواية البهي حيث قال : (وهذا حديث غريب جداً) وقد يكون عن علي نفسه (يعني موقوفاً عليه) ويكون قول : (حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته) متحجاً والله أعلم وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره من حبان في الثقات ، وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح قال شيخنا في تهذيبه ، ولم اتف على ذلك . والله أعلم . ثم وجدت الحديث في تاريخ مكة (ص : ٧) للفاكهي ، وتاريخ ابن جرير (٢/٣٤) من الطريق للذكر . ورواه الطبراني في المعجم الصغ . (س : ١٩٠) من حديث عمار بن ياسر ، وفي سنده جماعة لم اعرفهم ، وذكر نحو هذا الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (ص ٨/٢٢٦) .

السموات والأرض وذلك أجدى عليه من علوم هى بالجهل المركب أشبه ، ومن مجتمع فقد الهداة من قرون فهو يضم ضلالاً جديداً إلى الضلال القديم كلما مرت عليه ليلة وطلع صباح ..

وقد رأى أن يشهد الأعمال العامة التى اهتم بها قومه ، لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها ، ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته « حرب الفجار » ثم شهوده من بعد « حلف الفضول » .

حرب الفجار

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم . وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم . كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات . وقد جاء الإسلام بعده ، فأقر هذه المكانة الموروثة عن ديانة إبراهيم : « إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنه لكم .. » (١)

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة ، وليس هنا تفصيل خبرها وقد ظلت أربعة أعوام كان عمر « محمد » فى أثنائها بين الخمسة عشر والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أعان المقاتلين . . .

حلف الفضول

أما « حلف الفضول » فهو دلالة على أن الحياة منها اسودت صحائفها ، وكلحت شروورها ، فلن تخلو من نقوس تهزها معانى النبل . وتستجيشها إلى النجدة والبر .

ففي الجاهلية الغفالة نهض بعض رجال من أولى الخير . وتواثقوا بينهم على إفراز العدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم ! ..

قال ابن الأثير : « ... ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف ، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه . وكانوا بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وبنى أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظامه ، حتى ترد مظلمته . فسَمَّتْ قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» فشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال — حين أرسله الله تعالى — : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحبُّ أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت (١) » .

إن يريق الفرح — بهذا الحلف — يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها رسول الله عنه . فإن الحمية ضدَّ أي ظالم مهما عزَّ . ومع أي مظلوم مهما هان . هي روح الاسلام . الأمر بالمعروف ، النهاي عن المنكر ، والواقف عند حدود الله . ووظيفة الاسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم . وفي صلات الأفراد على سواء ...

وقيل في سبب الحلف : إن رجلاً من « زبيد » أتى بتجارة ، فاشتراها العاصي ابن وائل السهمي . ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه ! فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يسكتوا له . فوقف للغريب المظلوم عند السكبة وأنشد :

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام (١/٩٢ من الطبعة الجاهلية) قال ابن زيد بن المهاجر قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال رسول الله (ص) : فذكره ، قلت : وهذا سند صحيح لولا أنه مرسل . ولكن له شواهد تنويعه فرواة الحميدي بإسناد آخر مرسل أيضاً كما في « البداية » (٢/٩٢) وأخرجه الإمام أحمد (رقم ١٦٥٥ ، ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً دون قوله « ولو دعيت به في الإسلام لأجيب » وسنده صحيح .

يا آل فهر لمظالم . بضاعته
 ببطن مكة نافي الدار والنار !
 ومحرم أشعث لم يقض عمرته
 يا للرجال - وبين الحجر والحجر - !
 إن الحرام آمن تمت كرامته
 ولا حرام بثوب الفاجر القدر
 فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك : فاجتمع الذين ذكروا من
 الأثر آفا . وذهبوا إلى العاصي بن وائل . واستخلصوا منه - حق الزبيدي . بعد ما
 أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن العاصي هذا رجل مماطل سمج . فهو صاحب القصة كذلك مع
 خبيب بن الأرت . وكان خبيب قيناً ، فصنع سيفاً للعاصي وأناه به لينقذه منه .
 فقال له العاصي : لا أعطيك حتى تسكفر بمحمد : فقال له خبيب : لا أكفر حتى
 يميتك الله ثم تبعث . قال العاصي : وإني لميت ثم مبعوث ؟؟ قال : بلى . قال :
 دعني حتى أموت وأبعث . فسأرتي مالا وولداً ، فأفضيك - حق السيف -
 فنزلات الآيات :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ: لَأُوتَيْنَ مَالًا وَلَدًا؟ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ
 أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا؟؟ كَلَّا . سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعَذُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ
 مَعْدًا وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ وَأُنَبِّئُهَا فِرْدَا » (١) .

وأمثل العاصي هذا في ميدان التجارة والسياسة كثير . ومحمد صلى الله عليه
 وسلم أولى الناس بمخصوتهم . وأولى الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم من أعان
 عليهم ووثق على حرمهم .

قوة ونشاط

عندما انتهت حرب الفجار وأبرم حلف الفضول كان محمد عليه الصلاة والسلام
 يستقبل للرحلة الثالثة من عمره . وهذه القارة وما قبلها هي عهد الشباب الحار ،
 والعراز الفائرة ، والطماح البعيد . ومحمد عليه الصلاة والسلام رجل قوى البدن

على الهمة ، رفيع المـسكـاة . وقد لوحظت طاقته الواسعة حتى بعد هذه السن بنحو أربعين سنة . قال أبو هريرة : « ما رأيت أحسن من رسول الله ! كأن الشمس تجري في وجهه ! وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ! كأنما الأرض تطوى له ! كنا إذا مشينا معه نحمد أنفسنا وإنه لغير مكترث » (١) ..

ومثل هذا الرجل تقيل عليه الحياة لو لم يقبل هو عليها . وعلى من تقبل الحياة بعده ؟ على الواهمين والمنكشين والمتشائمين ؟

لسكن محمداً عليه الصلاة والسلام - على ما يملك من وسائل المتاع - ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة خادشة أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو اصطياذ ثروة . بل على العكس بدأت سيرته توضع في أنحاء مكة بما امتاز به على أقرانه - إن صحت الإضافة - من خلال عذبة ، وشمال كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين ...

وليس شرف النفس أن تلتفى شهوة الإنسان إلى الحياة . أو توجد الشهوة وتنتفى وسائل بلوغها . بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربى من نوازع الهوى . فإذا ظلت النفس في حالة سكون فلتتعاذل القوى السالبة والموجبة فيها ، وقد تجد رجلاً تافهاً هزيلاً لا يخفى له طمع ولا تنحبس له شهوة لو قست غرائزه المنفلقة بغرائز غيره المضبوطة ما بلغت عشر قوتها ، لسكن هذه وجدت زماماً من الرشد فكظم عليها . وتلك لم تجد مقلاً يردع ولا خلفاً يصم فتارت وتمردت ...

وقد كانت رجولة محمد عليه الصلاة والسلام في القمة ، بيد أن قواه الروحية وصفاءه النفسي جملاً هذه الرجولة تزداد بمحامد الأدب والاستقامة والفنوع . ثم إنه كان معافى من العقد السكرية التي تزين للشباب تعشيق العظمة عن طريق

(١) هذا حديث ضعيف الاسناد أخرجه الترمذى في سننه (٢٠٦/٤) وفي الثمائل (١١٧/١) وضعفه بقوله : « هذا حديث غريب » والسبب أنه من رواية ابن لهيعة وهو ضعيف السوء حفظه واحترق كتبه .

التظاهر والرياء ، أو تطلب الرياسة عن طريق المدهنة واشتراء العواطف ، فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي أسود الجزيرة وما وراءها . وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة .. تبييناً السر في استثنائه للجبال والنساء ، واستراحته إلى رعى الغنم في هذه الأنحاء القصية ، مكتفياً بالقليل الذي يعود عليه من كسبها .

أهذا زهد في المال ، أو إعراض عن الحياة الدنيا ؟ كلا : إنما هو انشغال بالحقائق العليا التي تصلح بها ويسخر فيها المال . والرجال الكبار لا تشبههم كنوز الذهب والفضة إذا ظمئوا إلى الحق . ولا يريهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة . إذا رأوا المسافر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أفئدة الناس ، وتعمى فيه الدنيا جمعا من كل خير وبر .

كذلك استقبل محمد عليه الصلاة والسلام المرحلة الثالثة من عمره . وهي المرحلة التي تعرف فيها إلى زوجته الأولى « خديجة بنت خويلد » .

خديجة

و « خديجة » مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم . إن أحباب الرسائل يحملون قلوباً شديدة الحساسية . ويلقون غيباً بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه . وهم أحوج ما يكونون إلى من يقمدهم الحياة الخاصة بالإيناس والترفيه ، بله الإدراك وللعونة ! وكانت خديجة سبابة إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد صلى الله عليه وسلم أثر كريم .

قال ابن الأثير : « كانت — خديجة — امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة » .

وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض ورحل إلى الشام عاملاً في مال السيدة التي اختارته ، ويظهر أن التوفيق حاقه في هذه الرحلة ، أكثر من سابقها مع عمه أبي طالب ، فكان ربحها أجزل ، وسرّت خديجة بهذا الخير الذي أحرزته ولكن إعجابها بالرجل الذي اختبرته كان أعمق .

... إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة . وقد عرفت بالحزم والعقل : ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس . وأن أبصارهم تنو إليها بغية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع ! لكنها عندما عرفت محمداً عليه الصلاة والسلام وجدت ضرباً آخر من الرجال . وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجة . ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيايل . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأت رجلاً تقفه كرامته الفارعة موقف النبيل والتجاوز ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها ! لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضياً .

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة . فحدثت بما في نفسها إلى صديقتها « نفيسة بنت منبه » . وهذه ذهبت إلى محمد عليه الصلاة والسلام تفأخمه أن يتزوج من خديجة ، فلم يبطئ من إعلان قبوله . ثم كلم أعمامه في ذلك فذهب أبو طالب وحزرة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو بن أسد - إذ أن أباهامات في حرب الفجار - وخطبوا إليه ابنة أخيه ، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة . ووقف أبو طالب يخطب في حفل الزواج قائلاً : « إن محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال فلا فائماً المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك . فكان جواب ولي خديجة — عمها عمرو — هو الفحل الذي لا يقدر أنفه ، وأنسحبها منه ...

وقيل : إن العبارة الأخيرة جرت على لسان « أبي سفيان » عندما تزوج محمد رسول

الله ابنته حبيبة . وكانت الحرب بينهما على أشدها . فاعتذر أبو سفيان عن ذلك بأن محمداً الرجل من الكفاءة بحيث يعتبر الإصهار إليه منقبة ! والخصومة القائمة بينهما لا تنزل بقدر محمد عليه الصلاة والسلام أبداً ، ونسكاحه لبنت أبي سفيان لا يشين أبا سفيان أبداً ، وإن كان يومئذ الدَّعدو له .

* * *

كان محمد عليه الصلاة والسلام في الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة . وكانت هي قد ناهزت الأربعين . وظل هذا الزواج قائماً حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاماً . كانت طوالها محل الكرامة والإعزاز ، وقد أنجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاده جميعاً منها ما عدا إبراهيم .

ولدت له أولاً « القاسم » وبه كان يكنى بعد النبوة ثم « زينب » و « رقية » و « أم كلثوم » و « فاطمة » و « عبد الله » ، وكان « عبد الله » يلقب بالطيب والطاهر . ومات « القاسم » بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدابة والسير على النجيمة . ومات عبد الله وهو مفلّ . ومات سائر بناته في حياته . إلا « فاطمة » فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .

كان قرآن محمد عليه الصلاة والسلام بخديجة خيراً له ولها . ولا شك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ بروح رب البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية ، والترفع عن تقديس الأوثان .

وقد استأنف محمد عليه الصلاة والسلام ما ألفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة . وهجر ما كان عليه العرب في أحفالهم الصاخبة من إدمان ولغو وقمار وقمار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته ، وتدبير معاشه ، والضرب في الأرض والمشى في الأسواق . إن حياة الرجل العاقل وسط جماعة طائشة تقتضى ضرورياً من الحذر والرّويّة ، وخصوصاً إذا كان الرجل على خلق عظيم يتقاضاه لين الجانب وبسط الوجه .

ولم يكن ثمة ما يخلق في هذه الزينة الموقفة إلا ألم خديجة لملاك الذكور من
بينها مع ما للذكران من منزلة خاصة في أمة كانت تئذ البنات وتسود وجوه
آبائهن عندما يبشرون بهن !!

والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يعيرون محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا،
ويملنون ارتقاجهم لاقطاع أثره وانتهاء ذكره . فعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن
قريشاً تواصلت بينها في التحدى والكفر . وقالت : الذى نحن عليه أحق مما
عليه هذا الصنبور المنبت - والصنبور النخلة التى اندق أصلها - يعنون أن محمداً
عليه الصلاة والسلام إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل رسالته أحد « أم يقولون :
شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا . فإنى معكم من المتربصين » !!

ومحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته فوق هذه الأمانى الصغيرة . إلا أن الأذى
كان يفز قلب الوالد الجليل وهو يودع أبنائه الثرى ، فيجدد التكلم ما رسب
في أحماقه من آلام اليتيم . إن غصنه تشبث بالحياة فاستطاع البقاء والنماء رغم فقدان
أبويه . وما هو ذا يرى أغصانه المنبسقة عنه تذوى مع رغبته العميقة ورغبة شريكة
حياته في أن يراها مزهرة مثمرة ، وكأن الله أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً
من كيانه ! فإن الرجال الذين بسوسون الشعوب لا يمنحون إلى الجبروت إلا إذا
كانت نفوسهم قد طبعت على الفسوة والآثرة وعاشت في أفراس لا يخامرها كدر
أما الرجل الذى خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة الحزوين ومداواة
الجرحين .

الكعبة

ومن بقايا كلمة إبراهيم التى أجمع العرب في جاهليتهم على احترامها « الكعبة »
وهي أشبه بفرقة كبيرة مشيدة من أحجار قوية ، يعتمد سقفها من الداخل
٦ — فقه السيرة

على أعمدة من الخشب الثين . وأول من قام فى بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه
إسماعيل ، والغرض من بنائها أن تكون معبداً لله ، ومسجداً يذكر فيه اسمه وحده
فإن إبراهيم لقي العناء الأليم فى حرب الأصنام وهدم للمعابد التى تنصب فيها ، ثم
ألمه الله أن يبنى هذا البيت ليسكون أساساً للتوحيد وركناً ، ومثابة للناس وأمناً
ومن البديهي أنه لا يسع القصاد جميعاً ، فالحق ماحوله به وصار حراماً مقدساً .

ومعنى ذلك أن الكعبة نفسها حجارة لا تضر ولا تنفع ، وأن الحرمه التى
اكتسبتها هى من الذكريات والمعانى التى حفت بها . ولذلك أكد رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن تأمين الأعراض والأموال والدماء أقدس عند الله من هذه
الكعبة ، وأعظم حرمة وأكبر حقاً .

ومن الوثنية التى يعادىها الإسلام — إلى آخر الدهر — الظن بأن الكعبة
أوشيتاً منها له أثر من تقع أو ضرر .

وأنت خير بأن الروساء والقادة والجنود عندما يحيون أعلام بلادهم ويتفانون
دونها . فليس هذا عبادة لقطع معينة من القماش . إنما هو تقديس لمعان معينة ارتبطت
بها . ومن الأمور التى يسهل فهمها أن تكون لأول مسجد فى الأرض مكانة
تاريخية خاصة . وأن يكون قبلة لما يستجد بعده من مساجد .

أما الوجهة فى كل صلاة والمقصود فى كل خشوع فهو الله وحده .

عن أبي ذر: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض .
قاله : المسجد الحرام قلت : ثم أى ؟ قال للمسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال :
أربعون عاماً . ثم الأرض لك مسجد فحينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه^(١) .

(١) حديث صحيح . أخرجه البخارى (٦/٣١٥ - ٣١٧ ، ٢٥٩) ومسلم (٢/٦٣) والنسائى وابن ماجه والبيهقى والطحايسى وأحمد من حديث أبى ذر .

وقد تعرضت الكعبة - باعتبارها أثراً قديماً - للعواذى التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها وقبل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فلم تر قريش بدأً من أن تجدد بناء الكعبة حرصاً على مكانتها .

وقد اشترك سادة قريش ورجالاتها الكبار في أعمال التجديد ونقل الأحجار بعد ما هدموا الأقباض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت .

وبناءً رفيع إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحابة لا يوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم محمد صلى الله عليه وسلم وأعمامه ..

عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي . اجعل أزارك على رقبتك يقيك الحجارة . ففعل - كان ذلك قبل أن يبعث - فخر إلى الأرض ، فطمحت عيناه إلى السماء . فقال : إزارى إزارى ، فشد عليه فما روى بعد عرياناً ... (١) .

وتنافست القبائل في هذا المضمار ، كل يبغى الصدارة فيه والذهاب بفخره ، حتى كاد هذا السباق يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم . واستفحل الشر بين المشغولين بالبناء عندما بدأوا يستعدون لوضع الحجر الأسود في مكانه من أركان الكعبة لولا أن أبا أمية بن المغيرة الخزومي أترح على المتطاهنين أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا . وشاء الله أن يكون ذلك محمداً .. فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً .

وطلب محمد صلى الله عليه وسلم ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين ، فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة . فحمله محمد صلوات الله وسلامه عليه ثم وضعه في مكانه العتيق (١) .

وهذا حل للحصيف رضى به القوم . ومن قبل كانت رؤيتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم مثار تيمنهم واضمئثنانهم . وهذا يدل على سناء المنزلة التي بلغها فيهم .

ومع جهد قریش في بناء الكعبة فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر له الأمر في الجزيرة لم يجد ضرورة لتجديد زيادة بها . وآثر تركها على ما انتهت إليه . عن عائشة قالت : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قلت يا رسول الله ، ألا تردها إلى قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت ! قال ابن عمر ، أن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنتين اللذين يليان الحجر إلا أن التبت لم يتم على قواعد إبراهيم (٢) . قال العلماء : والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم وآنف ، قرب العهد بالجاهلية . وضعف استسكان الإيمان ، مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هبتها . . . ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله . ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجلة مشكلات عويصة .

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣ / ٤٢٥) . من حديث السائب بن عبد الله بسند حسن . ويحسن بالمؤلف أن ينقل نصه فهو أولى من نصوص كتب السيرة التي لا سند ولا خطاء ؟ ثم وجدت للحديث شاهداً من حديث علي ، رواه الطيالسي في مسنده (٢ / ٨٦) . ترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا .

(٢) حديث صحيح أخرجه الشيخان في «الحج» من «صحيحها» .

باحثون عن الحق

قلنا إن الوثنية تزين باطلها بطلاه من الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من سرارة . فهي تزعم الإيمان بإله خالق السموات والأرض . وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة ولما كان خلق السموات والأرض بعيداً عن مرأى الأعين ، فقد أنس العباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم والتي يترددون عليها صباحاً ومساءً ، حتى صارت صلتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأصيل وأصبح ذكر هذا الإله — للمتوسل إليه بغيره — لا يرد إلا في معرض الجدال والاعتذار : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ » وقيل : ياربُّ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم . قل : سلامٌ فدوف يلون . غير أن التعصب لهذا السخف جاوز الحدود . فأما العامة فهم بهم ، أحلاس ماتوارثوا ، فقدوا نعمة العقل الحر ، بل العقل المدرك وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .

وأما الذين أتوا حثاً من التفكير ، فإن تفكيرهم برتطم بحدود شهوراتهم ، وربما كنمو ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا وفليل من الناس من يتجراً على التقاليد المستحكمة ، ويمجر بالحق . وأقل من ذلك من يعيش له ويضحى في سبيله .

وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة استهزاء ومن عرف أن قومه يلتقون على أباطيل مفتراة ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم .

أخرج البخاري^(١) أن ابن عمر حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أتى

(١) وأخرجه الإمام أحمد (رقم ٥٣٦٩) من حديث ابن عمر ، وقد رواه أيضاً من حديث سيد بن زيد بن عمرو (١٦٤٨) ، وفيه زيادة منكروه : وهي تتنأى مع التوجيه الحسن الذي وجه به الحديث حضرة المؤلف وهي قوله بعد (إلى لا آكل مما تذببحون على أنصابكم) : قال : فما روى النبي (من) بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على الأصب « وعلة هذه الزيادة أنها رواية من المسعودي وكان قد اختلط ! وراوى هذا الحديث عنه =

زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل «بلدح» — وذلك قبل أن ينزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم — فقدم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : إني لا آكل مما تذبحون ^(١) على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر عليه اسم الله عليه . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقتها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض السكلا . تذبحونها على غير اسم الله — إنكاراً لذلك .

وفي رواية أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويقبه فلقى عالماً من اليهود . فسأله عن دينهم . وقال : لعل أن أدين دينكم ! فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! ! قال زيدا أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه ! ! فهل تداني على غيره ؟ فقال ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . لم يكن يهودياً ولا نصرانياً . ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى . فذكر له مثل ذلك ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله . ولا أحمل من لعنة الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه ! ! . فهل تداني على غيره ؟ . فقال : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ فقال : دين إبراهيم عليه السلام ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد

== يزيد بن هارون سهم منه بعد اختلاطه ، ولذلك لم يحسن صنعا حضرة الأساذ الشيخ أحمد محمد شاكر حيث صرح في تعليقه على السند أن إسناده صحيح . ثم صرح بعد سطور أنه إنما صححه مع اختلاطه لأنه ثبت معناه من حديث ابن عمر بسند صحيح . يعني هذا الذي في الكتاب ، وليس فيه هذه الزيادة المكرة ، فكان عليه أن ينبه عليها لكي لا يتوهم أحد أن معناها ناهت أمضا في حديث ابن عمر .

(١) قوم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله : ومن المقطوع به أن يتعبد محمد صلى الله عليه وسلم لا يطعم ذبائح الأصنام ، ولكن أراد الاستيناق لنفسه والإعلان عن مذهبه . وقد حفظ محمد له ذلك ومبره .

إلا الله . فلما رأى زيد قوله في إبراهيم عليه السلام خرج . فلما برز رفع يديه .
وقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه السلام . .

وهذا الحديث يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا وغطت بضبابها السكثيف
على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبذون من
أقطارها ، فعلى الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم .

والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب في طبيعة المسيح ، ووضعه ، ووضع أمه ، ومن
الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقاً يلعن
بعضها بعضاً .

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد « يعاقبه » يخالفون المذهب الرسمي
لكنيسة الرومان . فلا غرابة إذا أشعروا زيدا بما يقع عليه من عذاب لو دخل في
دينهم ، أو لعل هذه اللعنة المرهوبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم واستحقها من
من بعده بنوه كما يدعى ذلك النصارى وهم يبررون صلب المسيح ومن حق زيد
أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم عليه السلام يبحث عن أصوله وفروعه .
وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل
قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم
عليه السلام غيرى ، وكان يحى الموءودة ، يقول للرجل — إذا أراد أن يقتل ابنته :
أنا أكفيك مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأمها : إن شئت دفعنها إليك ،
وإن شئت كفيك مؤنتها» (١) .

إن زيدا واحداً من المفكرين القلائل الذين سخطوا ماعليه الجاهلية ، من فكره ،
وإنه يشكر على تحرره الحق ، ولا يغمط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم ، لكن

(١) حديث صحيح ، والبخارى إنما أخرجه (٧ / ١١٤ — ١١٥) معلماً فكان
يحسن تنبيه المروءة لهذا ، وقد وصله جماعه ذكرهم الحفاظ في الفتن ، وفاته أن الحاكم
وصله أيضاً في المستدرک (٣ / ٤٤٠) : وقال : « صحيح على شرط الشيخين » .

القدر كان يتخير رجلاً يبصر الحق ، ويملك من الطاقة ما يدفعه به إلى آفاق العالمين
في وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للبقاء على الضلال والإمساك ببليله البارد
الثقيل . . .

كان القدر بعد هذه الرسالة الضخمة رجلها الصخم والعظام كفؤها العظام !

في غار حراء

أخذت سن محمد صلى الله عليه وسلم تصعد نحو الأرباب . وكانت تأملاته
للماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، فأمست نظرتهم إليهم نظرة عالم الفلاك
- في عصرنا - إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور ، أو نظرة عالم الذرة
إلى جماعة يترشقون بالحجارة إذا تحاربوا ، ويتقنون بالطايا إذا سافروا . . .

ذلك من الناحية الفكرية . أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذي شاع في
الجاهلية . وجعل أهلها يقسمون بالله جسد أيانهم لا يبعث الله من يموت . هذا
الإلحاد المفرق الطامس غزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ . إلى أين تصير هذه القلة
الحائرة ؟ لئن كان الوجود - أولاً وآخرأ - هذه الأعمار المستنفدة على ظهر
الأرض .. إن الفناء خير وأجدى ! !

أما من بصيص نور خلال هذا الظلام الخيم ؟

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان في غار
حراء وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة ، في رأس جبل من هذه
الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكون
الشامل المستغرق . . . في هذه القمة السامقة المنزوية كان محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ
زاد اليا إلى الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهاً بفؤاده المشوق إلى رب العالمين !
... في هذا الغار المهيب المحجّب ، كانت نفس كبيرة تُطلُّ من عليائها على

ها تروج به الدنيا من فتن ومقارم واعتداء وانكسار ثم تلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدري من ذلك مخرجاً، ولا تعرف له علاجاً!!

في هذا الغار النائي كانت عين نفاذه محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل الله، فتجده كالمنجم المعتم لا يستحاض منه للعدن النفيس إلا بعد جهد جهيد، وقد يختلط التراب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه...

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد، ويصقل قلبه، وينقى دوحه ويقرب من الحق جهده ويبتعد عن الباطل وسعه. حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية، انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

في هذا الغار اتصل محمد صلى الله عليه وسلم بالملأ الأعلى.

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخاً لمحمد عليه الصلاة والسلام يخرج من مصر فاراً متوحشاً، ويحتاز القفار متمسكاً بالأمن والسكينة والهدى، لنفسه وقومه، فبرقت له من شاطئ الوادي الأيمن نار مؤنسة، فلما تيممها إذا النداء الأقدس يغمر مسامعه ويتخلل مشاعره:

«يا موسى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري». إن شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى في جوانب الغار الذي حوى رجلاً بهجت وبتطهر — نائياً بجسمه وروحه — عن أرجاس الجاهلية ومساوئها، لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر بل كانت نوراً ينبسط بين يدي وحى مبارك يسطع على القلب العاني، بالإلهام والهداية، والتثبيت والعماية، فإذا محمد صلى الله عليه وسلم بصنى في دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له:

«اقرأ...». فيجيب مستفسراً: «ما أنا بقارى»، ويتكرر الطلب والرد لنفساب

بعده آيات الأولى من القرآن العزيز : «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» (١) .

ورقة بن نوفل

إن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر مثلنا ، لكن الوجود لا يعرف تقاوناً بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك فى جنس الإنسان . إن بعضهم أرقى من الأفلاك الزاهرة ! وبعضهم الآخر لا يساوى بكرة ... وإن كان الكل بشراً !!
وذلك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بوحي . فكيف إذا اصطفىَ إنسان ما . وزيدت أطوار كماله المعتاد طوراً آخر . تومض فيه أشعة التسديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ؟؟

«يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا ، أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » ...

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقاً آخر ، يغير الأطوار الستة الأولى التى مرَّ بها ، سلالة الطين ، فالنطفة ، فالعلقة ، فالمضغة ، فالعظام ، فالجسم المكسوَّ باللحم ... !!

والأنبياء بعد اتصال الوحي بهم وسموا بآرواحهم يتحولون بشراً آخرين ، لا يدانهم غيرهم أيداً فى مجادة وإشراق .

وهذا التغير الملحوظ سر تذكير الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالقدرة التى خلقت الإنسان من علق ، إن القدرة التى خاقت هذا الإنسان العجيب من علقه طفيلية ، هى التى ستنساق بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولاً ، يقرأ بعدما كان

(١) حديث صحيح سبأنى تخريجهم قريباً .

أَمِّيًّا » وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي
مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ،
وَأَمَّا نَسْكُ لَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا
الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب إليه
الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد
قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه
الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : « اقرأ » ، قال : « ما أنا بقارىء » ، قال :
فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، قلت : « ما أنا بقارىء » ،
فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، قلت : « ما أنا
بقارىء » ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم
ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ... » الخ .

فرجع بها رسول الله ترجف بوادره ! حتى دخل على خديجة بنت خويلد ،
فقال : « زملوني ، زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : « أرى خديجة ،
مالى ؟ وأخبرها الخبر ! ثم قال : لقد خشيت على نفسي ... »

قالت له خديجة : كلا ، أبشر فوالله لا يبخزبك الله أبداً ، إنك لتفصل الرحم
وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين
على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل - وهو ابن عم خديجة -
وكان اسماً أتصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل
بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له
خديجة : أرى ابن عم : اسمع من ابن أخيك ! فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك حيا أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي (١) .

اسكن الأربعين عاماً السابقة يوم واحد ، وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد !!
إن العقل الجواب للباحث المستفسر أخذ يشيم أنوار الحق .

والصدر المحرج المثقل بالتشاؤم والارتباك أخذ يحسُّ برد اليقين وفسحة الأمل والقلقة الطارئة بعيدة المدى ... إنها النبوة .

ألا ما أجل هذا الفضل المقبل ، وما أعظم ما يواجه محمداً فيه من شئون وشجون ... !!

لذلك سرعان ما ترجعت إليه نفسه ، وكان موقف زوجه خديجة منه من أنصرف للوقوف التي تحمد لامرأة في الأولين والآخرين ، طمأنته حين قلق ، وأراحتة حين جهد ، وذكرته بما فيه فضائل مؤكدة له : أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً ، وأن الله إذا طبع رجلا على المكارم الجزلة والمناقب السمجة فليس كما يجعله أهل إعزازه وإحسانه ، وبهذا رأى الراجح والقلب الصالح استحققت خديجة أن يحبها رب العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين (٢) ...

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٨/١ - ٢٣) ومسلم (٩٧/١ - ٩٨) من حديثها

(٢) ينشر المؤلف إلى الحديث الصحيح عن أنى هريرة قال : أتى حبريل إلى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب . أخرجه البخارى (٧ - ١٠٩) ومسلم (١٣٣/٧) .

(٣)

جَهَادُ الدَّعْوَةِ

تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف محمد عليه الصلاة والسلام معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء .. إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان وملاك ، تركت في نفسه أثراً من الجهد ، كأنما كان يعالج عملاً مرهقاً صعباً .

ولاعجب فقد ظل يعاني من التنزيل شدة ، أمداً طويلاً وشاء الله أن يفتر الوحي بعد ابتدائه على الدجو الذي أسلفنا حتى يكون أشرف الرسول صلى الله عليه وسلم وارتقابه لمحيطه سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، ومع ذلك ، فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته .

جاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية ، قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي : فقال لي في حديثه : فيينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرمي بين السماء والأرض ، ففزعت منه حتى هويت إلى الأرض ، فحُثت إلى أهلي ، فقلت . زملوني زملوني ، فذروني ...

فأنزل الله عز وجل « يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ... » (١) .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيذاناً بالرسول صلى الله عليه وسلم بأن الماضي قد انتهى بتمامه وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتشهير ، والإنذار والإعذار ، فليحمل الرسالة وليوجه الناس . وليأنس بالوحي . وليلقو على عنايته ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

والوحي إلهام ينضح على القلب بمراد الله في صورة واضحة لا يحتمل الريبة

وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض . فعن عمر : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي ، يسمع عند وجهه كدوى النحل ^(١) » .

وكان أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس — وكان أشده عليه — فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ^(٢) ، وحتى أن راحلته لتتبرك به على الأرض إذا كان راكبها ^(٣) ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت فنقلت عليه حتى كادت ترخصها ^(٤) . وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .

وربما قيل : لما كانت أوائل الوحي بهذه المثابة من الشدة ؟ ولماذا لم يبدأ نزول القرآن إلهاماً في مقام . أو إلهاماً في بقية على نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا

(١) حديث ضعيف ، أخرجه الترمذى (١٥٢-١٥١/٢) وذكر أن في سنده اختلافاً . ومداره على يونس بن سليم ، رواه عنه عبد الرزاق ، ويونس هذا مجهول ومن طريقه أخرجه أحمد (رقم ٢٧٣) والحاكم (٥٣٥/١ و ٢٩٢/٢) والنسائي « كما نقلوا عنه ، وقال : هذا حديث منكر لا نعلم أحداً رواه غير يونس . ويونس لا نعرفه » وقال إمامكم : « صحيح الإسناد » وهذا من تسامحه ، وأما الذهبي فتناقض فإنه في اللوضع الأول وافق إمامكم على تصحيحه ، واغتر بذلك الشيخ أحمد شاكر ، وأما في اللوضع الآخر فقد تعقبه بقوله : « قلت : سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ، فقال أظنه لا شيء » وفي اللبران أقر النسائي على قوله : « هذا حديث منكر » وتوثيق ابن حبان لابن سليم هذا ، مما لا يعتد به ، لاسباب وتلميذه عبد الرزاق أدري به من ابن حبان .

(٢) روى معنى هذا البخارى (١٤/١-١٧) من حديث عائشة .

(٣) أخرج معناه — أحمد والحاكم (٥٠٥/٢) من حديث عائشة ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قال ، وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد عند أحمد (٤٥٥/٦) وآخر عند (رقم ٦٦٤٣) من حديث ابن عمرو .

(٤) أخرجه البخارى (١٨٢/٥) من حديث زيد بن ثابت .

الله وأجلوا في الطلب . . . » (١) أو ليس هذا أبعد عن دواعي القزع والإعياء؟؟؟.

والجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر ، ونزل الملك به في

هذا المظهر (٢) قطعاً لكل شبهة في أنه ألفاظاً ومعاني — من عند الله « وأن محمداً

حملة تحميلاً بعد أن اصطنع له واختص به ، فهو ليس افتعال عابدمنقطع تخيل فخال ،

ولاصناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنميق المقال ، إنما هو كلام الأحاد الحق

الكبير المتعال ، « إن هو إلا وحىٌ يوحي ، علمه شديد القوى . ذو مرة ،

فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى .

فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفمارونه على ما يرى » . : ٢٠

الإمام يدعو الناس

نصر محمد صلى الله عليه وسلم يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ
بهذا الدين الذي أرسله الله به .

وسور القرآن الذي نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده .
وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونماها ، وأول ذلك :

(١) حديث صحيح جاء من طرق . الأول عن ابن مسعود أخرجه الحاكم (٤/٢) .
والثاني : عن ابن أبي أمامة . أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في « حلية الأولياء »
٧ (١٠٠/٢٢٧) .

الثالث : عن حذيفة أخرجه البزار كما في الترغيب (٧/٣) والهينى في مجمع الزوائد
(٤-٧١) فهذه طرق يتولى بعضها بعضاً . ولهذا — والله أعلم — جزم ابن القيم في « زاد
المعاد » بنسبة الحديث إليه صلى الله عليه وسلم .

(٢) إن اتصال الأبدان بعالم الغيب برهق الطبيعة البشرية : واعتبر — لذلك بما يعانيه
الوسطاء مثلاً في حالات التنويم المغناطيسى مع بعد الفارق .

١ — الوحدانية المطلقة : فالإنسان ليس عبداً لسكان في الأرض أو عنصر في السماء ، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله ، يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر . كبر أو حقّر . وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زاني ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ماسوى ذلك ، ويجب أن تبني جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرّد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة . ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد من الحجارة التي تبني بها البيوت أو ترصف بها الطرق ، وأن البشر الذين ألّهُوا في ديابات أخرى صحّحت أوضاعهم . فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم ، يتقدمون عنده بالطاعة ، ويتأخرون بالمعصية . ولا شأن لهم في خلق أو رزق .

٢ — الدار الآخرة : فهناك يوم لاشك في قدومه ، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » : فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون وإما جحيم مشثومة ، يشقى فيها الأشرار ويكتئبون . . .

والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذرّه من أصول السلوك الصحيح في الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل في محط قادم فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به متقف — حمّا — لترده إلى مولاه ، حيث يلقى جزاء العمر ، ويحني ما غرست يده ..

٣ — تزكية النفس : وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل . وترك أمور أخرى حذراً من مغبتها :

قل : « تعالوا أتّله ما حرّم ربكم عايكم . ألا تشرّكوا به شيئاً . وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش »
٧ — فقه السيرة

ماظهر منها وما بطنَ ولا تقتلوا النفسَ التي حَرَّمَ الله إلا بالحق . ذلكم وصّاكم به لعلكم تفلحون ، ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قُربى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون .

قال أكنم بن صيفى : « أن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

٤ — حفظ كيان الجماعة المسلمة : « باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون . وذلك يقتضى نصر المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفى سورة « المذثر » — وهى أول سورة أمر الرسول فيها بالبلاغ — تقرأ قول الله تبارك وتعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم فى سقر ؟ * قالوا لم نك من المصلّين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نحوضُ مع الخائضين . وكنا نكذبُ بيوم الدين . حتى أنا واليقينُ . . . فأنسفهم شفاعَةُ الشافعين » .

وكان أبوبكر لا يرى مستضعفاً يعذب من المسلمين ، إلا بذل جهده وماله فى سبيل فكّ إيساره وإنقاذه مما به . وذلك حق الفرد على الجماعة .

الرعىل الأول

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عمالها فى أصحاب الأئدة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التى استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

كان أصحاب العقائد يتجمعون - في تودة - حول عقائدهم ، ويلتفون - في حب وإعجاب - حول إمامهم ، وبشراحون في حذر - أصول فكرتهم .
والإيمان قوة ساحرة ، إذا استمكنت من شباب القلب وتغلقت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكناً .

ولقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتفون عند فكرة من الفكر . ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة . ومع أنها فكر مادية بحتة . إلا أنهم يعملون من حياتهم وقود حركتها ، ويتحملون أقيح الأذى في سبيل نصرتها .
وفي السجون - الآن - رجالاً تخرجوا من جامعات الغرب ، يقضون شطراً من أعمارهم مع القتللة وتجار المخدرات ! . . .

ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفنها إلى الأمام . فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السماوات والأرض ، وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله ، الحداائق الغناء . والقصور الزهر ، من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم ؟ . . . إن الرعيل الأول يتكون وبتزايد على الأيام .

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم - أولاً - الإسلام على ألقى الناس به من آل بيته وأصدقائه . وهؤلاء لم نخجلهم ربة قط في عظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

أمنت به زوجته « خديجة » ومولاه « زيد بن ثابت » ، وابن عمه « علي بن أبي طالب » - وكان صبياً يحيا في كفة الرسول صلى الله عليه وسلم - وصديقه الحميم أبو بكر ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقته ومودته : عثمان بن عفان . وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص . وآمن القس ورقة بن نوفل

وقد روى ^(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه في المنام — بعد مماته —
 في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله . وأسلم الزبير بن العوام ، وأبوذر الغفاري ،
 وعمر ابن عتبة ، وسعيد بن العاص ، وفشا الإسلام في مكة بين من نور الله قلوبهم .
مع أن الإعلام به كان يقع في استخفاء ، ودون مظاهرة من النخمس المكشوف
أو التحدّي السافر ...

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعزها اهتماما . ولعلها حسبت محمداً عليه
 الصلاة والسلام أحد أوثاك الديانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كما صنع
 أمية بن الصلت ، وقس بن ساعدة . وعمر بن قنيل وأشباههم . إلا أنها توجست
 خيفة من ذبوع خبره ، وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته .
 واستمر هذا هذا التطور السري للدعوة ثلاث سنين ، ثم نزل الوحي بكلف
 الرسول صلى الله عليه وسلم بحمل بعثة قومه . ومجابهة باطلهم ، لمهاجمة أصنامهم جهاراً .

إظهار الدعوة

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتلك الأفرين »
 صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدى -
 لبطون قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً

(١) هذا حديث حسن فتصديقه بصيغة (روى) غير حسن ، لأنه يشير إلى تضعيفه
 وليس بضعيف فقد جاء من طريقين حسنيهما الحفظ بن كثير في البداية : (١/٣) أخرجه
 أحدهما أحمد من حديث عائشة ، والآخر أبو يعلى من حديث جابر ، فلا أقل من كون
 الحديث حسناً بمجموع الطريقين ، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا ورقة
 فاني رأيت له جذة أو جنتين » أخرجه البزار والحاكم (٤٠٩/٢) وابن عساكر من
 حديث عائشة أيضاً ، وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي « وهو كذا »
 فلا ، وقال ابن كثير : « وإسناده جيد » .

فلينظر : ماهو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدق ؟ قالوا : ما جرئ بنا عليك كذبا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ١١ « فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ! فنزل قوله تعالى : « تبأ يدا أبي لهب سونب ... » (١) .

وعن أبي هريرة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقرين » فقال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليمان ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا » (٢) .

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآني من عند الله .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة في بلده مرموقا بالنفقة والمحبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تذكره . ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء . وأول قوم يغامر بخسران مودتهم ، هم عشيرته الأقرىون . لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره . فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار . ومكة تموج

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري : ٤٠٠/٨ - ٤٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ - ٥١١ . ومسلم : ١٣٤/١ .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري : ٤٠٨/٨ (٤٠٨/٨) ومسلم (١٣٤/١) من طريقين عن أبي هريرة .

بالغربة والاستنكار . وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها .

وبدأت قريش تسير في طريقها ، طريق اللدد ، ومجانبة الصواب . ومعنى محمد صلى الله عليه وسلم كذلك في طريقه ، يدعو إلى الله . ويتلطف في عرض الإسلام ويكشف النقاب عن مخازي الوثنية ، ويسمع ويحجب ، ويهاجم ويدافع ... غير أن حرصه على هداية آله الأقربين جعله يجدد مسماه محاولا عرض الإسلام عليهم مرة أخرى ، فإن منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج .

وهم - قبل ذلك - أهله الذين بوّء لهم الخير ، ويكره لهم الوقوع في مساخط الله وروى ابن الأثير : قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم ^(١) : لما أنزل الله على رسوله « وأنذر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعا فجلس في بيته كالمرضى ، فأنته عما نه يعذنه فقال . ما اشتكت شيئا . ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أبا لهب فيهم ، فإنه غير محبب . فدعاهم فحضروا معهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب وقال : « هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ! واعلم أنه ليس لقومك بأعرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أخذك ! فحسبك بنو أبيك . وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أسرع عليهم من أن يشب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب فأرايت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جشتم به » .

فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس . ثم دعاهم ثانية . وقال : « الحمد لله أحده وأستعينه . وأومن به وأتوكل عليه . واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله

(١) لم أجد في الرواة هذا الراوى وإنما فيهم : « جعفر بن عبد الله بن الحكم » وهو أنصاري دوسي تابعي صفيروى عن أنس والتابعين ، فإذا كان هو هذا ، فالإسناد مرسل ضعيف ، وأقت على إسناده إليه وإن كان غيره فلم أعرفه .

إليكم خاصة وإلى الناس عامة . والله لتموتن كما تنامون . واتبعن كما تستيقظون
ولتحاسبن بما تعملون وإنها للجنة أبدأ . أو النار أبدأ .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك . وأشد تصديقنا
لحديثك !! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون . وإنما أنا أحدهم . غير أنى أمرهم إلى
ما تحب فامض لما أمرت به .

فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين
عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السواة !!! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم .
فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا .

أبو طالب

إن أبا طالب برغم بقائه على الشرك واستمسكه بدين الآباء - ظلّ حتى
العاطفة ظاهر الحذب على ابن أخيه . وهو مدرك كل الإدراك مأسوف تجره هذه
الدعوة من متاعب عليه وعلى امرته ، بيد أن إعزازه لحمد وتأذيه من مواجهته بما
يكره حملاه على ضمان الحرية له . بل على التمهّد بمحايته وهر يبائع عن ربه !!

وأبو طالب من رجال مكة المعدودين . كان معظماً في أهله . معظماً بين
الناس فما يحسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته . وكان بقاءه مع أهل مكة
- محترماً للأوثان - من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه ...

أما أبو لهب فصورة لأرباب الأسر المتهاككين على مصالحهم وسمعتهم من
غير نظر إلى حق أو باطل . فأى عمل يعرض مصالحه للبوار ، أو يخذل ماله
من منزلة يهيج ثأرته ، ويدفعه لاقتراف الحماقات ... ؟

وفى طبيعته إلى لب قسوة تغريه باقتراف الدنيا . كان ابنائهم متزوجين بينات
محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم بفراقهن . فطلق عتبة وعتيبة ، رقية ، وأم كلثوم ..
ولعل أبا لهب كان متأثراً في هذه البغضاء المتنزّية بزوجه أم جميل بنت حرب

أخت أبي سفيان . وهى امرأة سليطة . توزعها على كراهية محمد ودينه علل شتى
ولذلك بسطت فيه لسانها . وأطالت عليه الافتراء والدس !

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفع عم محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأغلاظ معه
على هذا النحو الوضع . فكيف يكون مسلك الأباعد الذين يمتنون العثار للسليم
والشبهة للبرىء ؟

* * *

ولكن ما أبو لب ؟ وما قریش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بإزاء رجل
يحمل رسالة من الله الذى له ملك السموات والأرض يريد أن يعيدها للرشد
لعالم فقد رشده ، وأن يحجوها الأوهام ، فى حياة سرعتها الأوهام فى الرغام .
ما تجدى وقته جهول ؟ أو غصبة مغرور ؟ فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى
إلى هدنها البعيد .

إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة . ولئن نقم الجاهليون على المسلمين
مروفتهم من بين قومهم هذه الدعوة - حتى ليسمونهم الصباة - فإن المسلمين لأشد
فحمة عليهم « أن سفهوا أنفسهم ، وحقروا عقولهم . وتشبهوا بخزافات ما أنزل الله
بها من سلطان .

إن الدعوة التى بدأ بها محمد صلى الله عليه وسلم من بطن مكة لم تكن لبناء
وطن صغير بل كانت إنشاءً جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتدفع به
فى رحاب الأرض إلى أن تنتهى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء .

فإذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها فى حاضرها ومستقبلها ؟
ومن أولئك الخصوم ؟

« .. متعصبون تمجرت عقولهم . يزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم » وإذا
تلقى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجود الذين كفروا المنكر . يكادون يسطمون
بالذين يتلون عليهم آياتنا ... » ١١

٥ .. أم مترفون سرهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة، ويكرهون الحق لأنه عاطل عن الحلى والمنازع » وإذ تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً » ١١

٥ .. أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية، أو أزياء غانية فهم يقولون: دع هذا وهات هذا » وإذ تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا: أنت بقرآن غير هذا أو بدله .. » ١١

٥ .. أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عند ما تقرأ الآيات، حتى لا تسمع فتفهم فتترك أثراً في عقل تقي وقلب طيب » وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ١١

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم حتى يبحثوا أمره ويحصوا رسالته، ويزنوا - على مهل - مالدسهم وما جاء به، لما عليهم على هذا عاقل. ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشف جريمته وثبت إدانته.

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الإعراض المفقرون بالتكذيب والتحدى. ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألغى نفسه مكذباً مهجوراً.

إلا أن الله واسمه، فأبان له بواطن أرائك المكذبين للتأيين » قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ».

إن المعتوه إذا اعترض طريقك ووقع في عرضك بلسان حاد، سمعت من يقول لك: هذا لا يقصد العدوان عليك ولكنه يستجيب لنوازع الجنون في دمه. وكذلك أولئك المشركون، إن فظاظهم وإنكارهم يمش مع دواعي الجحود في طباعهم

قبل أن تكون انتقاصاً للرجل الذي يمدّهم أو طعنًا في خلقه «... وإنيهم لا يكذبونك
ولكن الظالمين بآيات الله يمجّدون » .

ومن ثم فعلى محمد صلى الله عليه وسلم أن يمضى في سبيل البلاغ ، وأن يحتاج
ما يلقى أمامه من صعاب وعقاب . وعلى المؤمنين برسائله أن يشتبوا ، وليس ثباتهم
لمصلحتهم الخاصة فقط ولا حق الإيمان عليهم وكفى . بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة .
إن البنيان الشامخ للذرى لا يرتكز على سطح الأرض إنما يرتكز على دعائم
غائرة في الثرى . وهى التى تحمل ثقله وترفع عمده وقد كان أصحاب محمد صلى الله
عليه وسلم الأول — بصلابه يقيهم وروعة استمسكهم — دعائم رسالته وأصول
امتدادها من بعد ، فى المشارق والمغارب .

الاضطهاد

قرر المشركون ألا يألوا جهداً فى محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه —
والتعرض لهم بألوان الكمال والإيلام . ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ،
وعان قومه بضلال ورثوه عن آبائهم . انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت
عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثأرين فزلزت الأرض من تحت أقدامهم ،
واستباح فى الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعات مقامهم تحملاً
للضيم وتوقفاً للويل ...

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قصد بها تخذيل
المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرمى النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته بتهم هازلة
وشتائم سفهية . وتآلفت جماعة للاستمراء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل
الصحافة المعارضة عند ما تنشر عن الخصوم نكتاً لازعة وصوراً مضحكة للحط من
مكانتهم لدى الجماهير .

وبهذين اللوتين من العداوة وقع المسلمون بين شقَى الرحى .
فرسولهم ينادى بالجنون « وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » .
ويوصم بالسحر والكذب « وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم . وقال الكافرون :
هذا ساحرٌ كذابٌ » .

وَيُشِيعُ وَيُسْتَقْبَلُ بِنظراتٍ ملتزمة ذقة وعواطف منفعة هائجة « وإن يكاد
الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون : إنه لمجنون » .
وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم - فى غدوم ورواحهم
محلُّ التندر واللمز « إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضرّ حكومهم
وإذا مرّوا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهمين * وإذا
راوهم قالوا : إن هؤلاء لضالّون * وما أرسلوا عليهم حافظين » .

وانقلبت هذه الحرب إلى تسكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من
المؤمنين فمن ليست له عصبة تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شيء . بل
يحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياء .

عمار بن ياسر

من هؤلاء عمار بن ياسر ، وهو من السابقين الأولين فى الإسلام ، وكان . ولى
لبنى مخزوم . أسلم وأبوه وأمه ، فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حمت
الرمضاء فيعذبونهم بحرّاً ، وصر بهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم يعذبون . فقال
صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة ^(١) فمات ياسر فى العذاب . وأغلظت امرأته

(١) حديث حسن صحيح . رواه ابن إسحق فى السيرة (٢٠٣/١) بلاغا . ووصله الحاكم
(٣٨٨/٣ - ٣٨٩) والطبرانى فى الأوسط كما فى « الجمع » (٢٩٣/٩) عن جابر بن
عبد الله . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وواقه الذهبي . وأخرجه أبو احمد

« سُمِيَّة » الفول لأبي جهل فطامها في قبلتها بحربة في يديه ، فماتت . وهى أول شهيد في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحرق تارة ، وبوضع الصخر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى ، وقالوا : لا تتركك حتى تسب محمداً صلى الله عليه وسلم أو تقول فى اللات والى خيراً ففعل ، فتركوه فأبى النبى صلى الله عليه وسلم بيكى فقال : ما وراءك ؟ قال : شرُّ يا رسول الله ، كان الأمر كذا وكذا . قال : فكيف تحمد قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان . فقال : يا عمار إن عادوا فعد . فأزل الله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (١) وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

== العالم كما فى (الإصابة) من طريق عقيل عن الزهرى عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه . وهذا سند صحيح من مراسيل الصحابة وهى مقبولة عند العلماء وأخرجه أحمد (رقم ٤٣٩) وأبو نعيم فى الحلية (١ - ١٤) عن عثمان بن عفان ورجاله نفات إلا أنه منقطع كما قال الحفاظ . فهذه طرق تشهد لصحة الحديث .

(١) فى نبوت هذا السياق نظر . وعلته الارسال أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٢ - ١١٣) وأبو نعيم (٩ - ٤٠) وأبو بكر الجصاص فى (أحكام القرآن) (٢ - ٢٣٦) من طريق أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر . قال : أخذ للشركون عماراً فلم يتركوه حتى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير . الحديث . وأخرجه العاظم (٢ - ٣٥٧) عن أبى عبيدة هذا عن أبيه . ثم قال : (صحيح على شرط الشيخين) ووافقه الذهبى . كذا قال . وقد كنت قديماً اغتررت بتوهمها ، والآن تبرزى خطؤها إذ أن الجماعة رووه عن أبى عبيدة . وهب أن قوله : (عن أبيه) (صحيح) فأبوه ثابى وليس بصحابة فى الحديث . من أجل أن لم يكن معصلاً . ثم إن أبى عبيدة وأباه لم يخرج لهما الشيخان شيئاً . بل إن الأول قال فيه ابن أبى حاتم (٤ / ٢ - ٤٠٥) عن أبيه : (منكر الحديث) ووافقه ابن معين وغيره . فأبى الحديث الصحة ؟ بله على شرطهما !

نعم إنما يصح منه نزول الآية فى عمار لحيى ذلك من طرق ساقها ابن جرير . والله أعلم .

بلال

ومن هؤلاء « بلال بن رباح » كان سيده أمية بن خلف - إذا حميت الشمس وقت الظهيرة - يقلبه على الرمال الملتهبة ظهراً والبطن ، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول له . لا تزال هكذا حتى تموت أو تسكر محمد وتعيد اللات والعري . فما يزيد بلال عن ترديد : أحد أحد . . .

خياب

ولما اشتد ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب أحدهم - خياب بن الأرت - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجد به ، قال خياب . شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظال الكعبة فقلنا . ألا تستنصر لنا . ألا تدعونا ؟؟ فقال . « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمنن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله وللدنّب على غنمه ، ولسكنكم تستعجلون » .

. . .

ماذا عسى يفعل محمد صلى الله عليه وسلم لأولئك البائسين ؟ إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد منهم ، لأنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه ، وقد كان في صلاته يُرعى عليه - وهو ساجد - بكرش الجزور أرحم الشاة المذبوحة ، وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته ، فلا يملك إلا الصبر .

إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على منعم عاجل أو آجل ، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين ، فأبصرت الحق الذي حجبته عنه دهرأ ، ومسح

الران عن القلوب ، نعرفت اليقين الذى فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه ، إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق ، وكانوا — قبلًا — حيارى محسورين ، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء ، فأثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة ، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم . فازدروا الأوثان المنحوتة ، وتوجهوا للذى فطر السموات والأرض .

حسب محمد صلى الله عليه وسلم أن قدم هذا الخير الجزيل ، وحسب أصحابه أن مآلته العناية لهم ، فإذا أودوا فليحتسبوا ، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليستلزموا ما عرفوا ، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلى غبارها يوماً ما ، ثم تتكشف عن شهداء وعن هلكى ، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين باذن الله ، « وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكاتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله خيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبدوه وتوكل عليه وماربك بقا فل عما تعملون » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبت عناصر للنفة في قلوب رجاله ، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على قواده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، وانتشار مبادئه ، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضعفهم ، كان الأسود بن المطلب وجلساؤه .

...إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام — يتغامزون بهم ويقولون :

قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون — غدا — على ملك كسرى وقيصر ،
ثم يصفرون ويصفقون .



وتواصى المشركون بعد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنعوا الوافدين إلى مكة من الاستماع إليها ، قال الوليد بن المغيرة لرجال قريش : إن الناس يأتونكم

أيام الحج فيسألونكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فتختلف فيه أقوالكم ، يقول هذا : ساحر ، ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته ، وقد اقتسم هؤلاء المتسآمرون مداخل مكة أيام الموسم ، يحذرون الناس من الداعية الخارج على قومه ، وينعتونه بما تواصلوا به من سحر مفرق !

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الحجيج في مجامعهم ، ويحدثهم عن الإسلام ، ويطلب منهم النصرة .

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يعرض نفسه بالموقف فيقول : « الأراجل يحملني إلى قومه ! فإن قریشاً منعوني أن أبليغ كلام ربي » (١) .

مفاوضات

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيابهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله ، وظنوا أن وسائل السخرية والنهك التي جنحوا إليها ستهدى قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم ، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً ، فإن أحداً من المسلمين لم يرتد عن الحق الذى شرفه الله به ، بل كان المسلمون يتزايدون ؟ ولم تقلح طرق الاستهزاء فى اللص من سبيل الله أو تشويه معالمها ، إنها زادت شعور المسلمين بما ترزخ به الوثنية من معرّات ونحاز تستحق الفضيحة والاستئصال ، ماتصنع سخرية الجهول بالعالم

حديث صحيح أخرجه أبو داود (٢ / ٢٧٨) والترمذى (٤ / ٥٧) وابن ماجه (١ / ٧٨) بإسناد صحيح عنه وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأخرجه الحاكم (٢ / ٦١٢ - ٦١٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي .

« إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۚ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۚ »

رأت قريش أن تجرب أسلوماً آخر ، تجمع فيه بين الترغيب والترهيب ، فلترسل إلى محمد صلى الله عليه وسلم تعرض عليه من الدنيا ما يشاء ، وترسل إلى عمه الذي يحميه ، تحذره مغبة هذا النأييد ، حتى يكلم هو الآخر محمداً أن يسكت ، فلا يجر المتاعب على كاهله ووايه .

• • •

أرسلت قريش « عتبة بن ربيعة » - وهو رجل رزبن هادىء - فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت إنما تريد هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

« وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطاع أمرأ دونك .

« وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك ربنا تراه لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عليه صدر سورة السجدة « حم تنزيل من الرحمن الرحيم » ، كتاب نصات آياته قرأنا عربياً نقوم يعلمون • بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون • وقالوا لو بنافى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر • ومن بيننا وبينك حجاب • فاعمل إنما عاملون • قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروا ، وويل للمشركين • الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة

هم كافرُونَ .. » (١)

حتى وصل إلى قوله تعالى « ... فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ »

تخير رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات من الوحي المبارك . اعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول . إن محمداً عليه الصلاة والسلام يحمل كتباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خيال . وهو - قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه فمحمداً عليه الصلاة والسلام ألمج الناس بالاستغفار وأزهمهم للاستقامة وما يطلب ملكاً ولا مالا وجاهاً ، لقد أمكنه الله من هذا كله فغف عنه ورفع أن يمد يده إليه . وبسط العطاء مما سبق إليه من خيرات ، فأنفق وادياً من المال في ساعة من نهار ، وترك الحياة غير معقب لذريته درهما .

إن عتبة - باسم قریش - يريد أن يترك محمد عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس . ! ماذا تصير إليه الحياة لو أن صخرة من الأرض انخلعت عنها وصعدت إلى دارات الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره وإشعاعه ، ويحرم الوجود من ضيائه وحرارته ؟!

ألا ما أغرب هذا الطلب ؟ وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يبعدها ولذلك ، بعد ما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائماً من فكره ، استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجماً من عاطفته : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ

(١) هذه القصة أخرجه ابن إسحاق في المغازي (١ / ١٨٥ من سيرة ابن هشام) بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسل ، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضى الله عنه ، كما في تفسير ابن كثير (٩ / ٩١ - ٩٢) وسنده حسن ، إن شاء الله .

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق متلاحقة ، وعاد إلى قریش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه !

أما وفد قریش إلى أبي طالب ، فقد أخذ يقول : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهمتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم رداً رفيقاً . فانصرفوا عنه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمأهوه عليه ثم استشرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا ، وأكثر قریش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرؤا فيه . فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ، وإنا قد استنميناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا - والله - لانصبر على هذا من شتم آلهمتنا وآبائنا ونسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك ، إلى أن يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلانه ، وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلمه ما قالت قریش وقال له : ابق على نفسك وعلى ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق فثن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه رأى ، وأنه خذله وضعف عن نصرته فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : يا عماء والله لو وضعو الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته ^(١)

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن اسحاق (١ / ١٧٠) ومن طريقه ابن جرير (٢ / ٦٧) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس به . وهذا إسناد معضل ، يعقوب هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو من أتباع التابعين وقد أخرج هذه القصة مختصراً =

ثم بكى رسول الله وقام فلما ناداه عمه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لأأسلمك لشيء أبدا ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا

* * *

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب في تعويق الدعوة . وأدركت قريش أن ما تصبوا إليه بعيد المنال . فعادت سيرتها الأولى ، تصب جام غضبها على المؤمنين ، وتبذل آخر ما في وسعها للتكثير بهم ومحاولة فتنهم عن دينهم .

وحزن الرسول الكريم للمآسى التي تقع لأصحابه وهو عاجز عن كفها ، فأوعز إلى من قل نصيره ، ونبا به المقام في مكة أن يهجروا إلى الحبشة . وكان ذلك خمس سنين من مبعثه . أو بعد سنتين من جهده بالبلاغ .

الهجرة إلى الحبشة

كان الرحيل إلى الحبشة تسلا في الخفاء ، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتجبطه . ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع ، بل كان الفوج الأول مكوناً من بضعة أسر ، فيهم رقية ابنة النبي عليه الصلاة والسلام وزوجها عثمان بن عفان ، وقرآن آخر من المهاجرين لم يزيدوا جميعاً عن ستة عشر . وقد يسوا شطر البحر حيث قبضت لهم الأقدار هفيفتين تجاريتين أبحرنا بهم إلى الحبشة ، فلما خرجت قريش في آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين . ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلاً حتى ترامت إليهم

الطبراني في الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبي طالب ، وفيه مكان قوله : « ولو وضوا الشمس ... » « مانسه » والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بهت به من أن يشمل أحدكم من هذه الشمس شملة من نار » وفيه عقب هذا فقال أبو طالب : « والله ما كذب ابن أخي قط أرجوا راشدين » قال الهيثمي في « المجمع » (٦ / ١٥) : « رواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح » .

الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحرارا ، وأن الإيذاء القديم
اقطع فلا بأس عليهم إن عادوا .

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين ، فقررُوا العودة إلى وطنهم .
حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة المحزنة ، وعرفوا أن المشركين أشد ما
يكونون خصاماً لله ورسوله والمؤمنين ، وأن عدوانهم لم ينقطع يوماً ...

وبزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدنة حقا بين الإسلام والوثنية أسماها أن
محمد صلى الله عليه وسلم تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها (١)
وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة ...

وماذا قال محمد عليه الصلاة والسلام في مدح الأصنام ؟ يجب هؤلاء المغفلون
بأنه قال : تلك الفرائق العلاء . وإن شفاعتهن لترتجى (٢) .

وأي وضع هذه الكلمات ؟ وضعها في سورة « النجم » مقحمة وسط الآيات
التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام . فأصبحت هكذا « أفرايم اللات والعزى » ومناة
الثالثة الأخرى . تلك الفرائق العلاء . وأن شفاعتهن لترتجى . السك المذكور
وله الأثرى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآهؤكم ما أنزل
الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما نهوى الأفئس ... »

ويكون معنى الكلام على هذا : خبروني على أصنامكم : أهى كذا وكذا ؟ إن
شفاعتها مرجوة ، إنها أسماء لاحقائق لها . خرافات ابتدعت واتبعت . مالكم
جعلتموها إناثاً ونسبتموها لله وأنتم تسمونها الإناث لكم ؟ تلك قسمة جائرة !
فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلا عن أن ينزل به وحى حكيم ؟ .

ولسكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله !

إن محمد صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه
ينص الكتاب الذي جاء به . قال الله جل شأنه « ولو تقول علينا بعض الأقاويل
لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

يبد أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها
بمظالمات . اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح . ومع أن زيفه وفساده لم
يحفظا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله . . .

إليك تفتح « الخازن » في تفسير القرآن (سورة هود) فتقرأ ما يلي : لما
كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمر ذنب الفيل . فغمزه فوق
منه خنزير وخنزيرة ، ومسح على الخنزير فوق منه القارة . فأقبلوا على الروث
سفا كلوه . فلما أفسد النار في السفينة وجعل يقرضها ويقطع حبالها ، أوحى الله إليه
أن اضرب بين عيني لأسد ، فضرب فخرج من منخره قط وقطة . فأقبلا على
القار ما كلاه .

أرايت هذا الكلام الفارغ ؟ أرايت من قبله حديث الغرائق ؟ إن كثيراً
من هذه الخرافات الصغيرة توجد في كتب شتى عندنا . ولا ندرى متى تنظف
هذه الكتب القديمة منها . فهي لا ريب مدخولة عليها أيام غفلة المسلمين وغلبة
الدسائس اليهودية على أفكارهم ومخطوطاتهم .

والذي ورد في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ سورة « البجم »
في محفل يضم مسلمين ومشركين ، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب .
فلما أخذ صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يهدر بها . ويرعد بنذرها حتى وصل
إلى قول الله « . . . والمؤتفة أهوى » فغشاها ما غشى * فبأى آلاء ربك
تتبارى * هذا نذير من النذير الأولى * أزفت الآزفة * ليس لها من دون
الله كاشفة * أفن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبسكون ؟ * وأنتم
سامدون ! » .

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ،
فما تمالكوا أن ينحروا لله ساجدين ، مع غيرهم من المسلمين .

فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ، ندموا على
ما كان منهم ، وأحبوا أن يعتذروا عنه ، بأنهم ما سجدوا مع محمد صلى الله عليه وسلم

إلا لأن محمداً صلى الله عليه وسلم عطف على أصنامهم بكلمة تقدير^(١) (كذا) وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين . ولا يستحي أحدهم - وهو ابن خال النبي عليه الصلاة والسلام - أن يقول له : ساخراً : كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وليس أسمح من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار وقد حاول المشركين أن ينشروا فريتهم هذه ليمكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام ويشوشوا على الوحي ، وليوهوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم في بعض أحيانه مال إليهم . وهيهات . فإن الحرب التي شنها محمد صلى الله عليه وسلم على الوثنية لم تردها إلى إلا ضراماً ، ولم تزد من عبيدها إلا خصاماً .

* * *

عاد من هاجر إلى الحبشة ليباغت بأن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحدهم وأشد فدخل بعضهم مكة مستعجراً بمن يعرف من كبارها . وتوارى الآخرون .

لكن قريشاً أبت إلا أن تنكل بالقادمين وأن تفرى سائر القبائل بمضاغة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول صلى الله عليه وسلم بدا من أن يشير على أصحابه بالمجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع . فخرج منهم

(١) أين الدليل القلبي على هذا الاعتذار ؟ وأن المشركين م الذين اختلفوا فريتهم هذه وحاولوا نشرها ؟ مثل هذه الأمور لا بد لها من دليل منقول ، وما المانع أن تكون هذه القرية حدثت من بعد ؟ وهذا هو الأقرب ، فانها أعنى هذه القرية لم ترو بسند معتبر عن صحابي ، بل كل طرقها مرسل لا يدري من الذي حدث بها ممن يمكن أن يدرك عصر النبوة والرسالة وقد فصلت القول في بطلان هذه النص من الوجهة الحديثية في كتابي « نصب المجانيق لنسف قصة الفرائق » ولما يطبع .

في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة . ويسر الله لهم السفر
فانحازوا إلى نجاشي الحبشة . ووجدوا عنده ما يبعثون من أمان وطيب جوار
وكرم وفادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلا راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ،
سلم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام . وكانت مرونة فكره سر
العاملة الجميلة التي وفرتها لأولئك اللاجئين إلى مملكته ، فارين بدينهم من الفتن .

* * *

عزّ على المشركين أن يمد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم ، وأغرتهم
كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفدًا منهم محملاً بالهدايا والتحف ، كي
يحرم المسلمين وده ، ويطوى عنهم بشره .

وكان الوفد من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا -
واستعان الوفد على النجاشي رجال حاشيته بعد أن ساقوا إليهم الهدايا، وزودهم
بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ! قالوا : إن ناسا من سفهائنا فارقوا دين
قومهم ولم يدخلوا في دين الملك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ..
واقفوا معهم أن يمشوا على النجاشي بإقصائهم .

فلما فوج النجاشي في الأمر وأشير عليه بإبعاد القوم ، رأى أن لا بد من
تمحيص القضية وسماع أطرافها جميعاً .
ثم أرسل إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فدعاهم . فحضروا ، وقد أجمعوا
على صدقه ، فيما ساءه وسره .

وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب . فقال لهم النجاشي :
ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين
أحد من الناس ؟

فقال جعفر : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي

الفواحش ، وتقطع الأرحام ، ونسى الجوار ، وبأكل القوى منا الضيف .
حتى بعث الله إينا رسولا منا عرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفاه ، فدعانا لتوحيد
الله وأن لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق
الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم
والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة
والصيام . . . وعدد عليه أمور الإسلام . قال جعفر : فأما به ، وصدقناه ، وحرمنا
ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا . فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا
ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا
إلى بلادك ، واخترنك على من سواك ، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك . . .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال : نعم . فقرأ عليه
سطراً من « كهيعص » . فبكى النجاشي وأساقفته ، وقال النجاشي : « إن هذا
والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكم
أبداً » يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه — فخرجا وقال « عمرو » لعبد الله بن
أبي ربيعة : والله لا آتينه غداً بما يبید خضراءهم .

فلما كان الند قال للنجاشي إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً .
فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به
نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته أنقأها إلى مريم العذراء البتول .
فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : ماعدا عيسى ما قلت قدر هذا العود^(١)

(١) اختلف النصارى قديماً في طبيعة المسيح على مذاهب شتى . وكان هناك مذهب
يقوم على اعتباره بشراً مرسلًا ، وليس إلهًا ولا ندًا لله . ولا يزال في الغرب المسيحي
أناس يعتقدون هذا المذهب الموحد . ونعتقد أن نجاشي الحبشة على هذا الرأي . وإن كان
بطارقة الكنيسة يستكرونه أشد الاستنكار .

فخبرت بطارقه اقل : وإن نحرتم ! وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون ،
ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأنني آذيت رجلا منكم ! ورد هدية قريش وقال :
ما أخذ الله الرشوة مني حتى أخذها منكم ، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه ^(١) وأقام
المسلمون عنده بمخبردار ...

أخفقت حيله عمرو ، وعاد الوفد إلى مكة يجر أذيال الخيبة . وعرفت قريش أنها لن
تشبع ضغينتها على الإسلام وأهله إلا في حدود سلطانها ، فعزمت أن تشفي غيظها من
يقع تحت أيديها .

بإسلام حمزة وعمر

إن الأفق المتلبّد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء . لقد غبرت على المسلمين في مكة
أيام غلاظ ، اضطرت بيوتا عديدة أن تقربد ينها . وبقي من بقي منهم يكابد العنت من
شطط المشركين وكيدهم ، إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشا تتروى
في أسرها قبل أن تقدم على إساءتها المبيتة .

أسلم « حمزة » بن عبد المطلب ، عم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوه من الرضاع وهو
رجل أيد جلد قوى الشكيمة . وسبب إسلامه الغضب لما بلغه من تهجم أبي جهل على
رسول الله صلى الله عليه وسلم تهجما بذبّا . قالت له أمة لعبد الله بن جدعان : يا أبا عمار
لو رأيت ما نرى ابن أخيك « محمد » من أبي لحكم بن هشام فإنه سبه وآذاه ثم انصرف
عنه ، ولم يكلمه محمد - وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث في مسكن قريب -
فأسرع « حمزة » محققا لا يلوى على نسيء وصمد إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه ،

(١) أخرج هذه القصة ابن اسحاق في المنازى (٢١١ / ١ - ٢١٣ من ابن هشام)
وأحمد (رقم ١٧٤٠) من طريق ابن اسحاق بسند صحيح ، من حديث أم سلمة زوج النبي
صلى الله عليه وسلم .

ثم ضرب رأسه بالقوس ، فشجّه شجرة منكّرة وقال : أنشتمه وأنا إلى دينه ؟
وكما يقول البعض : طلبنا العلم لندنيا فأبى الله ، إلا أن يكون الدين ! كان إسلام
حزّة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه ، ثم شرح الله صدره فاستمسك
بالعروة الوثقى . واعتزّ به المسلمون أيّما اعتزاز ...

أما عمر بن الخطاب فكان من أول الفتانين المستهزئين بالإسلام ،
وكان معروفاً بحدة الطبع ، وقوة الشكيمة ، وطالما لقي المسلمون منه
ألوان الأذى .

روت زوجة عاصم بن ربيعة قالت : إنا انرحل إلى أرض الحبشة وقد
ذهب عاصم لبعض حاجته ؛ إذ أقبل عمر — وهو على شركه — حتى وقف
على وكنا نلقى منه البلاء ، فقال : أنتطلقون يا أم عبدالله ؟ قالت : نعم والله
لنخرجن في أرض الله فقد آذيتمونا وفهرتونا ، حتى يجعل الله لنا فرجاً .
قالت : فقال عمر : صحبتكم الله ، ورأيت له رقة وحزناً ... !! قالت : فلما
عاد عاصم أخبرته وقلت له : لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا ... قال : أطعت
في إسلامه ؟ قلت نعم . فقال : « لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب !! » — لما
كان يراه الرجل من شدته وغلظته على المسلمين — .

ولكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل فإن غلظة عمر كانت
قشرة خفيفة ، تكن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والسماحة .

والظاهر أن عمر كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة : احترامه للتقاليد
التي منها الآباء والأجداد . واسترساله مع شهوات السكر واللبو التي ألفها ...
ثم أعجابه بصلابة للمسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي
تساوره — كأي عاقل — في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من
غيره ، ولهذا ما إن يثور حتى يخور . ذهب ليقول محمداً صلى الله عليه وسلم ثم أنشتمه

عن عزمه كلمة . ولما علم بإسلام أخته وزوجها افتحم عليهما البيت صاحبا متوعدا .
وضرب أخته فشجها ، وأعادته منظر الدم المراق إلى صوابه . فرجحت نواحي البر
والخير في نفسه ، وتناسول ورقة كتبت فيها بعض الآيات ، وتلاها . ثم قال :
ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ؟

واستكان عمر للحق فمشى إلى رسول الله ، يعلن إسلامه . .
فلما خلصت نفسه من شوائبها ، وتمحصت للإسلام ، كان مدداً عظيماً لجند
الله فازداد المسلمون به منه ، ووقعت في نفوس الكافرين منه حسرة .
ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو ، وأن وسائلها الأولى في محاربته
لم تمنع انتشاره أو تنفر أنصاره ، فأعدت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة .
أقسى وأحكم ، وأدق وأشمل ...

المقاطعة العامة

وتخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم ،
أو يعطف عليهم ، أو يحمي أحداً منهم حزباً واحداً دون سائر الناس . ثم اتفقوا
ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً ولا يزوجهم أو يتزوجوا منهم وكتبوا ذلك
في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ، توكيداً لنصوصها .

ولا شك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع
ضغنتهم . فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس في شعب بنى هاشم وانحاز إليهم
بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم على سواء ما عدا أبا لهب فقد آزر قريشاً في
خصومتها لقومه .

وضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم العون ، وقل الغذاء حتى بلغ
بهم الجهد أقصاه ، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب ، وعضتهم الأزمات العصبية

حتى رثى لحالمهم الخوصوم . ومع الكفهرار الجوفى وجوهمم فقد تمهلوا فى ذات الله الوليات .

ولم تقتر - هـ - الوثنيين فى الحملة على الإسلام ورجاله ، وفى نأليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهلبى : كانت الصحابة إذا قدمت عبر إلى مكة ، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئاً من الطعام قوتاً لعياله فيقوم أبو لهب فيقول . يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يدركوا معكم شيئاً . وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن لأخسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع . وليس فى يده شئ . يطعمهم به . ويندو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهل المؤمنون ومن معهم جوعاً وهرباً .

/ وروى يونس عن سعد بن أبى وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت نغمة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بغير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها بالماء ، فقويت بها ثلاثاً .

فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين . وكيف أضناهم الحرمان والجأهم أن يطعموا مالا مساغ له ؟ . وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قریش . فكان أحدهم يوقر البعير زاداً ثم يضربه فى اتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئاً مما بهم من إعياء وفاقة . .

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحة كان رباط الإيمان وحده هو الذى يمسك القلوب ويصبر على اللأواء .

ومن الطبيعى أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآزق . لطالما وعدوا بالنصر والمساكين ، فما وجدوا إلا الروع والشغب وهام أولاء محرجون فى أرض

تفكرت لهم ، واقشعرت تحت أقدامهم . ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظاً على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضلة ، وكفروا بانتصارها في الدنيا كفرهم بمجيء اليوم الآخر . ولو لم يطلب أولئك المعذبون النصر لينقذهم من بأسائهم لطلبوه ، كي يحزوا به المسكدين ويؤدبوا اللطوفين ، بيد أن الوحي كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة ، يجب أن يحمدا على حقائق الإيمان التي عرفوها ، وأن يستمدوا من سموها وصدقها ما يراغمون به الأيام والأحداث .

« وَإِنَّمَا رَيْسُكَ بِمَضٍ الَّذِي نَعُدُّهُ أَوْ تَقَوِّفِكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ » . وَلِسَكْلٌ أُمَّةٌ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ » .

وكان المشركون أيضاً يتمجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين يتمجلون لأنهم يضحكون منها فما يثقون ببعث أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً قريباً أو بعيداً سينشق فجره ، فإذا مسكة خالية من الأصنام ، وإذا أذان التوحيد يرن في أرجائها ، وإذا المحصورون في الشعب هم أصحاب الأمر والنهي ، والسادة الحاكون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو !!! وكان يقينهم من أن اليوم والقدر لم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به .

« ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لسكْلٌ أُمَّةٌ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قل : أرأيتم إن أتاكم عذابٌ بيّناً أو نهاراً . ماذا يستعجل منه الجرمون ؟ أم أنتم إذا ما وقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ » . وكان الدخول في الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن المهمة . ربما اعتنق فريق من الناس مبدأ ما — عن صدق وإقناع — وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من وراءه .

أما أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلحقون من تضحية في سبيل عقيدتهم .

ولا أحسب شيئاً يربى النفوس على التجرد كهذا التفتان في الحق ، للحق ذاته ، ثم إن القرآن كان صارماً في قمع المتاجرة بالعقائد . والاثراء على حسابها ، والعلو في الأرض باسمها : « مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونقاء وإخلاصاً لا يعرف لها في التاريخ نظير ، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم ، واستسلمت الأنظار المكتنزة بالخير لجيوشهم ، كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده فلم يكثرثوا لذهب أو فضة .. إنما عناهم — أولاً وآخرأ — إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

* * *

وفي أيام الشعب كان المسلمون يلحقون غيرهم في موسم الحج ، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد ، فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقاً وفروعها امتداداً ، وقد كسب الإسلام أنصاراً كثيراً في هذه المرحلة ، وكسب — إلى جانب ذلك — أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه للقائمة ونقض الصحيفة التي تضمنتها .

وأول من أبلى ذلك بلاء حسناً « هشام بن عمرو » فقد ساءت حال المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ، فمشى إلى زهير بن أبي أمية ، وكان شديد التهمة على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب .

فقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ؟

أما إنى أحلف بالله : لو كانوا أخوال أبى الحكم — بمعنى أبا جهل — نعم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أحابك أبداً ! فقال : فإذا أصنع وإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لنقضتها ! فقال : قد وجدت رجلاً ، قال : ومن هو ؟ قال : أنا . قال زهير : أبنا ثالثاً فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه ؟ أما والله لو أمكنتموم من هذه لتجذبنهم إلى مثلها منكم أسرع ! قال : ما أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : أبنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية : قال : أبنا رابعاً . فذهب إلى أبو البختري بن هشام ، وقال له فحواً مما قال للمطعم . قال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : أنا وزهير والمطعم . قال : أبنا خامساً . فذهب إلى زمعة بن الأسود ، فكلّمه وذكر له قرابته ، قال : وهل على هذا الأمر معين ؟ قال : « نعم » وسى له القوم .

فاتعدوا « خطم الحجون » الذى بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك وتعهدوا على القيام فى نقض الصحيفة فقال : زهير : أنا أبدوكم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير فطاف بالبيت . ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أنا أكل الطعام وتلبس الثياب وبنو هاشم هلكن لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطمة الظالمة ! قال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا بها حين كتبت ! ! قال أبو البختري : صدق والله زمعة لا نرضى ما كتب فيها . قال المطعم بن عدى : صدقنا وكذب من قال غير ذلك ! ! وقال هشام بن عمرو

نحواً من هذا . فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بايل ! فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلى كلمة « باسمك اللهم » .

وكان للعرب تفتتح بها كتبها ..

عام الحزن

انطلق المسلمون من الشعب يستأنفون نشاطهم القديم بعد ما قطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة ، وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها حتى أصيب الرسول صلى الله عليه وسلم بوفاة زوجته خديجة ثم بوفاة عمه أوى طالب .

أى أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معاً .

إن « خديجة » من نعم الله الجليلة على « محمد » عليه الصلاة والسلام ، فقد آزرته في أخرج الأوقات ، وأعانته على إبلاغ رسالته ، وشاركته مفارم الجهاد المر ، وواسته بنفسها ومالها ، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من « خن » الرسالة وكفرن برجالهن ، وكن مع المشركين من قومهن وآلمن حرباً على الله ورسوله « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة فوج وإمرأة لوطي كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً . وقبل : ادخلا النار مع الداخلين » .

أما خديجة فهي صديقة النساء ، حنت على رجلها ساعة قلق ، وكانت نسمة سلام وبر ، رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحى ، وبقيت ربع قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزله وشمائله ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة ، وماتت والرسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره ، وهى تجاوز الخامسة والستين وقد أخلص لذكراها طول حياته .

أما أبو طالب ، فإن المرء يحار في أمره ! وبقدر ما ينحنى إعجاباً لنبهه في كفالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم لبطولته في الدفاع عنه ، حين نبيه ، وحين صدع بأمر ربه ، وأنذر عشيرته الأقربين .

إنه - بقدر ذلك - يستغرب المصير الذي ختم حياته ، وجعله يصرح -- قبل موته - أنه على ملة الأشياخ من أجداده .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لموت أبي طالب حزناً شديداً . ألم يكن الحصن الذي تحمي به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء ؟ وما قدولى الرجل الذي سخر جاهه وسلطانه في الذود عن ابن أخيه وكف العوادى أن تناله .

إن قريشاً أصبحت لا تهاب في محمد عليه الصلاة والسلام أحداً بعده .
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات « أبو طالب » ^(١) وذلك أنهم تجردوا عليه ، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه .

وعن ابن مسعود قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد انحرت جزور بالأمس . فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيضعه بين كتفي محمد عليه الصلاة والسلام إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه .

فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض . وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحتة من ظهره والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة .

فجاءت - وهي جويرة - فطرحتة عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات ، ولما سأل سأل ثلاثاً . ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاثاً .

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن إسحاق (٢٥٨/١) بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسل .
(٩ - فقه السيرة)

فلما سمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته .

ثم قال « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، وأممية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » وذكر السابع ولم أحفظه .

فو الذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم « بدر » ثم سجدوا إلى القليب ، قلب بدر (١) .

لقد مضت مكة في طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلغت نهايته ، فهى الآن تستمرىء تلويث الساجدين بالأفذار . وتمايل - ضحكا - من منظر الأنجاس ، وهى تسيل على كتفى المصلى . لم يبق في هذه القلوب مكان لذرة من الخير .
وأنست - فى المجتمع العربى - تعيش فى كنف أبيها ، وتفخر بقوته ، وتأنس بحمايته .

فما يحز فى قلب الرجل أن يرى نفسه فى وضع تدفع عنه ابنته . وتشعر بالعجز وقلة الناصر ، وقد كظم محمد صلى الله عليه وسلم على أمه ، وتحمل فى ذات الله الماتى . إلا أنه أخذ يفكر فى التوجه برسالة إلى قرية أخرى ، علما تكون أحسن قبولا وأقرب استجابة ؛ فاستصحب معه زيد بن حارثة « وولى وجهه شطر » ثقيف « يلتمس نصرتها ..

فى الطائف

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حيث تقطن ثقيف وهى تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلا ، سارها محمد صلى الله عليه وسلم على قدميه . جيئة وذهوبا

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٢٧٨/١) — ٢٨٠ ، ٤٧١ (ومسلم ٥ / ١٨٠) والنسائى (٥٨/١) وأحمد (رقم ٢٧٢٢ ، ٣٧٢٣ ، ٣٧٧٥ ، ٣٩٦٢)
والقائل : « وذكر السابع ولم أحفظه هو أبو اسحاق وهو السبيعى كما صرح بذلك مسلم فى روايته ، وقد سمى السابع « عمارة بن الوليد » رواية للبخارى وأحمد ، وراجع فتح البارى .

فلما انتهى إليه ، قصد إلى نفر من رجالها الذين ينتهى إليهم أمرها ، ثم كلمهم في الإسلام ودعاهم إلى الله فردوه - جميعاً - ردّاً منكراً ، وأغلظوا له الجواب . ومكث عشرة أيام ، يتردد على منازلهم دون جدوى .

فلما يئس الرسول عليه الصلاة والسلام من خيرهم قال لهم : إذا أيتيم ، فاكتموا على ذلك - كراهية أن يبلغ أهل مكة ، فتزداد عداوتهم وشتماتهم - لكن القوم كانوا أخس مما ينتظر . قالوا له : أخرج من بلدنا ، وحرشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة . و « زيد بن حارثة » يحاول - عبثاً - الدفاع عنه حتى شج في ذلك رأسه .

وأصيب الرسول عليه الصلاة والسلام في أقدامه . فسالت منها الدماء واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان نعبة ، وشيبة ، ابني ربيعة ، حيث جلس في ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن .

وكان أصحاب البستان فيه ، فصرقوا الأرباش عنه ، واستوحش الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التي عاها مع أهل مكة ، إنه يجرر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة فهتف يقول :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ... أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ...

إلى من تسكني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي .. !!

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علي غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ... »

وتحركت عاطفة القرانة في قلوب بني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يدعى « عداساً » وقال له : خذ قطعاً من هذا العنب ، واذهب به إلى الرجل .

فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مد يده إليه قائلاً : « باسم الله ثم أكل » .

فقال « عداس » إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي : من أى البلاد أنت ! قال : أنا نصرانى من « نينوى » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمن قرية الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب « عداس » على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجليه يقبلهما .

فقال ابنه ربيعة ، أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاء « عداس » قال له : ويحك ما هذا : قال ما فى الأرض خير من هذا الرجل ^(١) . فحاول الرجلان توهين أمر محمد ، وتسميك الرجل بدينه القديم . كأنما عزوا عليهما أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم من الطائف بأى كسب .

* * *

وقتل الرسول عليه الصلاة والسلام عائداً إلى مكة ، إلى البلد الذى لفظه خيرة أهله ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة . وأكره الباقى على معاناة العذاب الواصب ، أو الفرار إلى شغل الجبال .

وقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا زيد . إن الله جاعل لما ترى فرجاً . . .

(١) أخرج هذه القصة ابن إسحق (١ / ٢٦٠ — ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد ابن كعب القرطبي مرسل ، لكن قوله : « لأن أبيتهم فاكتموا على ذلك » وقوله : اللهم إني أشكوا . . إلخ الدعاء . ذكرهما بدون سند ، وكذلك رواه ابن جرير (١ / ٨٠ — ٨١) من طريق ابن إسحاق وروى هذه القصة الطبراني فى الكبير من حديث عبد الله ابن جعفر مختصراً وفيه الدعاء المذكور بنحوه ، قال الهيثمى (٦ / ٢٥) : « وفيه ابن إسحق وهو مدلس ثقة . وبقية رجاله ثقات » فالحديث ضعيف .

ولا بد أن أخبار ثقيف قد سبقته إلى قریش . ومن ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته . فبعث إلى « اللطيم بن عدى » يعرض عليه أن يجره حتى يبلغ رسالة ربه ! فقبل « اللطيم » واستنهض أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام . وتسم « المطعم » ناقته ثم نادى . يا معشر قریش ، قد أجرت محمداً عليه الصلاة والسلام ، فلا يهجه أحد منكم ! فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته . و « مطعم » وأهله يحرسونه بأسلحتهم (١) ...

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أيجير أم متابع - مسلم ؟ قال : بل « مجير » . قال : قد أجرنا من أجرت ... !

وحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للطعم هذا الصنيع . فقال يوم أسرى بدر : لو كان المطعم حياً لتركته له هؤلاء الأنثى ...

كان للطعم - كأبي طالب - على دين أجداده وكان كذلك مثله في المروءة والنجدة . وقد أراد أبو جهل أن يتهكم بنبي يحتاج إلى جوار ! وكأنه يتساءل : لم لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟

ولذلك قال - لما رآه - : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ؟

فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما ينكر أن يكون من أنبياء وملك ؟

فلما أخبر رسول الله بسؤال أبي جهل ورد عتبة قال :

أما أنت يا عتبة فما حيت لله ، وإنما حيت لنفسك - وذلك أنه قالها عصبية لا إيماناً -

(١) لم أجد له سنداً وقد ذكره بنحوه ابن جرير (٢/٨٧ - ٨٣) بدون سند بقوله « وذكر بعضهم ... » ولعل هذا البعض هو الأموي في منازيه فقد عزاه إليه الحافظ كثير (٣/١٣٧) بدون سند أيضاً.

وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً
وتبكي كثيراً .

وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا
فيما تنكرون^(١) ...

وفي هذا التعليق ما يدل على ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام من المستقبل
مهما اكتنفه - في الحاضر - من الآلام .

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، ليستأنف خطته الأولى ، في عرض
الإسلام وإبلاغ رسالة الله .

وبينا هو ماض في جهاده ، إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج ...

الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد
الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ، ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق
السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه
أحد . ثم الأوبة - بعد ذلك - إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم
إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين . ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله :

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله :

(١) ابن جرير (٨٢/٢ - ٨٣) بدون سند كما تقدم في تخریج الحديث السابق .

ولقد رآه - يعنى جبريل - نزلةً أخرى * عند سذرة المنتهى *
عند ما جنة المأوى * إذ يَفشى السَّدرَةُ ما يَفشى * ما زاغ البصرُ وما طغى *
لقد رأى من آياتِ رَبِّهِ السَّكْبَرى * .

فتعليل الإسراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يرى عبده
بعض آياته .

ثم أوضحت آيات للمراجع . أن الرسول عليه الصلاة والسلام شهد - بالفعل -
بعض هذه الآيات السَّكْبَرى .

وقد اختلف العلماء - من قديم : أكان هذا الشرى الخارق بالروح وحده ،
أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير .

وللدكتور هيكل رأى غريب ، فقد اعتبره استجماعاً ذهنياً ونفسياً لوحدة
الوجود من الأزل إلى الأبد ، في فترة من فترات التآلق النفسانى الفذِّ ، الذى
اختص به بشر نقيّ جليل مثل محمد صلى الله عليه وسلم . وفى إبان هذا التآلق الذى
استعلى به على كل شيء - استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب
والعقاب .. الخ .

فالإسراء حق . . وهو - عنده - روحى لا مادى ، ولكنه فى اللحظة لا فى
المنام ، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض ، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذى
صوره ، ثم قال فيه بعدئذ : « وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف
الطوائع الإنسانية » .

والحق ، أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية ، أخذت تضمحل
وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسوراً فى عالم الروح ليس بمستوعب فى عالم المادة .
وأحسب أنه بعد ما مزق العلم من أستار عن أسرار الوجود ، فإن أمر المادة
أنهى كَأَمْرِ الروح ، لا يعرف مداه إلا قِيَمُوم السموات والأرض .
وإن الإنسان ليقف مشدوهاً ، عندما يعلم أن الذرة تمثل فى داخلها نظام

المجموعة الشمسية. لدوارة في الفلك ، وأنها - وهي هباءة تافهة - تمكن فيها حرارة هائلة ، عند ما أطلقت ، أحرقت الأخضر واليابس .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمسى به ، وعرج . كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما اخترع الناس أخيراً ؟

لقد امتطى البراق - وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه ، كأنه يمشى بسرعة الضوء . وكلمة « براق » يشير اشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء ضخرت في هذه الرحلة .

لكن الجسم - في حالته المعتادة - يتعذر عليه النقل في الأفاق بسرعة البرق الخاطف ، لا بد من إعداد خاص ، يحسن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد .

وأحسب أن ما روى عن شق الصدر ، وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم . . . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ، ذات الدلالة التي تدق على السذج :

إن الإسراء والمعراج ، وقعا للرسول عليه الصلاة والسلام بشخصه ، في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراف وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصى من أغلب القوانين التي تحكمه .

واستكناه حقيقة هذه الرحلة ، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق ، مرتبط بإدراك العقل الإنسانى لحقيقة المادة والروح ، وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص .

ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى ، أى إلى تسجيل المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع محددة .

وقصة الإسراء والمعراج ، تهمننا من هذه الناحية .

ألم تر أن « علم النفس » لم يستبحر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث في الروح والخطب في مدلولها ؟

لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى مدرة المنتهى مباشرة ؟ .

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهوراً طوالاً وهي وقفت على بنى إسرائيل . وظل بيت المقدس مهبط الوحي ، ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار .

فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم لعنة الله ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم انتقالاً بالقيادة الروحية في العالم ، من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية إسرائيل ، إلى ذرية إسماعيل .

وقد كان غضب اليهود مشتتاً لهذا التحول ، مما دعاهم إلى المسارعة بانكاره « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » فبادوا بغضب على غضب .

لكن إرادة الله مضت وحملت الأمة الجديدة رسالتها . وورث النبي العربي تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقام يكانج لنشرها وجمع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضي ، وإدماج الكل في حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في أسرائته . فيكون هذا الانتقال احتراماً للإيمان الذي درج - قديماً - في رحابه . . ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة . إن النبوات يصدق بعضها بعضاً ، ويمهد السابق منها للاحق . وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بنى إسرائيل بذلك .

« وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرُنَّه قال : أأقرتم وأخذتم على ذلکم إصرى ؟ قالوا : أقرنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين. والكشف عن منزلة محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، ليس مدحاً يساق في حفل تكريم. بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية، منذ تولت السماء لإرشاد الأرض، ولكنه جاء في إبانته المناسب.

فإن جهاد الدعوة الذي حمّله محمد صلى الله عليه وسلم على كواوله، عرّضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء. ومزق شمل أتباعه، فما ذاقوا — مذكّراً — به — راحة الركون إلى الأهل والمال. وكان آخر العهد بمشاق الدعوة، طرد «ثقيف» له، ثم دخوله البلد الحرام في جوار مشرك. إن هوانه على الناس — منذ دعاهم إلى الله — جعله يحار إلى رب الناس، شاكياً راجياً.

فمن تطمين الله له، ومن نعمائه عليه أن يهيء له هذه الرحلة السماوية لتس فؤاده المعنى ببرد الراحة. وإيشعر أنه بعين الله، مذ قام يفوحده ويعبده، ويعلم البشر توحيدته وعبادته...

كان يقول: «إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي»^(١) فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل، وأن مكانته بين المصطفين الأخيار، موطدة مقدمة. إن الإسراء والمعراج يقعان قريباً من منتصف فترة الرسالة التي مكنت ثلاثة وعشرين عاماً، وبذلك كانا علاجاً مسح متاعب الماضي، ووضع بذور النجاح للمستقبل.

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملاكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين، وتصغير جموعهم، ومعرفة عقابهم.

(١) تقدم في خبر الطائف أنه حديث ضعيف.

وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنتسح في الأرض . وتتوطن
الأودية الخصبية في النيل والفرات ، وتنزع هذه البقاع من مجوسية الفرس .
وتثليت الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في أعقاب جيل .
وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة . وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من
الجنة كما يظن السذج بالبله .

لقد روى الترمذى مثلاً أن رسول الله قال : « إذا أعطى أحدكم الريحان فلا
يرده فإنه خرج من الجنة »^(١) . فهل ذلك يدل على أن الريحان من الجنة ، ونحن
نقطف أزهاره من الحقول والحدائق ؟

حكمة الإسراء

ذلك والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته
حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتأبئة ، ويهاجمون
سلطانهم القائم .

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته ، فأمره أن يلقى عصاه .
قال : « ألقها يا موسى ، فألقاها ، فإذا هي حية تسمى » قال : خذها ولا تخف

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذى (١٨٤-١٨٥) من طريق حنان عن أبي عثمان النهدي .
مرسلاً وهذا مع إرساله فيه جهالة حنان هذا ولم يوثقه غير ابن حبان . لو صح الحديث لكان
اللائق حمله على ظاهره وهو أن الريحان أصله من الجنة ولا يلزم منه أن ما نقطفه منه من
الحقول هو من الجنة أيضاً كما ظن المؤلف . ألا ترى أنه إذا قال إنسان لماء في كأس : هذا
من السماء لكان صادقاً وكان قصده معروفاً ؟ فليتنامل . ونحو هذا يقال فيما صح عنه
صلى الله عليه وسلم أن أربعة أنهار من الجنة أى أصلها من الجنة ، لا أنها تنبع الآن منها .

معد: «ميد هاسيرتها الأولى» واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء.
آية أخرى: لنريك من آياتنا الكبرى».

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد: « اذهب إلى
فرعون إنه طغى... ».

وقد علمت أن ثمرة الإسماء والعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات
الكبرى وربما تقول: إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر
عاماً على عكس ما وقع لموسى. وهذا حق. وسره ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق
في سير المرسلين الأولين قصد بها قهر الأمم على الإقتناع بصدق النبوة فهي تدعيم
لجانهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء. وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فوق
هذا المستوى.

فقد تكفل القرآن للكريم بافتتاح أولى النهي من أول يوم، وجاءت الخوارق
في طريق الرسول ضرباً من التكريم لشخصه، والإيناس له، غير معكزة،
ولا معطلة للمعج العقلي للعادي الذي اشتعره القرآن^(١).
وقد اقترح المشركون على النبي أن يرقى في السماء، فجاء الجواب من عند
الله « قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ».
فلما رقى في السماء بعد، لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدى أو إجابة على
الاقتراح السابق. بل كان الأمر - كما قلنا - محض تكريم ومزيد إعلام من
الله لعبده.

إكمال البناء

وفي قصة الإسماء والعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة. وهذا
اللمعنى من أصول الإسلام.

(١) أنظر كتابنا: عقيدة المسلم.

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » .

والتحيات المتبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الأصرة .

نفى كل سماء أحل الله فيها أحد رسله ، كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة :
مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ! .

والخلاف بين الأنبياء وهم صنعتهم الأمم الجائرة عن السبيل السـوـى ،

أو بالأخرى صنعه الكهان والمتاجرون بالأديان .

أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتسكلة البناء الذى تعهده من سبقوه ، ومنع
الزلازل من تصعيده قال رسول الله « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى
بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون
به ويعجبون له ! ويقولون هل وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم
النبيين » (١) .

والأديان المعتمدة على الوحي السماوى معروفة . وليس منها — بداهة —
ما اصطنعه الناس لأنفسهم من أوثان وطقوس كالأبرهية ، والبوذية ، وغيرهما .
وليس منها كذلك ما ابتدع — أخيراً — من نحل اعتنقها الاستعمار
الغربي ، وكثر الانتصار حولها ، ليشدد الخناق على مقاتل الشرق ، ويعوق المسلمين
الأحرار عن حطم قيوده ، وإنقاذ عبيده ، وذلك كالبهائية والقاديانية . .

ومن الممكن — لو خلصت النيات ونشد الحق — أن توضع أسس عادلة لوحدة

دينية ، تقوم على احترام المبادئ المشتركة ، وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق ،
الأخرى ، إلى أن تزول على الزمن ، أو تنكسر حدتها .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٣٦/٦) ومسلم (٦٤/٧) من حديث
أبي هريرة .

والإسلام الذي يعدّ تعاليمه امتداداً للنبوات الأولى ، ولبنية مضافة إلى بنائها
العتيد أول من يرحب بهذا الاتجاه ويذكره .

سلامة الفطرة

وفي ليلة الإسراء والمعراج نأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه
دين الفطرة .

في الحديث « . . ثم أنيت بإناء من خمر وإناء من لبن . فأخذت اللبن
فقال : هي الفطرة التي أنت عليك وأمتك . » (١)

إن سلامة الفطرة لبّ الإسلام . ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد
السريرة ، غليل القلب . إن الفطرة الرديئة كالعين الجمدة لا تسيل إلا قدراً ومواداً
وربما أخفى هذا السواد السكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة .

يبد أن ما ينطلي على الناس ، لا يخدع به رب الناس ... !!

ويوم تكون العبادات - نفسها - متاراً لفطرة فاسدة ، فإن هذه العبادات
الخبيثة ، تعتبر أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة ..

والناس كلما تقدمت بهم الحضارات ، أمنعوا في التكلف والمصانعة ،
وقيدوا أنفسهم بعبادات وتقاليد قاسية .

وأكثر هذه التكلفات حجب تطمس وهج الفطرة (٢) وتعكر نقاوتها
وطاقتها .

(١) حديث صحيح ، وهو قطعة من حديث صعصعة بن مالك الطويل في الأسراء ، وقد
مضى تخريج (ص ٦٤) ، ورواه ابن حبان في صحيحه أيضاً (١٩٢ - ١٩٨) ، وأخرجه
ثلاثتهم من حديث أبي هريرة أيضاً .

(٢) أنظر « خلق المسلم » . « والاسلام والمناهج الاشتراكية » للمؤلف .

وليس أبغض إلى الله من أن تفترى هذه القيود باسم الدين ، وأن تترك النفوس في سجونها ، مغلوطة كئيبة .

فرض الصلاة

وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .

والصلوات التي شرع الله غير الصلوات التي يؤديها - الآن - كثير من الناس .

وعلمة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنايا ، وأن تخلصه من البقاء عليها إن ألم بشيء منها .

فإذا كانت الصلاة - مع تكرارها - لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة فهي صلاة كاذبة .

الصلاة طهور ^(١) ، كما جاء في السنة ، إلا أنها طهور للإنسان الحى ،

لا للجنة العفنة .

إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحى من غبار عارض ، والأعراض التي تلحق المرء في الحياة فتصدي قلبه كثيرة ، ومطهراتها أكثر ! .

وفي الحديث « فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ^(٢) .

(١) لأعرفه هذا اللفظ . وكأن المؤلف ذكره بالمعنى وما جاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « أريت لو أن نهاراً بباب أحدكم يفتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا . لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » أخرجه البخارى (٩ / ٢) ومسلم (١٣١ / ٢ - ١٣٢) من حديث أبى هريرة . ومسلم والبخارى في « أعمال العباد » (ص ٩٤) من حديث جابر .

(٢) حديث صحيح من رواية حذيفة بن اليمان أخرجه البخارى (٦ / ٢) ومسلم (١٧٣ / ٨) .

أصحاب القلوب المينة فالصلاة لا تعبدتهم قليلا .. ولن يزالوا كذلك حتى تمحيه
قلوبهم أو يوارىها الثرى ...

* * *

وقد رويت سنن ، أن رسول الله رأى في هذه الرحلة صوراً شتى ، لأجزية
الصالحين والظالمين . وتناقلت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها
وقعت ليلة الإسراء والمعراج .

والحق أن ذلك كان رؤيا منام في ليلة أخرى من الليالي المعتادة ، كما ثبت
ذلك في الصحاح ^(١)

قريش والإسراء

فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد
من آيات ربه الكبرى .

(١) يشير إلى حديث سمرة بن جندب عند البخاري في أماكن من صحيحه منها «الجنائز»
و «الرؤيا» وأحد أيضاً في المسند (٥ / ١٤٠٨) ولكن هذا لا يفي أن يكون صلى الله
عليه وسلم رأى ليلة الإسراء بعض الأجزية ، بل هذا هو الواقع كما في حديث أنس رضي الله
تعالى عنه مرفوعاً لما عرج بن ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون
وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس
ويقعون في أعراضهم » أخرجه أحمد (٣ / ٢٢٤) وأبو داود (٢ / ٢٩٨) وسنده صحيح .
وقد روى مرسل . ولكن المسند أصبح كما قال العراقي في تخريج الإحياء (٣ / ١٢٣) .
ولأنس حديث آخر في رؤيته صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون
أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٥٢) وغيره . وفي الباب أحاديث أخرى عن جماعة من
الصحابة ذكر بعضها ابن كثير في تفسير سورة الإسراء فليراجعها من شاء

والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض . أتراهم يصدقون به في السماء ؟
لقد طاروا يجمع بعضهم بعضاً ، ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكاراً لرسالة
محمد صلى الله عليه وسلم ورغبة من أمره . وتحدهاء بعضهم ، أن يصف بيت المقدس ،
إن كان رآه هذه الليلة حقاً ؟

عن جابر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كذبتني
قريش ، قمت في الحجر ، فخلى الله لي بيت المقدس . فطفقت أخبرهم عن آياته ،
وأنا أنظر إليه » !! (١)

ويقول الدكتور هيكل : « أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح
في هذا المارأوا فيه عجباً ، بعد الذى عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم
المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية ...

فما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية في الكون كله ؟ ويستطيع — بما
وهب الله له من قوة — أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده ! »

ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التى تم بها الإسراء والمعراج . كلا
الأميرين حق ، ترك ثماره في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم . فاستراح إلى حمد
الخالق ، وقل اكترائه لزم المل من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة
الدعوة ، موقناً أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب ...

ويزعم بعض الكتاب أن فريقاً من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمعراج
إنكاراً لها . بل يزيد الدكتور « هيكل » أن المسلمين تضعضعوا على أثر انتشار

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٥٧/٧ — ١٥٩) ومسلم (١/١٠٨) وابن حبان (رقم ٥٤) وغيرهم ، وله شاهد مفصل من حديث ابن عباس أخرجه أحمد (رقم ٢٨٢٠) بسند صحيح .

القصة على الأفواه ، واستبعاد المشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ ، فلا الآثار التاريخية تذلل^(١) عليه ، ولا الاستنتاج الحصيف ينتهى به ، ولا ندرى كيف يقال هذا ؟

* * *

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهجه القديم . ينذر الوحى كل من يلتقى ، ويخوض - بدعوته - الجامع ، ويفشى المواسم ، ويتبع الحجيج فى منازلهم ، ويغير قدميه إلى أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى المجاز » داعياً الناس إلى نبذ الأوثان ، والامتناع إلى هدى القرآن ، وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه . . .

وكان عمه « أبو لهب » يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب !
فيكون جواب القبائل : أسرنك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد .

ومن القبائل التى أتاها الرسول عليه الصلاة والسلام ودعاها إلى الله ، فأبى الاستجابة له « فزارة » و « غسان » و « مرة » و « حنيفة » و « سليم » و « عبس » و « بنو النضر » و « كندة » و « كلب » و « عذرة » و « الحضارمة » و « بنو عامر بن صعصعة » و « محارب بن حنيفة » . . . إلخ .

(١) برد هذا ما فى السند (رقم ٤٥٤٦) من حديث ابن عباس قال : أسرى بالتي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره إلى بيت المقدس ، وبغيرم ، فقال ناس : نحن نصدق محمداً بما يقول ؟ فارتدوا كفاراً ، فغضب الله أعناقهم مع أبى جهل . الحديث : وإسناده حسن وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١٥/٣) : « ورواه النسائى .. وإسناده صحيح » قلت : وهذا من الأدلة الكثيرة التى تبيّن أن الإسراء كان بالروح والجسد . الأمر الذى لا يملق عليه حضرة للؤلؤ كبير اهتمام !

ما وجد في هؤلاء قلباً مفتوحاً ، ولا صدرأ مشروحاً ، بل كان الراحلون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه ، ويشيرون إليه بالأصابع .

وكان الرجل يحىء من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش لا يفتنك !!!

مع ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام - في هذا الجو القابض - لم يخامر اليأس قلبه ، واستمر - منابرأ - في جهاد الدعوة ، حتى تأذن الحق - أخيراً - بالفرج

(٤)

الرجوة العامة : مقدماتها ونتائجها

حرم مشركوا مكة الخير كله . منذ جعلوا الرسالة ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ، ويبغونها عوجا .

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام فإن الحق لا بد أن يعلو ، وأن يثوب إليه المظلون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهله أوفياء له ، حراساً عليه ، صابرين محتسبين .

وقد قبض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرته ، فأنس بعد وحشة واستوطن بعد غربة . وشق طريقة في الحياة ، بعد أن زالت الجلامد الصلبة الملقاة في مجراه .

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من « يثرب » إلى مكة في موسم الحج ...



كان أهل يثرب^(١) يمتازون عن سائر العرب بموارم لليهود ، وإلفهم عقيدة التوحيد . وربما حاورهم اليهود في شئون الأديان ، ونموا عليهم عبادة الأوثان .

(١) أرى للصف يستعمل كلمة « يثرب » مكان « المدينة » أو « طيبة » ومع أن هذا الاستعمال جاهلي ففيه مخالفة لتسمية الله تعالى إياها بـ « طيبة » كما في حديث جابر بن سمرة قال : كانوا يسمون المدينة يثرب فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة . أخرجه مسلم (١٢١/٤) والطيالسي (٢٠٤/٢) واللفظ له . واللفظ مسلم : « إن الله سمي المدينة طابة » ورواه أحمد (٨٩/٥) ، ٩٤ ؛ ٩٦ ؛ ٩٧ ؛ ٩٨ ؛ ١٠١ ؛ ١٠٦ ؛ ١٠٨ (باللفظين) وفي الباب من أبي حميد عند البخاري (٧١/٤) وعن زيد بن ثابت عند مسلم : وقاطمة بنت قيس عند أحمد (٤١٢/٦) وسنده صحيح .

وهذه الأحاديث أقل ما تفهده أن هذا الاستعمال مكروه ، وأن تسميتها بـ « طابة » أو طيبة مستحب ؛ بل روى أحمد (٢٩٥/٤) عن البراء بن عازب مرفوعاً : « من سمي المدينة « يثرب » فليستغفر الله عز وجل . هي طابة هي طابة » وعزاء الهيثمي في « المجمع » —

فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً
فتنبه ، وتقتلكم معه قتل عاد .. و .. إرم ... !!

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم ،
ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما
معهم - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . »

أما العرب الأميون الذين هددوا بمبعثه ، فقد فتحو مسامعهم له !
فعندما وافى الموسم وقدمت قبائل « يثرب » ورأوا الرسول صلى الله عليه وسلم
يدعو الناس إلى الله . قال بعضهم : تعلمون والله يا قوم ، إن هذا الذي توعدهم به
يهود فلا يسبقنكم إليه ..

وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويداً رويداً ، فان لم يستقبل بترحيب
لم يستقبل بالسباب والحراب .

إن عناصر النفور والمقاومة ، التي عهد لها في « مكة » تحولت - هنا - إلى
عناصر احترام وإقبال ، ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالاسلام
حتى أصبحوا كهفه الحصين ، وموئله القريب ..

فروق بين البلدين

عاشت مكة في مجبوحة من الحياة أمداً طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً

== (٣ / ٣٠٠) لابن يعلى أيضاً وقال : « ورجاله ثقات » قلت - لكن فيه عند أحمد ،
يزيد بن أبي زبادة وهو القرشي الهاشمي الكوفي ، قال الحافظ في « التاريخ » : « ضعيف
كبير فتنبير وصار يتلفن » ولئن لم يصح هذا الحديث في الأحاديث السابقة غنية ، وهذا
الأدب قد أخل به أكثر الناس فلذلك أحبيت أن ألفت النظر إليه .

من كل مكان ، وترجع هذه التسعة إلى عاملين : ١ : - مهارة أهلها التجارية : -
 ٢ : - ومكانة الحرم الدينية ، كلا الأمرين أدر عليها أخلاف الخير ، فأنرت
 حتى بطرت وشبعت حتى أنضمت . ثم عراها مايعر و كل جماعة تواتيها الحظوظ
 ويصبغها الترف ، من تكبر ، وقسوة ، وجحود ، فلما ظهر فيها الإسلام ،
 ودعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، ردت يده في فمه ، وأحدقت به وبمن
 معه ، وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها - عاصمة للوثنية ،
 ومجماً للأصنام . ومثابة للحجيج - سيزول - إن هي استمعت إلى هذا الدين ،
 وأمكنته من البقاء .

وحاول الرسول عليه الصلاة والسلام - جاهداً - أن يقنع أهله مكة بأن قبولهم
 للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذي متعوا به ، فأبى الظالمون إلا كفوراً .

« وقالوا : إن نتبع الهدى معك تُتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم
 حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء ؟ رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »
 ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام ، اعتبروها دفاعاً عن
 كيانه المادى ووضعهم الاقتصادى ، إلى جانب ما هنا لك من عوامل أخرى .
 وهذه الحروب معروفة النتائج « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها . فتلك
 مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلا . وكنا نحن الوارثين » .

أما الأمر فى « يثرب » فكان على النقيض ، إن الشحنة المناصلة بين أهلها
 استنزفت دماءهم ، وقطعت شملهم ، وشغلت بعضهم البعض ، حتى أوصلتهم
 الحروب الدائمة إلى درك أسف له العقلاء ، وتمنوا الإنقاذ منه . كان « الأوس »
 و « الخزرج » - وهم فى الأصل قرابة واحدة - يعانون فى « يثرب » آصار
 هذا الخصام العنيف . ويورثونه أبناءهم . حتى يشبوا - وهم فى مهادم -
 أعداء والذى وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود .

صنع اليهود

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها ، هبطوا صحراء الجزيرة ، فارين
بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذي عمل - من قديم - على تنصيرهم أو إفنائهم ،
ذلك لأن رأى اليهود في عيسى وأمه ، شنيع .

والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى ، والموعزون به عليه !! .

ولا شك أن اليهود شعب نشيط . وأنهم - حيث حلوا - يمدلون جهوداً
مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يزالون بأساليب الاختل والمكر
لبلوغ أهدافهم ، وقد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد . وخشوا أن يفنوا
إذا اشتبكوا معهم في صراع سافر . فاحتلوا حتى زرعو الضغائن بين الأقرباء .
وما زالوا بها حتى آتت ثمرها المر . فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً . في سلسلة
متصلة من المعارك التي لا مبرر لها . على حين قوى اليهود وتكاثروا . ونمت
ثرواتهم ، واستحكمت حصونهم ، وخيف سطوهم .

وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة «بعث» كان
النصر فيها للخزرج ثم عاد للأوس ! وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين أن
كليهما فكر في استئصال الآخر وإبادة خضرائه ، لولا أن تدخل أولو النهى
بالنصح أن يبقوا على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب
- يعنى اليهود - !

هذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة - عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام
يؤمنون من ورائه الخير . من يدرى ؟ لعله يحدد حياتهم فيعيد السلام إلى صفوفهم
ويهب لهم حياة روحية ترجح بكفتهم على اليهود ...

قال ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإنجاز مواعده له

خرج رسول الله في الموسم ، الذي لقيه فيه النفر من الأنصار . فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم : فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم . قال : أملا تجلسون أكلهم ؟ قالوا : بلى ! فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ...

قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . وعسى أن يجمعهم الله بك ! فسنقدم عليهم فدعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أهرز منك ! ثم أنصرفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا ^(١) .

• • •

كان أولئك النفر ، طليعة الدعاية الموقفة للإسلام في يثرب . وقد أثمرت جهودهم على عجل ، فلم تبق دار إلا داخلها الإسلام .

حتى إذا استدار العام ، وأقبل موسم الحج ، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا - فيهم الستة الذين كلمهم النبي صلى الله عليه وسلم في الموسم السابق - وعزموا على الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وسلم ليوثقوا معه إسلامهم .

بيعة العقبة الأولى

وقد لقيهم النبي بالعقبة ، وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده ، والاستمسك بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها .

(١) إسناده حسن

عن عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى « أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتاناً فقتله ، بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف .

قال : فإن وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم ^(١) من ذلك شيئاً ، فأخذتم بحمدكم في الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله . إن شاء عذب ، وإن شاء غفر ^(٢) .

هذا ما كان محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد ؟
أنتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى « يثرب » . فرأى النبي أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ، ليتعهد نداء الإسلام في المدينة ، ويقرأ على أهلها القرآن ، ويفقههم في الدين ، ووقع اختياره على « مصعب بن عمير » ليكون هذا العلم الأمين .

ونجح « مصعب » أيما نجاح في نشر الاسلام وجمع الناس عليه ، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد — دائماً — في طريق كل نازح غريب ، يحاول أن ينقل الناس من موروثة ألقوها ، إلى نظام جديد ، يشمل الحاضر والمستقبل ، ويعم الإيمان والعمل ، والخلق والسلوك ...

ولا تحسبن « مصعباً » كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على المشرق . فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء ! وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح .

(١) : ارتكبتم

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري (١/٥٤-٥٨) ومسلم (٥/١٣٧) .

وربما فتح مدرسة ، ظاهرها الثقافة المجرّدة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص
ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ، ومال بهم حيث يريد .. !!

هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين .
والذين يمثلون هذه المساخر ، يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم ،
فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر
والبحر والجو .

أما مصعب فكان من ورائه نبي مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون
السائد وما كان يملك من وسائل الاغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرس ،
كل ما لديه ثروة من الكياسة والفتنة ، قبسها من محمد صلى الله عليه وسلم ،
وإخلاص لله ، جعله يضحي بمال أسرته وجاهاها في سبيل عقيدته .. ثم هذا القرآن
الذي يتأني في تلاوته ، ويتخير من روايته ، ما يغزو به الأبواب ، فإذا الأئمة ،
مريق له ، وتفتح للدين الجديد .

وعاد «مصعب» إلى رسول الله بمكة ، قبيل الموسم الحافل ، يخبره بما لقي
الإسلام من قبول حسن في « يثرب » ويشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن
اقتناع مسّ شفافهم ، وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا
الموسم ما تقر به العين .

بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا — دون شك — تاريخه القريب ،
والصعاب الهائلة التي لقيها . وحز في نفوسهم أن يستضعف أخوانهم في مكة ، وأن
يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور !!

ولذلك تساءلوا — وهم خارجون من المدينة قاصدون البيت العتيق — حتى
حتى تترك رسول الله يطوف ويطرّد في جبال مكة ويخاف ؟

لقد باع الإيمان أَوْجَهَ في هذه القلوب الفتية . وآن لها أن تنفّس عن حماسها ،
وأن تقلّ هذا الحصار الخناق المضروب حول الدعوة والداعية . . .

قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه مناصبون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم ،
فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا :
يا رسول الله ، علام نبأيك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : تبايعوني على السمع والطاعة
في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني
فتمنعوني - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ،
ولكم الجنة .

فقمنا إليه ، وأخذ بيده «أسعد بن زرارة» - وهو أصغر السبعين بعدى -
فقال : رويدا يا أهل يثرب ، فإن لم تضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه
رسول الله ، وإن إخراجهم اليوم ، مناواة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن
تعضّكم السيوف .

فإما أنتم قوم تبصرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله وإمّا أنتم قوم
تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فيمنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله !

فقالوا يا «أسعد» أمط عنا يديك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ،
فقمنا إليه رجلا رجلاً فبايعناه^(١) . . .

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢ ، ٣٣٩ ؛ ٣٩٤) والحاكم (٢/٦٢٤-٦٢٥) والبيهقي في
سننه الكبرى (٩/٩) من طريق ابن خيثم عن أبي الزبير عن جابر . قال الحاكم : صحيح
الإسناد ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ بن كثير (٣/١٦٠) من البداية : « وهذا إسناد
جيد على شرط مسلم » وقال الحافظ في « الفتح » (٧/١٧٧) « رواه أحمد بإسناد حسن
وصححه الحاكم وابن حبان » قلت : وفيه علة . وهي عن أبي الزبير وكان مدلساً وليس
هو من رواية الليث بن سعد عنه ؛ فلعن تصحيحه أو تحسينه بالنظر لشواهد والله أعلم .

وعن كعب بن مالك : نمنا تلك الليلة — ليلة العقبة — مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسلل تسلل الفطام مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا ، نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ابن عدي .

فلما اجتمعنا في الشعب تنتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أن أحب يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم قال : يا معشر الخزرج ^(١) إن محمداً منذاً حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزمة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحقو بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ! ! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده ...

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم هل أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

قال كعب : فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن — والله — أبناء الحروب ، ورثناها كابرأ عن كابر ، فاعترض هذا القول — والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبالا ، وإننا قاطعوها .

(١) . قصد أهلي يثرب جميعاً من « أوس » و « خزرج » .

فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟
قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أيها الذين آمنوا لا تمشوا في الأرض والهدم والهدم
أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتهم وأسالم من أسلمهم ..

وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا منهم اثني عشر قتيلاً
يكونون على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم النقباء ، تسعة من (الخزرج)
وثلاثة من « الأوس »^(١) ، فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام : أنتم على
قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفلة الخواريين لعيسى بن مريم - وأنا كفيل على
قومي .

تلكم بيعة الدقبة ، وما أبرم فيها من موافيق ، وما دار فيها من محاورات ..
إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة
جملت . وبدأ أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملئ العهود
كلاً ، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، وللغارم المتوقعة نظر إليها
قبل الغنائم الموهومة .

غنائم ؟ أين موضع الغنائم في هذه البيعة ؟ لقد قام الأمر كله على التجرد
الحض والبذل الخالص .

هؤلاء السبعين مثل لا انتشار للإسلام ، عن طريق الفكر الحر والافتقار
الخاص ...

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في المغازي (٢٧٣/١ - ٢٧٦) عن ابن مشام
وأحد (٤٦٠/٣ - ٤٦٢) وأبي جرير في تاريخه (٩٠/٢ - ٩٣) من طريق ابن إسحاق
قال : حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين أن أخاه عبد الله بن كعب
— وكان من أعلم الأنصار — حدثه أن أباه كعباً حدثه ، وهذا سند صحيح وصححه ابن
حبان كما في « الفتح » (٤٧٥/٧) قلت : وأما قوله في آخر القصة : « فقال لهم الرسول
أنتم ... » فأخرجه ابن إسحاق (٢٧٧/١) عن عبد الله بن أبي بكر مرسل فهو ضعيف
ورواه ابن جرير (٩٣/٢) من طريق ابن إسحاق .

فقد جاءوا من « يثرب » مؤمنين أشد الإيمان . وملبين داعي التضحية ،
مع أن معرفتهم بالنبي ، كانت لمحّة عابرة ، غبرت عليها الأيام ، وكان الظن بها
أن نزول .

لكننا لا يجوز أن نذكر مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة ، والثقة ،
إنه القرآن !! لأن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لما
فإن الوحي المشع من السماء ، أضاء لهم الطريق ، وأوضح الغاية ...
لقد نزل بمسكة قريب من نصف القرآن ، سال على السنة الحفظ وتداولته
صحائف السفرة الكرام البهرة ، والقرآن النازل بمسكة ، صور جزاء الآخرة
رأى العين .

فتوشك أن تمد يدك ، تقطف من أثمار الجنة ، ويستطيع الأعرابي المتعشق
للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم !
وحكى القرآن أخبار الأولين ، وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم
وكيف طغى الكفار ، وأسكروهم الإمهال فعتتوا وتجبروا ، ثم حل العدل
الإلهي ، فذهب الظالمون بدداً ، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ، ودوراً خربة .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم !!
ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صلة
الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب .

فالمسلم في المدينة - وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة - يحنو عليه ، ويتعصب
له ، ويفض من ظالمه ، ويقاتل دونه - وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب ،
تجيش في حناياهم مشاعر الولاء ، لمن أحببهم بالغيب في ذات الله .

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله قال : أيها الناس اسمعوا واعقلوا ،
واعلموا أن الله عبادة ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم

وقربهم من الله . فجتا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ! ، إنعتهم لنا ، حلهم لنا - - يعني صفهم لنا - فسر وجه النبي بسؤال الأعرابي وقال : هم ناس من أفتاء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابون في الله وتضافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفرعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه . والأخوة على دينه ، والناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بحوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعون به بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه ، وأرهقوا المسلمين حتى شغلواهم بأنفسهم ، فناموا نومة الجحش الذي اغترف الإثم وأمن القصاص .

حسنْتَ ظنك بالأيام إذا حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسألتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣/٥) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم عن أبي مالك ، الأشعري « وشهر » فيه ضعف ، وقال للنذري (٤٨-٤) : « رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن ، وألحاكم وقال : صحيح بالإسناد » قلت : ولم أجده في مستدرك الحاكم من حديث أبي مالك ؛ ونما أخرجه (١٧٠-٤) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنه بنحوه وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي . وهو كقائل فهذا شاهد قوي لحديث أبي مالك .

أجل ، ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية ، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .

* * *

واستمع شيطان من المشركين كان يحول في مضارب الخيام ومنازل الحبيج إلى الضجة المنبثقة قريباً من العقبة ، واستطاع أن يقف على جلية الخبر . فصرخ ينذر أهل مكة : « إن محمداً والصباء معه ، قد اجتمعوا على حربكم .. » !!
وكان صوته جهورياً يوقظ النيام .

وشعر المبايعون كأن أثمارهم بالمشركين قد انكشف ، فلم يكثرثوا للنتائج .
وقال « سعد بن عباد » : يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لثأل لثمين على أهل « منى » خدأً بأسياقتنا ، فقال رسول الله : لم تؤمر بذلك ، ولسكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال كعب : فلما أصبحنا غدت علينا جيلة قریش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم حثمتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا . وتبايعونه على حربنا ، وإنه — والله — مامن حى من العرب أبغض أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يخلفون ، ما كان من هذا شيء وما علمناه ، وصدقوا ، لم يعلموا . قال كعب : وبعضنا ينظر إلى بعض ^(١) .

(١) هو من حديث كعب بن مالك الذى سبق فى صفحة ١٥٩ وتقدم تخريجه هناك . وهناك ملاحظة وهى أن المصنف روى أول الحديث هنا بالمعنى . وهو غير متفق مع لفظ الحديث إذا تؤمل فيه بدون تأثر بأمر خارجى : ولقطة : « فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأفد صوت سمته قط ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أرب العقبة هذا ابن أرب . استمع أى عدو الله . أما والله لأفرغن لك » . فهذا السباق لا يمكن أن يفهم منه أن « الشيطان » المعروف بالام هو رجل من

يُفيد أن القرآن تجمعت على أن ما قيل حق ، فخرجت قريش تطلب الأنصار ،
فقاتوهم ، ولم يدر كوا غير سعد بن عباد .

فعادوا به مغلوله يده إلى عنقه ، وأخذوا يجذبونه من شعره ويلكزونه ،
فأنقذه منهم جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب ، إذ كان «سعد» يجر لهما قوافلها
للمارة بالمدينة .

طلّاع الهجرة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له ، وسط صحراء تنوج بالكفر والجهالة
هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له ، وقد تنادى المسلمون من كل
مكان : هلموا إلى يثرب ! فلم تسكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء ،
بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن .

وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن
يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه ، وأصبح ترك المدينة — بعد الهجرة إليها —
فكوصاً عن تكاليف الحق ، وعن نصره الله ورسوله ، فالحياة جهاديين ، لأن قيام
الدين يعتمد على إعزازها .

وفي عصرنا هذا ، أعجب اليهود بأنفسهم ، وعانق بعضهم بعضاً مهيناً ، لأنهم
استطاعوا تأسيس وطن وقوم لهم ، بعد أن عاشوا — مشردين — قروناً طوالاً

المشركين وأيضاً يبعد جداً أن يخاطب عليه الصلاة والسلام هذا الرجل بقوله :
« أي عدو الله لأمر عنك » . ويؤيد ما ذكرنا رواية الطبراني لهذه القصة عن عروة
مرسلاً فيها : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يرعكم هذا الصوت فإنه عدو
الله إبليس ؛ ليس يسمعه أحد ممن يخافون » . وقلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرح
بالتشيطان : يا ابن أرب هذا عملك فسأفرغ لك . قال الهيثمي ٤٧/٦ : « وفيه ابن لهيعة ،
وحديث حسن وفيه ضعف » .

ونحن لا ننكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن ، ولا حماس المهاجرين من كل فج لاديش به ، ومحاولة إحيائه وإعلائه .

واسكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم — أو بتعبير أدق ، ما صنع لليهود اليوم — وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم ، يوم هاجروا إلى يثرب نجاه بدعوتهم ، وإقامة لدولتهم .

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الدقة على الإسلام وأهله . فإذا العالم كله يهجم على ناسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء ، فلم يستطع مليون يربى حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئاً ، فهاموا على وجوههم في الأرض ، نتيجة اتفاق « أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا » و ... ملوك العرب على خذلان أولئك العرب النعساء . وبذلك قام الوطن القومي لليهود ، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه ، وإسداء العون له ، من دهاقين السياسة والمال ، في أنحاء الدنيا !!!

أين هذا الخفيض ، من رجال أخلصوا الله طواياهم ، وترفعت عن المآرب همهم ، وذهلوا عن المتاع المبذول والأمان المتاح . واستهنوهم المثل العليا — وحدها في عالم معج بالعم البكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التي اعتنتوها : وتبعوا أصحابها المتجرد المكافح ، وهو لا يني يقول : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » إلا إن المدينة اله ضلة التي تعشقها الفلاسفة ، وتخيلوا فيها الكمال جاءت في سطور الكتب ، دون ما صنع المهاجرون الأولون ، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى اللائكة سناء ونضارة .

إن المسلمين — بإذن رسول الله — هرعوا من مكة وغيرها إلى « يثرب » يحدوهم اليقين ، وترفع رؤوسهم الثقة .

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طاب
حقوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة .

إنها ! كراه رجل آمن في سريره ، متمد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه ،
وتضحية أمواله واللباة بشخصه فخره ، وإشعاره - وهو يصفى مركزه - بأنه
مستباح منسوب ، قد يهلك في أرائل الطريق أو تهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل
مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد
بنفسه لقي : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طوال البلاد وعرضها ، يحمل
أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير ، وضاء الوجه ؟ !

إنه الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذى له مافى
السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخر : ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصداق لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهيباء الخوار القلق ، فما يستطيع
شيثاً من ذلك إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : « وَآوُوا أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ
اقتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » .

أما الرجال الذين التفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فى مكة ، وقبسوا منه أنوار
الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر . فإنهم نفروا - خفافاً - ساعة قيل لهم : هاجروا
إلى حيث تعززون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

ونظر المشركون ، فإذا ديار ب - (مكة) كانت عامرة بأهلها قد أنفرت ، ومحال
مؤنسة قد أمحلت .

مر عتبة ، والعباس ، وأبو جهل ، على دار عمر بن ربيعة بعد ما غلقت ، فقد
هاجر رب الدار . وزوجته ، وأخوه أحمد - وكان رجلاً ضرير البصر - ونظر عتبة
إلى الدار تحقّق أبوابها ببابا ، ليس بها ساكن ! فلما رآها تصفر الريح فى جنباتها قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ، ستدر كها للنكباء والحوب

ثم قال : أصبحت الدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للعباس هذا من عمل ابن أخيك ، فرق جماعتنا ، وشدت أمرنا ، وقطع بيننا ..

وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة .

فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين ، فإذا

أبوا الاستكانة ، فإياؤهم علة للمشكلات ومصدر القلاقل .. !!

وكان من أول المهاجرين « أبوسلمة ، وزوجه ، وابنه » فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ وأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، وقالوا : لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجادبوا الغلام بينهم ، فخلعوا يده وذهبوا به وانطلق أبوسلمة وحده إلى المدينة ، فكانت أم سلمة - بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها - تخرج كل غداة بالأبطح ، تبكي حتى تمسى ، نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها . وقال : ألا تخرجون من هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحق بزوجك ، إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتها ، وهاجرت إلى المدينة ...

ولما أراد « صهيب » الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صلبوا كما حقير أ . فكثرت مالك عندنا ، وبلغت ، الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالى أنحلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! قال : فإني قد جعلت لكم مالى . فبايع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ربيع صهيب ! (٢) .

(١) حديث صحيح ، ذكره ابن هشام في « السيرة » (٢٨٩-١) مطلقاً مرسلًا . وقد وصله الحاكم (٣٩٨٣-٣) من حديث ثابت عن أنس ومن حديث أيوب عن عكرمة مرسلًا ، نحوه . وقال الحاكم . (صحيح على شرط مسلم) وهو كما قال وله شاهد من حديث صهيب نفسه ، رواه الطبراني كما في المجمع (٦٠ - ٦٠) ، والبيهقي كما في (البداية) . (٩٧٣/٣ - ١٧٩) .

وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا . حتى كادت مكة تخلو من المسلمين . وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأزر إليها ، وحصن يحمي به وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخاطيرة في دعوة محمد . وهاجت في دماغها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يزال في مكة ، وهو — لا بد — مدرك أصحابه اليوم أو غداً ، فلتعجل به قبل أن يستدير إليها ..

في دار الندوة

واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ، ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر . فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد صلى الله عليه وسلم وبشد وثاقه . ويرى به في السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت ..

ورأى آخر أن ينفي من مكة فلا يدخلها . وتنفض قريش يديها من أمره . وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما . واستقر الرأي على الاقتراح القوي أبداه « أبو جهل » . قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً ووطاً فتيكاً . ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ، ثم يضربونه — جميعاً — ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقومون على حرب قريش كافة ، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها .

ورضى المؤمنون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم : وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : « وإذ يكرهون بك الذين كفروا ليذبوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »

إن هذا الحكم لم يتخذ في مجلس سر ، بل في اجتماع عام . ومن الطبيعي أن يعلم به رسول الله ، وأن يعرف حقيقة وضعه في مكة ، إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ ، ثم يقدمه الطعام قرباناً للأصنام !!

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم .
 لقد رسم الخطة التي يذهب بها إلى « يثرب » حين ندب المسلمين للهجرة إليها
 روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله — وهو يومئذ
 بمكة — للمسلمين : « قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين
 لابتين ^(١) » (فأحر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ، ورجع ^(٢))
 إلى المدينة فهاجر من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .

هجرة الرسول

حين عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك مكة إلى المدينة ، أتى الوحي
 الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل « وقُلْ : رَبِّ اُدْخِلْني مُدْخَلَ
 صِدْقٍ واُخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ * واجْعَلْ لي من لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » ^(٣) .
 ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (١٨٦ / ٨) والحاكم (٣ / ٣ - ٤) والبيهقي (٩ / ٩) من حديث عائشة ، والبخاري (٣٥٤ / ١٢ - ٣٥٥) ومسلم (٥٢ / ٧) وابن ماجه (٤٥٥ / ٢) من حديث أبي موسى نحوه .
 (٢) بدأ رجوعهم ، وظل حتى السنة السادسة للهجرة العامة .

(٣) هو من حديث ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم
 أصر بالهجرة وأنزل عليه : قلت . فذكر الآية أخرجه الترمذي (٤ / ١٣٧) والحاكم (٣ / ٣) والبيهقي (٩ / ٩) وأحمد (رقم ١٩٤٨) من طريق قابوس بن أبي ظهان
 عن أبيه (ولبس في المسند والبيهقي . (عن أبيه) عن ابن عباس وقال الترمذي . « حديث
 حسن صحيح » . وقال الحاكم : « صحيح الاستبازة ورفقه الذهبي . وفيه نظر فإن قابوس
 بن أبي ظبيان أورد في « الميزان » ونقل عن ابن حبان أنه قال فيه : « روى
 الحفظ بنفرد عن أبيه عما لأصل له ، فربما رفع المرسل ، وأسند الموقوف ولذلك قال الحافظ
 في « التقرير » « فيه ابن » .

الذى لاقى في جنب الله مالا قى . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد لأعلى لا يعنى
التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله .

ومن ثم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل
غرض عدته ، ولم يدع في حساباته مكاناً للحفظ العمياء .

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، وأن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح
ثم يتوكل — بعد ذلك — على الله ، لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله .

فاذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه
على هزيمة بلى بها . وقلنا يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه !!

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يحىء عون أعلى
يجعل هذا النصر مضاعف الثمار .

كالسفينه التى يشق عباب الماء بها ، ربان ماهر ، فاذا التيار يساعدها وللريح
تهب إلى وجهتها . فلاتمكث غرب بعيد حتى تنتهى إلى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر .

وهجره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة جرت على هذا
القرار . فقد استبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم معه علياً وأبا بكر ، وأذن لسائر
المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فان الرسول صلى الله عليه وسلم قال له حين استأذنه ليهاجر :
لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحباً^(١) . وأحس أبو بكر كأن الرسول صلى
الله عليه وسلم يعنى نفسه بهذا الزد !

(١) رواه ابن اسحاق (٧/٢) بدون إسناد : لكن معناه فيما أخرجه البخارى
(٨٣/٧ - ١٩٧) من حديث عائشة الطويل في الهجرة بلفظ : « ونجى أبو بكر قبل المدينة »

فابتاع راحلتين فخبسهما في داره ، يلقفهما إهداداً لذلك .
وأما على فإن الرسول صلى الله عليه وسلم هياه لدور خاص ، يؤديه في هذه
المغامرة المخوفة بالأخطار !

قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، أنها
قالت . كان لا يخطيء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر ،
أحد طرفي النهار إما بكرة ، وإما عشياً ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه
رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه . أتانا رسول الله صلى
عليه وسلم بالهجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال :
ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل .
تأخر أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند رسول
الله أحد إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من
عندك ! قال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاي .

وما ذاك ؟ — فذاك أبي وأمي —

قال : إن الله أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول
الله ؟ قال : الصحبة ...

قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . أن أحداً يبكي من
الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .¹¹

ثم قال : يابني الله إن هاتين الراحلتين كنت أعدتهما لهذا فاستأجرا عبد الله

— فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك فإنني أل يؤذن لي . فقال أبو بكر :
هل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم . فخبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليصعبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر — وهو الجبط — أربعة أشهر . رواه أحمد
أيضاً له (١٩٨/٦) ثم وجدت له شاهداً من حيث ابن عمر بلفظ الكتاب رواه الطبراني
بسند قال الهيثمي (٦٢/٦) « فيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقي ، ضعفه أبو حاتم » .

ابن أريقط - وهو مشرك - (١) يدلهما على الطريق . ودفعنا إليه راحلتيهما
فكانتا عنده برعاهما لميعاده (١) ..

قال ابن إسحاق : ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج - يقصد نوى الخروج - إلا على وأبو بكر وآله . أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ..

درس في سياسة الأمور

وبلاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام كتم أسرار مسيره . فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة . ولم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم .
وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة للطاردين ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها . فإذا اكتمات في أحد ، ولو مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته .

ومع هذه المرونة في وضع الخطة فإن النبي عليه الصلاة والسلام أصر أن يدفع

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/٢ - ٣ من ابن هشام) وثبه شيخه الذي لم يسم ، لكن قد سماه ابن جرير (٢/١٠٣) في رواية عن ابن إسحاق فقال : « قال حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن عبد الرحمن التميمي قال : حدثني عروة بن الزبير به ومحمد بن عبد الرحمن هذا في عداد المجهولين : «أوردته ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل» (٣/٣١٧٢) وذكر أنه روى عن جماعة وعنه ابن إسحاق . ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . لكنه لم ينفرد بالحديث فقد أخرجه ابن جرير (٢/١٠١ - ١٠٣) من طريق هشام بن عروة به نحوه . وإسناده صحيح . وأخرجه البخاري وأحمد من طريق الزهري قال : «رواه به ، مع شيء من الاختصار .

ثمن راحلته . وأبى أن يتطوع أبو بكر به ، لأن البذل في هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغي الحرص عليه وتستبعد النيابة فيه .

واتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر على تفصيل الخروج ، وتخيروا الغار الذي يأرون إليه ، تخيروه جنوباً في اتجاه اليمن لتضليل المطاردين . وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم في أثناء اللجأ إليه ، ومهمة كل شخص .

ثم عاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته ، فوجد قريشاً بدأت تضرب الحصار حوله ، وبعثت بالفتيان الذين وكل إليهم اغتيال محمد عليه الصلاة والسلام وتفرق دمه بين القبائل ! !

وأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام إلى علي بن أبي طالب في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذي ينام فيه ، وأن يتسجى به على سرير . وفي هجعه من الليل وغفلة من الحرس ، أنزل الرسول عليه الصلاة والسلام من بيته إلى دار أبي بكر ثم خرج الرجلان من خوخه في ظهرها . . . إلى غار ثور . . . إلى الغار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ، ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والاقطاع . . !

في الغار

وسارت الأمور على ماقدرا ، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لما مايقول الناس فيهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار . وأمر عاصم بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار . فكان عبد الله بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأترون به وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر . ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم ، وكان عاصم في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غم أبي بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة ، أتبع عاصم بن فهيرة أثره بالغم ، يعني عليه .

ونلك هي الحيلة البالغة . كما تفرضها الضرورات المعتادة على أى إنسان ..

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب وراحوا يفتقبون فى جبل مكة وكهوفها ، حتى وصلوا - فى دأبهم - قريباً من غار ثور ، وأصت الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلى اقدام المطاردين ، تخفق إلى جوارهم فأخذ الروح أبا بكر ، وهمس يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو نظر أحدكم تحت قدمه لآنا » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ^(١) .

ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط الله العنور عليهما فى هذا الفج ، فترا كضوا عائدتين ، وروى أحمد ^(٢) : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل - جبل ثور - اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ففروا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت . فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسيج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال » .

ورواية أحمد حسنة ، وإن لم ترد بها السنن الصحاح ، ولم يرد كذلك ذكر الحاتم باضت على فم الغار أو غير ذلك .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٧/٧) . وسلم (١٠٩/٧) وغيرهما من حديث أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

(٢) فى للسند (رقم ٣٥١) من طريق عثمان الجزرى أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس به . وحسن المؤلف إسناده ، وكأنه تبع فيه ابن كثير فى «البداية» (١٨٨-١٨/٢) . وتبعه أيضاً الحافظ فى «الفتح» (١٨٨/٧) وفى تحسينه نظر قال عثمان الجزرى وهو ابن عمرو بن ساج قال العقيل «لا يتابع فى حديثه» ولهذا قال الحافظ ابن حجر فى «التقريب» : فيه ضعف . ولا يقربه الشاهد الذى ذكره ابن كثير ، وابن حجر من رواية الحسن البصرى فإنه - مع كونه مرسل - فيه بشار الحفاف وهو ابن موسى . وليس بثقة كما قال ابن معين ، والنسائى ، وضعفه غيرهما .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة: «إلا تنصروه فقد نصره الله، إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم».

والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى لب «وما يعلم جنود ربك إلا هو»

ومن صنع الله لنبيه أن تعى عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محابة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة، بل هو مكافأة من القدر لقوم لم يرعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها، وكمن خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتيان تمر بها فترات عصيبة لأمر فوق الإرادة أو وراء الحساب. ثم تستقر أخيراً وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى: «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

في الطريق إلى المدينة

مرت ثلاث ليال على مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام في الغار، وخدحاس المشركين في الطلب. وتأهب المهاجران لإستئناف رحلتهما الصعبة. وجاء «عبد الله بن أريقط» في مواعده ومعه رواحله قد أعلفها لإستقبال سفر بعيد. وتزود الركب ثم سار على اسم الله. غير أن قريشاً ساءها أن تحقق في استرجاع محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه فجعلت دية كل واحد منهما جائزة لمن يحيى بهما أحياء أو مواتاً.

ومائتان أومائه من الإبل في الصحراء ثروة تفرى بركوب المخاطر وتحمل المشاق

وقد قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين إن يألوا جهداً في الإساءة إليه، فالتزام في سيره جانب المحاذرة، وأعانهم مهارة الدليل على سلوك دروب لم تعتدها القوائيل، ثم أطاق الزمام للرواحل فقصت تصل النهار بالليل.

رمى بصدور العيس منخرق الصَّبَا فلم يدر خلقٌ يعدها أين يما؟
فلما مروا بجي مدلج مصعدين، بصر بهم رجل من الحى فقال: لقد رأيت آتفاً
أسودة بالساحل، ما أظنها إلا محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه فقطن إلى الأمر
سراقة بن مالك ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال: بل هم فلان وفلان
قد خرجوا لحاجة لهم... ومكث قليلاً ثم قام فدخل خبائه وقال لخادمه: اخرج
بالفرس من وراء الخباء وموعدك خلف الأكمة.

قال سراقة: فأخذت رحى وخرجت من ظهر البيت وأنا أخط بزجه الأرض،
حتى أتيت فرسى فركبتها، فعدتها فقرت بي حتى دنوت منهم فعترت بي فرسى
فخررت عنها! فقامت..

وامتطى سراقة فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول
عليه الصلاة والسلام وصاحبه، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العدو
الجسور، فلما دنا عرفه فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان ماضياً إلى
غايته -: هذا سراقة بن مالك قد رهقنا! وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة
أخرى ملقية سراقة من على ظهرها، فقام معفراً ينادى بالأمان!!

ووقع في نفس سراقة أن الرسول عليه الصلاة والسلام حق فاعتذر إليه وسأله أن
يدعو الله له وعرض عليهما الزاد والمتاع. فقالا: لا حاجة لنا، ولسكن عمّ عنا
الطلب^(١)، فقال: قد كفيتهم، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد

(١) إلى هنا أخرجه البخارى (١٩٠/٧-١٩٢) والحاكم (٦/٣-٧) من حديث
سراقة بن جهم: وبقيّة الفصة إلا السطر الأخير أخرجه مسلم (٢٣٦/٨-٢٣٧) من
حديث البراء بن عازب والسطر للذكور عند البخارى (٧/٢٠٠) من حديث أنس وراؤه
أحمد أيضاً (٣/٢١٢).

عليه الصلاة والسلام وصاحبه ! فجعل لا يلقى أحداً من الطلاب إلا رده وهو يقول :
كفيت هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهداً عليهما ، وأمسى آخره حارساً لهما ... !!

دعاء

إن أسفار الصحراء توهي العائقة الآمنين . فكيف بركب مهدر الدم
مستباح الحق ؟

ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى نارها لقد برزنا لوهج الظهيرة يوماً
فكادت الأشعة البيضاء المنعكسة على الرمال تخطف أبصارنا . فعدنا مغمضين
نستبقى من عيوننا ما خفنا ضياعه .

وعندما تصبح وتسمى وسط وهاد ونجاد لا تنتهى حتى تبدأ ، تخال العالم كله
مهامه مغبرة الأرجاء داكنه الأرض والسماء .

وجرت عادة المسافرين أن يأووا في القيلولة إلى أى ظل ، في بطاح ينتعل كل
شئ ، فيها ظله ، حتى إذا جنحت الشمس المغيب ، تحركت المطايا اللاعبة تغالب
الجفاف والكرى .

وللعرب طاقة احتمال هذا الشظف ، مع قلة الزاد والرى .

وقد سر بك أن الرسول — وهو طفل — قطع هذه الطريق ، ذهب مع
أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !

وإنه — الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثة والخمسين ، لا لزيارة أبويه اللذين ماتا
بالمدينة بل لرعاية رسالته التى تشبث بأرض يثرب جذورها ، بعد ما تبرمت مكة
بها وبصاحبها وبمن حوله ...

إنه أرسخ أهل الأرض يقينا بأن الله ناصره ومظهر دينه ، بيد أنه أسيف
لفظظة تاتى قوبل بها ، وللجحود الذى لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى

المجرة على هذا النحو العنيف ، ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجوائز المغرية لمن يقتاله ...

روى أبو نعيم ^(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله قال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً . اللهم أعنى على هول الدنيا وبواطن الدهر ومصائب الليالى والأيام . اللهم أصحبنى فى سفرى ، وأخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللى ، وعلى صالح خلقى فقوئى ، وأليك ربّ خيبتى ، وإلى الناس فلا تسكنى . رب المستضعفين وأنت ربى . أعود بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصالح عليه أمر الأوّلين والآخرين أن تحمل على غضبك ، وتنزل بى سخطك . وأعود بك من زوال نعمتك ونجاة نعمتك ، ونحول عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى خير ما استطعت . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

• • •

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة شاع فى حوائب الصحراء ، وكأن أسلاك البرق طيرته إلى أقصى البقاع . فلم به البدو والحضر على طول الطريق حتى يثرب ، بل إن المحال التى عرج بها وصل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن انصرف عنها .

والناس يعجبون بقصص البطولة ، وتستثيرهم ألوان التحدى ، وهم يتناقلون الأخبار السبالة على الألسن ، فيضفون عليها ثياب الأساطير وقد سرت قلوب

(١) عزاه إليه ابن كثير (١٨٧ /) من طريق محمد بن اسحاق قال : بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً الى الله يريد المدينة قال : فذكر الدعاة قلت : وهذا اسناد ضعيف معضل .

كثيرة بقلب محمد عليه الصلاة والسلام على من تبعوه ، وترجعت عواطفها هذه
شمرأ يتغنى به ولا يعرف قائله !! ..

من ذلك ما روى عن أسماء^(١) بنت أبي بكر قالت : مكثنا ثلاث ليال ما ندرى
أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى
بأبيات من الشعر :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيق—ين حلا خيمتي أم معبد
هم انزلا بالبر ثم تروحا .. ! فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ومعه—دها للمؤمنين بمصد . !
قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأن وجهه إلى المدينة !
من القائل ؟ تذكر الرواية أنه من الجن ! وتلك عادة العرب في نسبة شعرها
فلكل شاعر عندهم شيطان .. !^(٢)

(١) إسناده معضل : قال ابن إسحاق كما في السيرة (٢ / ٤ — ٥) : « فحدثت أسماء
بنت أبي بكر أنها قالت : .. فكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله
عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن
الناس لا يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول : فذكر الأبيات
وبعضها عن غير ابن إسحاق كما ابن هشام .

(٢) أقول : إذا جاز هذا على العرب في جاهليتها أفيجوز ذلك عليهم في اسلامهم وقد
نور الله به قلوبهم أن تتدنس بشيء من الأوهام ؟ أيجوز أن يقال في حق أسماء إنها أطلقت
اسم « الجن » بل « الشيطان » على « المؤمن » ؟ وما هي الضرورة التي تلجئ حضرة
المؤلف إلى هذه التأويلات البعيدة بل الباطلة ؟ ! ألا ترى في الرواية — كما ذكرنا — أن
الجنى كان الناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه ؟ ! أفهنا من صفات الإنسى ؟ ! خير المؤلف
أن يعرض عن ذكر هذه الرواية مطافا — ولا سيما وهي ضعيفة .

والراجح أن الآيات المذكورة من إنشاد مؤمن يكتم إيمانه بمكة ويتسمع أخبار المهاجرين فيبدي فرحته بما يلقون من توفيق ، ويجد متنفساً لمشاعره المتوارية في هذا الفناء المرسل .

والآيات تشير إلى واقعة عرضت لارسل عليه الصلاة والسلام في أثناء رحلته . فقد مر على منازل خزاعة . ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلاً ، وشرب من لبن شاتها .

الوصول إلى المدينة

وكذلك تراءت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة . فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوقون إلى مقدمه بلمهة . فإذا اشتد عليهم الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد ، وملء جوانحهم الترقب ، والقلق ، والرجاء .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم ، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعه ويودون رؤيته . فلما حيت الظهيرة وكادوا يأسون من مجيئه وينقلبون إلى بيوتهم . صعد رجل من اليهود على أطم من أطامهم ، لبعض شأنه ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يتقاذفهم السراب . وتذو بهم الرواحل

— من أن يتأولها هذا التأويل المستعكر ثم وجدت الحديث موصولاً أخرجه الحاكم (٩/٣ - ١٠) من حديث هشام ابن حبيب وقال : « صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وفيما قتلاه نظر وقال الهيثمي (٥٨/٦) : رواه الطبراني في إسناده جماعة لم أعرفهم » لكون الحديث طريقين آخوين أوردهما الحافظ ابن كثير في « البداية » (٣/١٩٢ - ١٩٤) فالحديث بهذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن والله أعلم .

رويداً رويداً إلى المدينة ، إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهودى بأعلى صوته :
يا بنى قبيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذى تنتظرون ...

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم ، وسمع التكبير برج أنحاء
المدينة ، وليست « يثرب » حلة العيد ومباهجه .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب
ابن عمير ، وابن أم مكتوم . فجاءا يقرئان الناس القرآن ، ثم جاء عمار ، وبلال .
وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه
وسلم . فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان
والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء^(١) .

يا عجباً لنقائض الحياة واحتلاف الناس ! إن الذى شهرت مكة سلاحها لتقتله ،
ولم ترجع عنه إلا مقهورة استقبلته المدينة وهى جزلانة طروب ، وتنافس
رجالها يعرضون عليه المنعة والعدة والعدد ...

ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبى بكر لأول وهلة حتى أن العواتق
كن يترأينه فوق البيوت يقرن . أيهم هو ؟ .

ونزل النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة
ليلة أسس خلالها مسجد قباء . وهو أول مسجد أسس فى الإسلام . وفيه نزل قوله
تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه
رجال يحبون أن يتطهروا » .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/٢٠٨-٢٠٩-٨٠٢/٥٦٨) . والطائى (٩٤/٢) .

استقرار المدينة

رجل العقيدة يسير طوعاً لها ، ويمجد طمأنينته حيث تقرر عقيدته وتلقى
الرحب والسعة .

والناس ينشدون معادتهم فيما تعلق به همهم وجاشت به أمانهم ، وهم ينظرون
إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء مارسب في نفوسهم من عواطف وأفكار ..
فطالب الزعامة يرضى أو ينقم ، وينشط أو يكسل . بمقدار قر به أو بعده من
أمله الحبيب .

أنظر إلى المتنبي كم مدح وهجا ؟ وكيف انتقل من الشام إلى مصر ، ومن مصر
إلى غيرها ، وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بنيته .

يقولون لى ما : ما أنت ؟ فى كل بلدة وما تبغى ؟ ما تبغى جل أن يسمى

والذى جل أن يسمى صرح به فى كل مكان آخر فطلب أن تناط به ضيعة
أو ولاية !! أى بعض ما وضعته الحظوظ فى أيدي الملوك والملاك ؛ وإنه ليتعجل
هذا الأمل من كافور فيقول :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أنا له ؟ فإنى أغنى منذ حين وتشرب !

والمتنبي فى نظرى أهل - بكفايته - للمناصب الرفيعة . ولكن التطلع إلى
الدنيا بهذه النزق والإلحاح ، محكوم بالمشيئة التى ذكرتها الآية : « من كان
يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » .

ومن الناس من يعشق الجمال ويمجى وراء النساء ويمجد فى المتعة بهن نهيمته
يسكن بعدها ويستكين . ويقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

ومنهم من يبحث عن الدال ويقضى صحابة نهاره وشطر ليله يتتبع الأرقام
في دفتاره ، يحصى ما وقع في يده ويتربص بما لم يقع . وربما ذهل عن طعامه
ولباسه في غريزة الاقتناء التي مدت عليه المنافذ .

* * *

إلى جانب هذه الأصناف نجد فريقاً آخر من البشر لا يطبق السكف عن
إسداء الجليل ، وبذل النصيحة ، ورعاية الصالح العام . وإفناء ذاته في سبيل الفضائل
التي ملكت له وعمرت قلبه ...

إنه يبيت مسهداً لو فرط في واجب ... راحته الكبرى في نشدان الكمال
وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهماً ...

وأصحاب الرسائل رهناء ما تحملوا من أمانات ضخمة ، ففناءهم ومغارمهم
وحلمهم وترحالم وصدقاتهم وخصوماتهم ترجع كلها إلى المعاني التي ارتبطوا بها .
وحيوا لأجلها ...

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ضرب من نفسه المثل القذ للمكافئين
فخذ أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألقت على العالم ليلاً كثيفاً من الشرك
والخرافة لم يفتح أحد في ثنيه عن عزمه أو تعويق مسيره أو ترضيته برغبة أو رده
برهية ، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان ، فالغريب عنه إذا عرف الحق
قريب ، ووطنه إذا تذكر للهدى فهو منه برى . والمؤمنون به آخر الدهر هم
إخوانه وإن لم يشاهدوه .

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألفها وألفقه ، لكنه اليوم يخرج
منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرمه .

والرجل الذين تتبع معادتهم من قلوبهم ويرتبطون أمام ضمايرهم بمبادئهم
لا يسكرون بيعة بعينها إلا أن تكون صدى لما يرون .
فلا غرو إذا دخل محمد صلى الله عليه وسلم المدينة دخول الوامق المعتز . .
واستبشر بما آتاه الله فيها من فتح . وتوسم من وراء هذه الهجرة بشار
الخير والنصر .

| | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| ثوى في قريش بضع عشرة حجة | يذكر لو يلقى حبيباً موافياً |
| ويعرض في أهل المواسم نفسه | فلم يرَ من يؤوى ولم يرَ واعياً |
| فلما آتانا واستقرت به النوى | وأصبح مسروراً بطيبة راضياً |
| وأصبح لا يخشى ظلاماً ظالم | بعيد ولا يخشى من الناس باغياً |
| بذلنا له الأموال من جل مالنا | وأفسنا عند الوغى والتأسيا |
| نعادى الذى عادى من الناس كلهم | جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا |
| ونعلم أن الله لا رب غيره | وأن كتاب الله أصبح هادياً |

* * *

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين القارين بدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل
المهين . وفي عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع ؟
ومضى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات ؟
وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة (يحكى) اللاريا ، فلم تمض
أيام حتى مرض بها أبو بكر ، وبلال .
واستوخم الصحابة جو المهجر الذى آواهم . ثم أخذت تسقيط غراز الحنين
إلى الوطن المفقود .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر الصحابة على احتمال الشدائد .
ويطلبهم بالمزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وقال : « لا يصبر على لأواء

المدينة وشدها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ، ولا يدعها
رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه « (١) .

وهذا ضرب مع جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر
من مغادرته .

وعن عائشة قالت . لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وعك أبو بكر
وبلال ، فدخلت عليهما فقالت : يا أبت كيف تجدك ؟ وببالل كيف تجدك ؟ وكان
أبو بكر إذا أخذه الحى يقول :

كل أمرىء مصبّح فى أهله والموت أدنى من شرك نعله .
وكان بلال إذا أفلع عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبين لبيلة بواد ، وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه بحنة وهل يبدون لى شامة وطفل ؟ (٢)

قالت : فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : اللهم حبب
إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا فى مدّها وصاعها ،
وانقل حمّاها وأجمعها بالحققة « (٣)

وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل بالمدينة ضعف
ما جعلت بمكة من البركة » (٤)

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤/ ١١٣) وأحمد (رقم ١٥٨٣) من حديث سعد
ابن أبى وقاص بتقديم الجملة الأخرى على الأولى . ورواه البزار من حديث عمر بنحو ما فى
السكران ، قال الهيثمى (٣/ ٣٠٦) ورجاله رجال الصحيح .
(٢) جبال مكة .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/ ٩٩ — ٢١٩) وأحمد (١/ ٦٥/ ٢٢١ ،
— ٢٣٩ ، ٢٣٩ — ٣٦٠) ورواه مسلم (٤/ ١١٩) مختصراً بدون الأبيات
وهو رواية لأحمد (٦/ ٥٦) ،

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى (٥/ ٧٨) ومسلم (٤/ ١١٥) وأحمد (٢/ ١٤٢)

وعن أبي هريرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بأول الثمر قال : اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدّنا وفي صاعنا ، بركة مع بركة ، اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك ، وإني عبدك ونبيك ، وإني دعائك لمسكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل مادعائك لمسكة ومثله معه » ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان ...^(١)

بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوي بين المسلمين ، وأتجهت القوى الفتية إلى البناء ، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات ، إن الهجرة الخالصة لا تعود في هبة ولا ترجع عن تضحية ولا تبكي على فائت ، بل هي كما قال الشاعر :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل .. !!

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (١١٧/٤) .

(٥)

أَسْئَلُ الْبَنَاءَ وَالْمَجْتَمَعَ الْجَدِيدَ

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس ، همها أن تعيش بأى أسلوب ، أو تحتفظ طريقها فى الحياة إلى أى وجهة ، وما دامت تجد القوت واللذة ، فقد أراحت واستراحت .

كلأ كلا ، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله ، وتوضح نظرتهم إلى الحياة ، وتنظم شئونهم فى الداخل على أنحاء خاصة ، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة .

وفرق بين امرئ يقول لك : همى فى الدنيا أن أحيأ تحسب ! وآخر يقول لك : إذ لم أحرص الشرف ، وأصن الحقوق ، وأرض الله ، وأغضب من أجله ، فلا سمعت بى قدم ، ولا طرفت لى عين . . . ؟ !

والمهاجرون إلى المدينة ، لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء .
والأنصار الذين استقبلوهم وناصروا قومهم العدا . وأهدفوا أعناقهم للقاصى والدانى ، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق . . .

إنهم — جميعاً — يريدون أن يستضيئوا بالوحى ، وأن يحصلوا على رضوان الله ، وأن يحققوا الحكمة العليا التى من أجلها خلق الناس ، وقامت الحياة . . .
وهل الإنسان إذا حجد ربه ، واتبع هواه ، إلا حيوان ذميم ، أو شيطان رجيم ؟ ؟ .

من هنا شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم — أول مستقرة — بالمدينة بوضع الدعائم التى لا بد منها لقيام رسالته . وتبين معالمها فى الشئون الآتية :

١ — صلة الأمة بالله .

٢ — صلة الأمة بعضها ببعض الآخر .

٣ — صلة الأمة بالأجانب عنها ، ممن لا يدينون دينها .

المسجد

ففي الأمر الأول مآدر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعار الإسلام التي طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ، ودمئاس الحياة الدنيا .

والمروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنى مسجده الجامع حيث بركت نافقه ، في مربرد لعلامين يكفلهما « أسعد بن زرارة » ، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله ، فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام إلا ابتياعه بثمنه ! وكان المربرد قبل أن يتخذ مصلى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا . كانت تنبت فيه نخيل وشجر غرقد ، وتختفي في ترابه بعض قبور للمشركين .

فأمر الرسول بالنخل فقطع ، وبالقبور ^(١) فنبشت ! ؟ وبالحرب فسويت . وصفوا للنخيل قبلة للمسجد ^(٢) — والقبلة يومئذ بيت المقدس — وجعل طوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك تقريباً ، وجعلت عضاداته من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى بالبنين ، واشترك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم .

وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء .. بهذا الفناء

الاهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ! !

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي عليه الصلاة والسلام يجهد

(١) هي أحداث أتى عليها البلى « حتى هجرت » فلا يدفن بها أحد .

(٢) ثبت هذا في « الصحيحين » وغيرهما من حديث أنس .

كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم ، فارتجز بعضهم هذا البيت :

نحن قعدنا والرسول يعمل لذلك منا العمل المضلل !!

وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء . وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد نقلت الكلاب إليه فتغدو وتروح .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذى ربي ملائكة البشر ، ومؤدبى الجبابرة وملوك الدار الآخرة ، فى هذا المسجد أذن للرحمن لنبي يؤم بالقرآن خير من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى ، تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعالم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بقرىضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليدهى لباب الإسلام ، سكن الناس - لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة - استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة ، تضم مصليين أقراماً !! .

أما الأسلاف السكبار فقد أنصرفوا عن زخرفة المساجد وتشبيدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها ، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام . . .

والمسجد الذى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم همته إلى بنائه قبل أى عمل آخر بالمدينة ، ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها ؛ فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد فى عبادته بمكان .

إنما هو رمز لما يكثر له الإسلام أعظم اكتراث ، ويتشبث به أشد تشبث وهو وصل العباد برهم وصلًا يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل والنهار فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر ! .

والحضارة التي جاء بها الإسلام . تذكر أبدأ بالله وبلقائه وتمسك بالمعروف ،
وتبغض في المنكر ، وتقف على حدود الله . . .

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحشد مع صحبه في
إقامة المسجد ، يمهده للصلاة ؛ فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكا يغمز ؟؟

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف ^(١) قال : كانت أول خطبة خطبها
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله
ثم قال : « أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ،
ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه — ليس له ترجان ولا حاجب
يحجبه دونه — ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ وآيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما
قدمت لنفسك ؟ فينظر ؛ يمنا وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير
جهنم ، فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد
فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام
عليكم وعلى رسول الله ... !!!

الاخوة

أما عن الأمر الثاني — وهو صلة الأمة بعضها ببعض الآخر — فقد أقامه
الرسول صلى الله عليه وسلم على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تمجى فيه كلمة

(١) هذا ؛ خطأ ؛ وإنما رواه البيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :
فذكره . هكذا أورده الحافظ ابن كثير في « البداية » (٢١٤ / ٣) ثم أعلاه بالإرسال
وقد روى ابن جرير (١١٥ / ٢ - ١١٥٥) بسند صحيح عن سعد بن عبد الرحمن الجعفي
أنه أبلغه عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول جمعة صلاها بالمدينة فذكرها
وهي منابر كل القارية لخطبة أبي سلمة ؛ وهي ضعيفة أيضاً لأنها معضلة ؛ الجعفي هذا يروى
عن أتباع التابعين مثل هشام بن عروة ؛ وغيره .

« أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصالحها وآمالها ، فلا يرى لنفسه شيئاً دونها ، ولا امتداداً إلا فيها ...

ومعنى هذا الإخاء ، أن تذوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام .
وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً . لا نقضاً فارغاً ،
وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا نعمة تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ... !!
وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتتمثل
المجتمع الجديد بأروع الأمثال ...

حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، فما نزل مهاجرى على
أنصارى إلا بقرعة !! وقدر المهاجرون هذا للبذل الخالص فما استغلوه ، ولا نالوا
منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف .

روى البخارى : أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين
عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع : فقال سعد لعبد الرحمن . إني أكثر
الأنصار مالا ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك ! فسمهالى
أطلقها ، فإذا انتقضت عدتها فتزوجها ، قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك
ومالك ، أين سوقكم ؟ ؟

فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ! ثم
تابع الغدو .. ثم جاء يوماً ، وبه أثر صفرة^(١) ، فقال النبی صلى الله عليه وسلم :
« مهيم^(٢) » ؟ قال : تزوجت !

قال : « كم سقت إليها » قال : نواة من ذهب !

وإعجاب المرء بسماحة « سعد » لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن ، هذا الذي زاحم اليهود في سوقهم ، وزهم في ميدانهم ، واستطاع - بعد أيام - أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، إن علو المهمة من خلائق الإيمان ؛ وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه ، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق في هذا العالم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة . لم يتميز عنهم بقلب إعظام خاص ، وفي الحديث : « لو كنت متخذاً من أمي خليلاً لاتخذته - يعني أبا بكر - خليلاً - ولكن إخوة الإسلام أفضل » (١)

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجنون والبخل والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جيلوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التأخي الوثيق في ذات الله .

فسمو الغاية التي التقوا عليها ، وجلال الأسوة التي قادتهم إليها ، نغماً فيهم خلال الفضل والشرف ، ولم يدعوا مكاناً لنجوم خلة رديئة .

ذلك ، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً ، تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أعجاب ومواهب وخيرات ؛ فكان صورة لأعلى قمة من السكال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلسكه ، رجالاً يهيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبيع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراج بالآلات والانتقال

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (١٤/٧) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ .
(١٣ - فقه السيرة)

والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم ، وإنما هي أثر تخاص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعف .

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا - بالاسلام - في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخوانا . ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض !!

على أن تنويعنا بقيمة التسامي النفساني في تأسيس الإخاء ، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً ، فإذا لم يؤدوها طواعياً أدونها كرهاً وذلك كما يجبرون على العلم ، والجنديّة ، وأداء الضرائب ، وغير ذلك .

* * *

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة « بدر » حتى نزل قوله تعالى : « وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » فألغى التوارث بمقد الأخوة ، ورجع إلى ذوى الرحم . وروى البخارى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ... »

قال : كان المهاجرون - لما قدموا المدينة - يرت المهاجري الانصارى دون ذوى رحمه ، للأخوة التي آخى النبي عليه الصلاة والسلام بينهم . فلما نزلت : « ولكل جعلنا موالى ... » نسخت ثم قال « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ، ويوصى له .

* * *

روى في تفصيل هذا الإخاء أن النبي صلى الله عليه وسلم تأخى مع علي وتأخى حمزة مع زيد ، وأبو بكر مع خارجة ، وعمر مع عتب بن مالك .. الخ ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول عليه الصلاة والسلام مع علي .

ولكن ماصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عليا منه بمنزلة هارون من موسى يؤيد هذه الرواية^(١) : وليس يחדش هذا من منزلة أبي بكر ولا استحقاقه الصدارة .

• • •

غير المسلمين

أما الأمر الثالث ، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها ، الذين لا يدينون بدينها ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتمعصب والتعالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر ، وأن المسمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط هو رجل مخطيء بل متجاهل جريء .

(١) قلت : كلا ، لا تأييد ، فإن الأخوة المذكورة أخص من تلك للزلة ، ولا يثبت الأخص بالأعم ، فلا يدمن إثبات الأخوة بنص خاص . وقد تنبعت الأحاديث الواردة فيها فوجدتها لا تخلو من كذاب ، ومن أشهرها ما أخرجه الترمذي (٣٢٨/٤) والحاكم (١٤٢) من طريق حكيم بن جبير عن جميع بن عمير عن أبي عمر قال أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه بخاء على تدع عينا فقال : يا رسول الله أخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد ؟ فقال رسول الله : أنت أخى في الدنيا والآخرة . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » وفتح الشارح للبار كפורى بقرله : « حكيم بن جبير ضعيف مرهى بالتشيع » قلت : ذهل هو الترمذي عن علته الحقيقية وهي « جميع بن عمير » هذا . قال الذهبي في اللباز : « قال ابن حبان . رافضى يضع الحديث وقال إن عميرا كان من أكاذيب الناس » ثم ساق له الذهبي هذا الحديث ، وقدرناه أيضا سالم بن أبي حنيفة الكاهلي أخرجه الحاكم متابعه للحكيم ابن جبير ، فتعقبه الذهبي في « التخليص » بقوله : « قلت : جميع انهم ، والكاهلي هالك ، قلت : كذبه ابن أبي شيبة وموسى بن هارن . وقال الدارقطني : هو في عداد من يضع الحديث » ومن شاء الاطلاع على بقية الأحاديث وعليها فليراجع « المجموع » (١١١/٩) واللالى للصنوعة (١٩٩ ، ١٩٤ ، ٢٠١) .

عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وجد بها يهوداً توطنوا
ومشركين مستقرين .

فلم يتجه فسكره إلى رسم سياسة للابعاد أو المصادرة والخصام ، بل قبل —
عن طيب خاطر — وجود اليهود والوثنية ، وعرض على الفريقين أن يعاھدھم معاھدة
النند للند ، على أن لهم دينهم وله دينه .

ونحن نقطف فقرات من نصوص المعاھدة التي أبرمها مع اليهود ، دليل على
إتجاه الإسلام في هذا الشأن .

جاء في هذه المعاھدة ، أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم
وجاھد معهم أمة واحدة .

وأن المؤمنين المتقين على من بنى منهم أو ابتغى دسيسة ^(١) ظلم ، أو إثم ، أو
عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم
وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ..

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر . أن ينصر
محدثاً ^(٢) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ،
ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأن اليهود بنفقون مع المؤمنين مادامو محاربين .

وأن يهود بنى عوف أمة من المؤمنين .

لل يهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن ليهود بنى النجار والحارث وساعدة وبنى جشم وبنى الأوس النخ .
مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب
أهل هذه الصحيفة .

وأن بينهم النصيح والنصيحة والبر ، دون الإثم .
وأنه لم يأتهم امرؤ بمخلفه ، وأن النصر المظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار
حولا آثم .

وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ...
وأن بينهم النصر على من دم يثرب .
وأن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم . وأثم ...
وأن الله جار لمن برواقي^(١) .. » .

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر
السكينة في ربوعها ، والضرب على أيدي العابدين ومدبري الفتن أيا كان دينهم .
وقد نصّت — بوضوح — على أن حرية الدين مكفولة .

فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف . بل تكاثرت
العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم ، وحماية الجار ، ورعاية الحقوق الخاصة
والعامة ، واستنزل تأييد الله على أبر مافيا وأتقاء ، كما استنزل غضبه على من
يخون ويفش ..

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو . وأقرت حرية
الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها .
ويلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة أشار إلى العدواة
القائمة بين المسلمين ومشركي مكة وأعلن رفضه الخاسم لمواالاتهم وجرم إساءة أي
عون لم وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا يزال جرووحهم تقطر دما لبني
قريش وأحلافها عليهم ؟

أكان لليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد .

(١) روى هذه الوثيقة ابن إسحاق (١٦/٢ — ١٨) بدون إسناد .

أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا إنفاذه .
وآفة اليهود أن يرتبط الوفاء بهامدى المنفعة المرجوة منها . فإذا بدا أن المعاهدة
المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاة ، قلّ التمسك بها والتمسّت الفرص للتحلل منها .
وقد كان اليهود يبنون عظمتهم للاديه والسياسية على تفرق العرب ، قبائل
متناحرة ، فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى وتنابت
الأيام تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من الغرب أمة واحدة . . استشعر اليهود
القلق وساورتهم الموم ، وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه .
ثم إن اليهود في المدينة يكوّنون البيئة التي تتوافر فيها سوائم الثندين المصنوع .
والاحتراف للسمج بمبادئ السماء وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والتناق والتسك
بالقشور والولع بالجدل . ومن وراء ذلك قلوب خربة ، ونفوس معوجة .
وربما افتبسوا من جوارهم للعرب بعض فضائل الصحراء ، كالكرزم والشجاعة
بيد أن انطواءهم العنصرى غلب على سيرتهم . فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم
كما تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة ...

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام . فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطاء
من الوثنيين في مخاصمته . فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى توحيد الله ، وإصلاح
العمل ، والاستعداد لحياة أرقى في الدار الآخرة والدين الذي جاء به ، وقرموسى ، وأعلى
شأنه . ونوه بكتابه . وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه ، وبازموا حدوده .

لكن اليهود صموا - أولاً - صمت المستريب . ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود وال
وهذا الترحيب للمتوقع تلمح دلالة في كثير من الآيات فإن عبدة الأصنام . إذا
أنكروا النبوة ، فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها « ويقول الذين كفروا .
لست مرسلًا . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب »
وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله . فأهل الكتاب أحق بأن يحشعوا إذا

وجدوا من يذكركم به » ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون * الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون .

غير أنك تدهش ، إذا تجد المرأة على الله ، والنفور من أحكامه ، ووصفه بما لا يليق . شائعة بين اليهود ، شيوعها بين المشركين !

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولداً ، بشراً أو حجراً ، فماذا ترى حين يهصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟

« وقالت اليهود : يدُ الله مفلولة » غلت أيديهم ! ولعنوا بما قالوا .. »

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » منكذب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . »

○ ○ ○

على أن الإسلام يدع أولئك الجحدة في ضالهم ، فلا يستأصل كفرهم بالسيف ، ويكتفى بأن يعان دعوته ، ويكشف حقيقته ، ويملا الجو بآياته ومعالمه .

فن استراح إليها فدخل فيها ، فيها ونعمت وإلا فهو وشأنه . ولا يطالب به الإسلام بشيء إلا الأدب والمسالمة ، وترك الحق يسير ، من خير عائق أو تكبير .

ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فمد يده إلى اليهود مصالحةً ، وتحمل الأذى مسامحةً ، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه ، إستدار إليهم ، وجرت بينهم من الوقائع ، ما منقص أخباره في موضعه

○ ○ ○

بتقوى الله والاخلاص له ، دُعمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد .

وبالإخاء الحق ، تماسك بنيانه وتوثقت أركانه ...

وبالعدل والمساواة ، والتعاون ، رُسِمت سياسة الأجانب ، وهو مل اتباع

الأديان الأخرى .

ومن ثم استقرت الأوضاع . ووجد المسلمون متسعاً لتجديد قواهم وترتيب شئونهم

المصطفون الأخيار

إن المؤمنين الذين أحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتبع لهم مالم يتبع لغيرهم من منابع الصفاء ، ووسائل الارتقاء .

إن مشاعرك ترقُّ عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة ، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات اللثيرة بصيغهم جوف القصة المفتعلة ، فيضحكون ، ويبكون ، ويهدأون ويضجون .. فما ظنك بقوم يتبعون رجلاً تسكلمه السماء ، ويتفجر من جوانبه السكال ، ويسكب على من حوله آيات للطهر ؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير ، دفع بها إلى الأمام ، وإذا علقت بمسالكهم شهوة ، نقاها فرد عليها سناءها . إن للأعطاء إشعاعاً يغمر البيئة التي يظهر فيها ، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه ، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز ، فتنتطوى في مجاله . وتمشي في آثاره !!

وقد التفت بحمد صلى الله عليه وسلم فريق من الربانيين الأتقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين ، فزكت - بصحبته - نفوسهم ، وشفط طباعهم ، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .

ولا تحسبن العقل الجبار - مهما أوتي من نفاذ - يستطيع إدراك السكال بقوته الخاصة . فإذا لم تسدده عناية عليا . فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر بغاية أوهيمتهدى طريقاً ؛ كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتسكأثر أمام عينه للضباب إنه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ، ويرسل أنوار مصابيح في أحشاء النجوم المتراكمة . فإذا لم يتلقى إرشاداً يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط .. فإنه سيمظل يحلق عبثاً .. ثم تهوى به الريح في مكان سحيق .

وكم من فلاسفة عاجوا شئون السكون والحياة . فمنهم من ضل عن الحق على

طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط ! ومنهم من استغرق في الوصول إليه أحواما طوالا .
ولومشى وراء الرسل لانهى إليه في أيام قصار ، وهو في مأمن من الشرود والعتار !
نم إن الإنسان ليس عقلا فحسب ، إنه — قبل ذلك — قلب ينبغى أن يسلم
من الأهواء والآثام ، وأن ينبجو من الشقاوة والظلام ، وأن يكون في حنايا صاحبه
قوة تسوق إلى الخير والحب ، وحاديا يهفو إلى الجمال والرحمة ..

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية .
وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ في طريقهم وأول أولئك قاطبة .
من محبوبهم في حياتهم ، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم ..

قال عبدالله بن مسعود : « من كان مستنفا فليستن بمن مات فإن الحى لا تؤمن
عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام . كانوا أفضل هذه الأمة ،
أبرها قلوبا وأعماقها علما وأفلاها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه .
فأعزفوا لهم فضلهم ؛ واتبعوهم على أنزهم ؛ وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ،
فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .. »

ولاشك أن أصحاب محمد يرجعون أصحاب موسى وعيسى .
فإن تاريخهم في الإيمان والجهاد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاف كاملة مضبوطة ،
غير منقوصة ، ولا محرفة ، لا يشبه أى تاريخ آخر ..

ونحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان ، وكيف شرع ؟ فإن
ميلاد هذه الشميرة العظيمة ، يحمل معه آيات بينه عن عظمة النفوس إذا صفت
ففضحت بالحق ، وسكن إليها الإلهام ...

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، إنما

يجتمع الناس إليه للصلاة لحين موافقتها بغير دعوة . فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل بوفاء كبقو يهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به المسلمين للصلاة . فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بنى الحارث النداء ، فأتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قال : قلت ندعو به إلى الصلاة .. قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت ماهو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . فلما أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ! فقم مع بلال فآلقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك . فلما أذن بها بلال سمعه عمر وهو فى بيته فخرج إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يحمر رداءه يقول : يابى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ! ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فله الحمد ^(١) . وفى رواية :

(١) حديث أخرجه ابن إسحاق فى « المنازى » (١٩/٢ — ٢٠) : حدثنى محمد ابن إبراهيم الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد عبيد ربه عن أبيه وهذا سند حسن ، وقد أخرجه أبو داود والدارى وابن ماجه والدارقطنى والبيهقى وأحمد كلهم من طريق ابن إسحاق به وأخرجه الترمذى مختصراً . وقال : « حديث حسن صحيح . وصححه جماعة من الأئمة ذكرتهم فى كتبى » صحيح سنن أبى داود « (رقم ٥١٢) وله شاهد مختصر من رواية أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار أخرجه أبو داود (رقم ٥١١ من صحيح أبى داود — ولم يطبع) وأخرجه البيهقى (٣٩٩/١ — ٤٠٠) .

فأمر رسول الله بلالا فأذن به^(١) . قال الزهري : وزاد بلال في نداء الصلاة الغداة : الصلاة خير من النوم مرتين . فأقرأها رسول الله^(٢) .

وفي رواية أخرى رأى عمر في المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بما رأى وقد جاء النبي عليه الصلاة والسلام الوحي بذلك .

فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال رسول الله حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحي^(٣) .

وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد . .

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين ، ترفع الآذان ، وتوقظ القلوب وتصيح بالناس : هلموا إلى الله .. وعاشا في رؤيا صالحة ذهن نيرة ، فأسرع بها إلى

(١) لا حاجة لهذه الرواية فإن معناها في التي قبلها .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١ / ٤١ هـ) عن الزهري بسند ضعيف . ورواه بنحوه أحمد (٤ / ٤٣) من قول سعيد بن السيب وفي سنده انقطاع ، لكن معنى الحديث صحيح فإن له شواهد كثيرة أوردت بعضها في « الثمر المستطاب » ، في فقه السنة والكتاب منها عن أنس قال : كان التنويب في صلاة الغداة إذا قال للمؤذن حي الفلاح قال : « الصلاة خير من النوم » مرتين أخرجه الدارقطني والطحاوي والبيهقي (١ / ٢٢ هـ) وقال : « إسناده صحيح » (تنبيه) لا يخفى على الفقيه أن بلالا كان يؤذن الأول للفجر ، فإذا ضمنتاهذا إلى ما تقدم ينتج منه أن السنة أن يقال : « الصلاة خير من النوم » في الأذان الأول لا الثاني ، وهذا ما جاء به النص فقال ابن عمر : كان في الأذان الأول بعد الفلاح ؛ « الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم » أخرجه الطحاوي (١ / ٨٢) وغيره بسند حسن كما قال الحافظ في « التلخيص » (٣ / ١٦٩) . وفي الباب عن أبي مخزومة .

(٣) ذكر « ابن هشام » (٢ / ٢٠) فقال : وذكر ابن جريج قال لي عطاء : سمعت عبيد بن عمير الليثي ؛ فذكره . وهذا - مع انقطاعه - مرسل .

رسول الله ، يرويه كما أقيمت في روعه ، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة ..

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقة الحق ، وهو أمانة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم ، وتوجه إليه على البديهة وبعد التروى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً ، يقرؤه عليهم ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المدارس إشعاراً بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر !!

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على القرآن !! فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ! قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ! قال : فقرأت له سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال حسبك الآن ، فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان ^(١) ..

زاد في رواية « شهيداً ما كنت فيهم .. »

وإذا كان الاهتداء إلى ألفاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفاة ، مشغوفة بالعبادة ، مشغولة بالحق ، فإن من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كذلك ، من اندمجوا في معاني الإيمان ، وخلصوا لمعين الرسالة حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنويهاً بمكانهم عند الله ورسوخهم في آياته .

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢/٧٧ ، ٧٠) ومسلم (١٩٦/٣) والرواية له ونصها « عن ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم : شهيداً عليهم مادمت فيهم أو ما كنت فيهم » (شك مسعر الراوى) .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله لأبي بن كعب : « إن الله أسرنى أن أقرأ عليك » لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين .. » ، قال أبى : وسمانى ؟ قال : نعم ، وفى رواية « الله سمانى لك ؟ قال : نعم . قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم قال : فذرفت عيناه .. » (١) .

• • •

معنى العبادة

وسر الارتقاء الروحى والجماعى الذى أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح ، فلم يشعروا فى الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنت وتكلف ، ولا يعانون من شرود وحيرة . !

هناك طبيعتان فى الإنسان غير منكورتين ، الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل . فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجيباً أو صورة رائعة أو مقالا بليغاً فإنك لا تنتهى من تبئين حسنه حتى تنطوى جوارحك على الإعجاب بصاحبه ، فإن التدكاه العميق والافتقار البارز يجعلانك تنحى من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذى التقدير . !

وكذلك عندما يسدى إليك معروف أو تمتد يدٌ إليك بنعمة إنك تذكر هذا

(١) أخرجه البخارى (٨/٩٠١٠٠ - ٥٨٩ - ٥٩٠) والرواية الأخرى له ولمسلم (٢/١٩٥) وأحمد (٣/١٣٠ ، ١٨٥ ، ٧١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٨٤ ، ٢٧٣) وعنده الرواية الأخرى . ورواه الترمذى (٤/٣٦٨) والحاكم (٣/٢٠٤) وصححه وأحمد (٥/١٢٢ - ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٨٢) من حديث «أبى» نفسه ؛ وأحمد أيضاً (٣/٤٨٩) من حديث أبى حبه البدرى .

الصنيع لمن تطوع به ، وعلى قدر ضخامة ما نلت من خير ، يلهج لسانك بالشناء ويمتلي
فؤادك بالحمد ، كما قال الشاعر :

أفادتكم السماء منى ثلاثة يدي ، ولساني ، والضمير المحجّب !!

ورسول الإسلام جاء يثير هاتين الطبيعتين نحو أحق شيء بهما ، أأنت
تعجب بالعظمة وتحنق بصاحبها ! أأنت تقدر النعمة وتشكر مسديها !

إنك ترمق ، بإجلال ، مخترع الطيارة ، وكلما رأيته تشق الفضاء زدت إشادة
بعبقريته ! فما رأيك فيمن يدفع الألوف المؤلفة من الكواكب تطير في جو السماء
من غير توقف ولا عوج ؟ وما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع ، وأودع في
تلايف مخ الذكاء الذي وصل به إلى مراعك واستنار إعجابك ؟

أليس ربك ورب كل شيء أحق بأن تعرف عظمته وتفتح عبوك على آثار
قدرته ... ؟

فإذا عرفت عظمته من عظمة الوجود الذي يحيط بك خجلت من التهجم عليه
ونسبة ما لا يليق إليه !! وقلت مع العارفين « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه
حقنا عذاب النار » .

إنك لو امتضافك شخص كريم ورأيت البشاشة في وجهه والسماحة في قراه
حفظت له — ماحييت — هذه المنة ، وسعيت جهدك كي تكافئه عليها ، وحدث
من تعرف بسجايها هذا المضيف الكريم ، فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من
المهد إلى اللحد ؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه . ولا تنكس إلا من ستره ، ولا تأوى
إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإيقاده ... !!

إن محمداً صلى الله عليه وسلم وصل الناس برهم على ومضات لطف من تقدير
العظمة ورعاية النعمة ، فهم إذا انبعثوا اطاعته كانوا مدفوعين لأداء هذه الطاعات
بأشواق من نفوسهم ورغبات كامنة نجيش بتوقير العظيم وحمد النعم ...

والعبادة ليست طاعة القمر والسخط ، ولكنها طاعة الرضا والحب .
والعبادة ليست طاعة الجهل والغفلة ، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة !
قد تصدر الحكومة أمراً بتسكير البضائع فيقبل التجار كارهين ، أو أمراً
بخفض الرواتب فيقبل الموظفون ساخطين .
وقد تشير إلى السيمة العجاء فتفقد إليك لا تدرى إلى سرعتها تسير أم إلى
مصرعها .

تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التي شرع الله للناس فالعبادة
التي أجزاها الله على الألسنة في الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين » والتي
جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء في قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا
ليعبدون » تعني الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة ، أي الناشئ عن الإعجاب بالعملة
والعرفان للجميل ..

وقد اطردت آيات القرآن تبنى سلوك المؤمنين على هذه العمدة الراسية .
فهى — إذ تعرف الناس بالله — تريهم صحائف مشرقة من خلقه البديع ،
وفضله الجزيل ، تمزق ما نسجته الغفلة على الأعين من جهالة وجحود .
« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج
به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجروا فى البحر بأمره وسخر
لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل
والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن
الإنسان لظلم كفاً »

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط السكاوية ، إنما
تولد الإجابة ويبلغ الشئ درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا .
فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد ، وهب له نفسه وحده ، وعاش يحلم به
فى منامه وينشط له فى يقظته ، وذلك يرقى به صعوداً فى فهم مبدئه وإجادة خدمته .

ومن ثم فإن الإسلام لا يخفل بالإيمان النظري البحت ولا يقبله إلا ليكون مسلماً إلى ما بعده ، وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً .

لا بد من تلوين الوجدان في قضايا الإيمان ، ليس بمسلم من يعرف الله ويكرهه ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت ، فلا إعجاب فيه ولا شكران . كما أنه لا غمط فيه ولا جحود .

والمسلم كل المسلم هو الذى يعرف الله معرفة اليقين ، ويضم إلى هذه المعرفة إحساساً يعترف بمجادة المجيد ونعماء المنعم ، تباركت أسماؤه !

والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المنتج ، وهو صانع العجائب ، وبهانى الدول ، ومقيم الحضارات السنية هو الذى يجعل الفرد يستحلى التكاليف المتوقعة بعنفه ، فيقبل على أدائها ، وكأنها رغبات نفس ، لا واجبات دين . .

أتظن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قام يصلى حتى تورمت أقدامه كان يغالب الألم الناح في بدنه كما يغالبه التلميذ المذنب ، عندما يوقف الساعات الطوال معذباً مهاناً ؟

كلا . . كلا . . إن استعذابه للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهلاه عما به ، وغلبا على بواذر الألم الناشئ من طول الوقوف . .

والرجل الموفور الحماس ، الفائر العاطفة ، قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عمله ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردين .

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجز ، أترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يتعرف أحوال المشركين في غزوة الخندق ، في ليلة باردة ، قارصة الجو ، لافحة السبرات :

لا ينبغ السكب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا !
لقد انطلق وهو يقول عن نفسه : كأنما أسير في حمام . .

هذه حرارة الإيمان غمرت — بدنهما — الرجل ، وجعلته ينفذ في كبد الليل البارد وكأنه منهم مسدد .

هذا الإيمان المرتكز على العواطف المتقدمة ، هو الذى أشعل المعارك الطاحنة ، وقاد إلى النصر المظفر ، وهو الذى هدم ما تركز قروناً طويلة ، من سلطان الظلم والبغي ، بعد ما ظن أنه لن يطيح أبداً .

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان فى العقل والعاطفة معاً ، يغزو شجرته الباسقة مزبد من معرفة الله ، والشعور بعظمته ونعمته .

ذلكم أسلوب القرآن فى تعريف الناس بالله . إنه أسلوب يقيمهم على عبودية الحب والتفانى ، لا على عبودية التحقير والموان ، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان ، لا للعبودية المهمة التى تصدر الإرادة وترى بالإنسان .

« قل : الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى . الله خيرٌ مما يشركون ؟ أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قومٌ يَعْدِلُونَ ! »

« أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ .. إله مع الله ؟ ! بل أكثرهم لا يعلمون ! . »

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ إله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون . »

« أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته ؟ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . »

« أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض . إله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . »

إن هذا التساؤل المتواصل السريع ، يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان الذكي ، ويجعلها نهزع إلى الله متجردة ، تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال الكبار من عبث الصبية .

وآيات النظر والتفكير . بدور — أغلبها — على هذا المحور الثابت .

وربما احتاجت النفس — في ساعات غرورها — إلى لون من أدب القمع والتوعد بكبح جماحها ، وهذا لا يتناقى — البتة — مع الأصل الذي قرناه آنفاً ، فإن قسوة الأب مع ولده — حيناً — لا تغير من طبيعة الحنان فيه .

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان — بعرض آثار القدرة العليا عليه — قد يردف ذلك بوخزات توقظ الإحساس الخدر ، ليلتفت ويعقل ، لا لينكمش ويخبئ .

قال الله تبارك وتعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ فُتْرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَبْصَارِ » .

ويقول بعد ذلك : « أَفَنُ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »

• • •

وقد سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم المنهج نفسه في غرس الإيمان ورعاية ثماره .

وكانت سيرته في لا قبل على الله درساً حياً ، يعم الأئمة بإجلال الله وإعظامه والمساورة إلى طاعته . والنفور من عصيانه .

وكانت القلوب تنفتح على هدى الله ورسوله ، فما تسمع بعده شيئاً .

عن جبير بن مطعم سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ في المغرب بالطور
فلما بلغ الآية « أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات
والأرض ؟ بل لا يوقنون ! . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ »
كاد قلبي أن يطير ... ١١ (١).

ومد الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب ، تجمل الرجل ينبض
باليقين والإخلاص ، هو من صميم السنة . وهو مهاد الخلال الفاضلة التي صادت
المسلمين وأعلنت شأنهم ، وهو معنى الحديث المشهور « ثلاث من كن فيه وجد
بهن طعم الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن أحب عبداً
لا يحبه إلا الله . ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن
يلقى في النار .. (٢) »

ومن ذلك أيضاً أن يتغافل الإيمان بالرسالة والمغالة بصاحبها إلى حد ينسى
الإنسان معه نفسه فهو - عن حب واندفاع ، لاعتن تكليف ورهبة - يفدى
الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس .

عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام وهو آخذ بيد
عمر فقال عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي ! فقال
الرسول صلى الله عليه وسلم . لا - والذي نفسي بيده - حتى أكون أحب
إليك من نفسك ، فقال عمر : فإنه الآن لأنت أحب إلي من نفسي ! فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر (٣) .. ، أي الآن فقط تم إيمانك .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٨٤٩/٩) من حديث جبير بن مطعم ،
(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري (٥١/١ - ٥٢) ومسلم (٤٨/١) وغيرهما
من حديث أنس .
(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤١٥/١١) وأحمد (٢٣٣/٤) من حديث
عبد الله ابن هشام .

وهذا الحديث يحتاج إلى إيضاح . إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفة .
وقد أحترم الناس خاق الوفاء في السموات ، لما ترك ابنه يذبح ، مؤثراً أنه
تسلم ذمته ، ويرد إلى من إثمته وديعته .

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه ، فقد أدى واجبه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يطلب من الناس أن يقدموا فيه صووة اللحم والدم .
ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليوتوا كي يحيا أو يهونوا كي يعظم ، أو ليفقدوا
أعجده الخاصة بأرواحهم وأموالهم ، أو ليتأله فوقهم ، كما تأله فرعون وأمثاله .
من الجبابرة .

كلا كلا ، فمحمد يريد من المؤمنين أن يقدموا فيه معنى الرسالة وأن يقتدوا
فيه مثلها العالية ، وأن يصونوا — في شخصه — معالم الحق للنزل ومآثر الرحمة العامة .
إن الأنبياء لم يحيو لأنفسهم ، والمصيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة .

إنهم يحيمون للعالم كله . أليسوا مناط هدايته الثامة وسعادته العامة ؟

فلا غرو إذ كانت تقديمتهم من أصول الإيمان ومعاهد الكمال .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أهلاً لأن يحب وما عرف الدنيا رجلاً قاضت
القلوب إجلاله ، وتقانى الرجال في حياته وإكباره مثل ما يعرف ذلك أصحاب
الرسالة اعظمى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

قيادته تهوى إليها الأفتدة

عبد الله بن سلام قال : أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة
انجفل الناس إليه ، فسكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستشيت علمت أن
وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال :-

« يا أيها الناس أفسحوا السلام . وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام ،
تدخلوا الجنة سلاماً » (١) .

إن أضواء الباطن تنضج على الوجه فتقرأ في أساريه آيات الطهر ، وقد ذهب
عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعم المهاجر . فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته ،
فكان أول ما طمأن إليه بعد التثبت من أحواله ، أن هذا ليس بكاذب ، والملاحم
الغاية والخلقية لشخص ما ، لا تعرف بنظرة خاطفة ، ولما كان الطابع المادى الذى
يضاف على الروح الكبير ، كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه .

على أن الذين عاشروا محمداً صلى الله عليه وسلم أحبوه إلى حد الهيام ، وما
يحيون أن تندق أعناقهم ولا يחדش له ظفر .

وما أحبوه كذلك ، إلا لأن أنصبة من الكمال الذى يعشق عادة لم يرزق
بمثله بشر .

كان ثومان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحب له ، قليل الصبر
عنه فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ، يعرف الحزن فى وجهه ، فقل له رسول الله
صلى الله عليه وسلم . ما غير لونك ؟ فقل : يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع ،
غير أبى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى أفتك ، ثم أبى إذا ذكرت
الآخرة أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ، وإبى إن دخلت الجنة
كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبداً فنزل قوله تعالى :
(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا) (٢) .

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٣١٣/٢) وابن ماجه (٤٠٠/١) والحاكم
(١٣/٣) وأحمد (٤٥١/٥) وقال الترمذى : « حديث صحيح » وقال الحاكم : صحيح على
شرط الشيخين « ووافقه الذهبي . وهو كما قال .
(٢) رواه الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٢٢) تعليقا عن الكلبي . وقال —

وفي الحديث . المرء مع من أحب ، (١) والمقصود حب الأسوة . لاحب
الهوس ، فإن الرجل إذا أحب من هو مثله أو أعلى منه ، فأساس هذا الحب تفتح
قلبه لخلال النبل التي خصوا بها . وعظمة المواهب التي يزم بها القدر .

وآثار الشجاعة والكرم لا يرحب بها الجبن الشحيح . إنما يهيمها في أصحابها
من أرقى حظا منها ، وهو بسبيله إلى استكمال مافاته من تمامها .

فمن نعمة الله أن ياحق بالعباء من يشق فيهم جل العظمة . ولذلك قال بعد
الآية السابقة : « ... ذلك الفضل من الله وكفى بالله عاياً » .

والحق أن التابع المحب شخص فاضل .

ففي الدنيا كثير من الأخساء الذين إن علوا ، حقروا من دونهم ، وإن دنوا ،
كرهوا من فوقهم ! فما تدري متى تخلوا نفوسهم من أحاسيس البغضاء والضعة ؟

أما عشاق المبدى ، المجرده ، فما إن مجدوا رجلها المنشود حتى يحيطوا به ،
وتلمع عيونهم حباً له ، أى حباً للمبادئ التي حييت فيه وانصرفت به .

وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار .

عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل النبي صلى الله عليه وسلم فيه المدينة أضاء منها

فذكره . وهذا مع إضالته فإن الكلبي كذاب : لكن أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير »
(ص ١٢) ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٥ / ٧) وعنه الواحدى (ص ١٢٣) .
وابن مردويه والمقدسى « في صفوة الجنة » من حديث عائشة مختصراً ليس فيه قوله ما غير لولئك
وقال المقدسى : لأرى بإسناده بأساً « وله شاهد من حديث ابن عباس وآخر من مرسل
سعيد بن جبير وغيره أوردتها الحافظ ابن كثير في البداية (١ / ٥٥٢ - ٥٢٣)

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٠ / ٤٥٩ - ٦٢) . ومسلم (٨ / ٤٣) . من حديث
أنس وابن مسعود وأبي موسى . وهو حديث متواتر كما قلنا ابن كثير وغيره .

كل شيء . فلما كان اليوم الذى مات فيه ، أعظم منها كل شيء . وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (١) .

فانظر إلى بشاشة العاطفة الفاصرة : كيف صبغت الآفاق بألوانها الزاهية ، وانظر إلى حسرة النفد : كيف تخلف سوادها السكابي على كل شيء . . . هكذا كانت دار الهجرة أقد أحببت الله وأحبت رسوله .

فكان هذا الحب المسكين سر انتصارها الرائع للإسلام ، ومبعث التضحية عن طيب نفس بكل مرتخص وغال .

وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإعزاز المائل ، تندك أمام عزائمهم الأطوار الراسية . .



سأل الحسن بن علي ، هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوصف له بدنه فكان مما قال « . . . يمشى هونا ، ذريع المشية - واسع الخطو - إذا مشى كأنما ينحط من صلب - يهبط بقوة - وإذا التفت ، التفت جميعاً . خافض الطرف . نظره إلى الأرض ، أطول من نظره إلى السماء . جل نظره الملاحظة - أى لا يحدق - يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لى منطقه . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة . طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطرافه - ويتكلم بجوامع الكلم ،

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٤٩٥/٤) والمالك (٥٧/٣) وأحمد (٢٢١/٣) وقال الترمذى « حديث صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وهو كما قال . ورواه الداريمى (٤١/١) بنحوه وسنده صحيح أيضاً على شرط مسلم وهو رواية للحاكم وأحمد (١٢٢/٣) .

فَصَلًّا ، لَا أَفْضُولَ فِيهِ وَلَا تَقْصِيرَ ، دَمِنًا ، لَيْسَ بِالْجَانِي وَلَا الْمُهِينِ . يُعْظَمُ النِّعْمَةُ وَإِنْ دَقَّتْ . لَا يَذَمُ شَيْئًا ، وَلَمْ يَكُنْ يَذَمُ ذَوَاقًا — مَا يَطْعَمُ — وَلَا يَمْدَحُهُ . وَلَا يُقَامُ لِعُضْبِهِ ، إِذَا تُعْرِضُ لِلْحَقِّ بِشَيْءٍ ، حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ . وَلَا يَغْضِبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا — سَمَاحَةً — إِذَا أَشَارَ ، أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا . وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلْبُهَا . وَإِذَا غَضِبَ ، أَعْرَضَ وَأَشَاحَ . وَإِذَا فَرَحَ ، غَضَّ طَرْفَهُ . جَلُّ ضَحْكِهِ التَّبَسُّمُ . وَيَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ النَّعَامِ ...

وَقَالَ ابْنُ أَبِي هَالَةَ يَصِفُ مَخْرَجَهُ — عَلَى النَّاسِ — : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْزَنُ لِسَانَهُ إِلَّا عَمَّا يَعْنِيهِ ، يُؤَلِّفُ أَصْحَابَهُ وَلَا يَفْرَقُهُمْ ، يَكْرُمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُؤَلِّيهُ عَلَيْهِمْ . وَيَحْذَرُ النَّاسَ ، وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَشْرَهُ .

يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ . وَيَحْسِنُ الْحَسْنَ وَيَصُونُهُ وَيَقْبِحُ الْقَبِيحَ وَيُبْوِهُنَّهُ . مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلَفٍ . لَا يَغْفُلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمْلُؤُوا .

لِكُلِّ حَالٍ — عِنْدَهُ — عِتَادٌ . لَا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَجَاوِزُهُ إِلَى غَيْرِهِ ..

الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ . وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ ، أَعْمَهُمْ نَصِيحَةً ، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنَازِلَةً ، أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَاوِزَةً .

ثُمَّ قَالَ — يَصِفُ مَجْلِسَهُ — : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ . وَلَا يُوْطِنُ الْأَمَاكِنَ — لَا يُمَيِّزُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا ، إِذَا انْتَهَى إِلَى الْقَوْمِ ، جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ . وَيُعْطَى كُلُّ جُلُوسَاتِهِ نَصِيحَتِهِ ، حَتَّى لَا يَحْسَبَ جُلُوسَهُ أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ . مِنْ جَالِسِهِ أَوْ قَائِمِهِ ، حَاجَةً ، صَابِرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرَفُ عَنْهُ . وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّ إِلَّا بِهَا ، أَوْ بِمِيسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ . قَدْ وَسَّعَ النَّاسَ بِسَطِهِ وَخَلَقَهُ . فَصَارَ لَهُمْ أَبًا ، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ مُتَقَارِبِينَ ، يَتَفَاضِلُونَ عَنْدهُ بِالتَّقْوَى ، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ ،

وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات . ولا تؤن فيه الحرم - لا نخشى فلتاته - .
يتعاطفون بالتقوى . يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ، ويرقدون ذا الحاجة ،
ويؤنسون الغريب .

وقال يصف سيرته : كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، أيسر بفظ
ولا غليظ ، ولا صخاب . ولا غشاش ، ولا عتاب . ولا مدّاح ، يتغافل عما لا يشتهي
ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار . وما لا يعنيه . وترك
الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يهينه ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما
يرجو ثوابه . إذا تكلم ، أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا سكث
تسكّموا . لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ .
حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه . ويعجب مما يعجبون منه .
ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها
فأرقدوه . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ . .. (١)

* * *

هذه خطوط فصار . لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي «المحمد»

(١) حديث ضعيف أخرجه بطوله الترمذى في «الشمائل» (١ / ٢٨) من طريق جميع بن عمرو بن عبد الرحمن العجلي قال : حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة ، يكنى أبا عبد الله عن ابن أبي هالة عن الحسن بن علي وهذا سند ضعيف جميع بن عمر هذا ضعيف وقال أبو داود : «أخشي أن يكون كذاباً» . وأبو عبد الله التميمي مجهول كما في «التعريب» وابن أبي هالة اسمه هند ابن أبي هالة وهو مستور ترجمه ابن أبي حاتم (٤ / ٤ / ١١٧) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . ونقل الحافظ في ترجمة أبيه من «التهذيب» عن أبي داود قال في هذا الحديث . «أخشي أن يكون موضوعاً» وأشار البخاري إلى أنه لا يصح . (راجع ترجمة هند ابن أبي هالة في «الجرح والتعديل» مع التعليق عليه .

أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أعجاد وشئائل ، فأمر لا يدرك
كنهه . ومعرفة العطاء لا يطيقها كل أحد ، فكيف بعظيم ، خلاقه القرآن ؟
إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج .

كملت تعمل وتجاهد لله وحده . وتدعى إلى غايتها المرموقة في جذل وثقة .
التفت حول نبيها التفاف التلاميذ بالمعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الحنون .
وتساندت فيما بينها ، بالأخوة المتبادلة المتناصرة ، فهم نفس واحدة . في أجسام
متعددة ، ولبنات مشدودة ، في بناء منسق صلب .

وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر . فليس يظلم في جوارهم ريء ،
أو يحرم من الطافهم عان .

ورغم ما وقع عليها من بنى قديم . فقد جعلت الإسلام يجب ماقبله .
فن تطهر من جاهليته وتاب إلى ربه فلا نظر إلى ماضيه . بل ينضم إلى الأمة
المسلمة عضواً كريماً فيها ، تغفر سيئاته ويستقبل - بصالح عمله - كتابه الجديد .
أما الذين بقوا يسكفرون ويصدون ، فلا بد من الإعداد لهم ، حتى تخلص الأرض
من كفرهم وصدوم .

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً
إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً) .

كانت هذه الأمة تسكح الله وتصل مساها بصباحها في عبادته ، وقد حزبت
أمرها على واحد من اثنين ، إما أن تحيا لله ، وإما أن تموت فيه !

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم ، لرأيت عناصر الغالب
والإمتياز تتجمع - لديهم - صاعدة . على حين تقور - في كيان الملل الأخرى -
زلازل حاطمة ؛ فلا غرو إذا صاروا - بعد سنين معدودات - دولة فتية ، تقضى
لربها ولنفسها ماتشاً .

ثم إن الشرائع المفصلة أخذت تنزل في المدينة منظمة أحوال المسلمين الخاصة والعامّة ومبينة قواعد الحلال والحرام على تدرج ، إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير كما سجلها تاريخ التشريع .

فقامت الحدود ، وفرضت الزكاة ، والصيام ، وزيدت ركعات الصلاة لأول العهد بيثرب .

عن عائشة فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرب صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر . . (١)

ومما يذكر أن النبي بنى بالسيدة عائشة في غضون السنة الأولى للهجرة وكان قد عقد عليها قبل الهجرة . . (٢)

وستحدث عن تعدد الزوجات ، وزوجات الرسول في موضع آخر .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١ / ٣٦٨ - ٣٦٩) ومسلم (٢ / ١٤٢) عنها وفي رواية للبخاري (٨ / ٢٤) قالت . (فرضت الصلاة ركعتين ؛ ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فقرضت أريما وترك صلاة السفر على الأولى » .

(٢) هذا معنى ماصح عن عائشة قالت تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بستين أو ثلاث وأنا بنت سبع سنين فلما قدم المدينة جاءني نسوة . . . ثم أتني بي رسول الله فبنى بي وأنا بنت ثمان سنين . رواه البخاري (٧ / ٨) وأحمد (٥ / ٢٨٠) والفظ له ومسلم أيضا (٤ / ١٤٠) وفي رواية له عنها « تزوجني صلى الله عليه وسلم في شوال وبني في شوال : . . »

...
...
...
...

...
...
...
...

...
...
...
...

...
...
...
...

...
...
...
...

...
...
...
...

(٦)

الكفاح السدامي

دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوى الجنى إلى قلعة الشائخة ، وأخذوا يستعدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها . وهم تعلموا من السنين الفبر التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان مزلة إلى الفتنة ، والمرء لا يقدر العافية حق قدرها إلا بعد الإبلال من المرض ، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلض من ذل الحاجة .

ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من هبر الماضي ؟

ذلك نبيهم تعقبه القتل ألف ميل ليقتالوه ، سواد المهاجرين نهب ما لهم وسلبت دورهم وشردوا من البند الحرام . إن « حالة الحرب » قائمة - يقيناً - بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الحصار .

على أن العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه تجاوزت قرىشا إلى غيرهم من مشركى الجزيرة الضالة ولن تذهب الفروض بنا بعيداً ، فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام . وانضم إلى هؤلاء وأولئك ، اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار هذا الدين . واندحار الوثنية العربية أمامه . . .

فما بد - إذا - من التأهب لكل طارئ ، والتربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التي تؤدب الجرمين يوم يتطاولون !

والقتال الذى شرعه الاسلام وخاض معاركه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وهو أشرف أنواع الجهاد ، وقد بينا في كتبنا^(١) الأخرى - بالاستدلال

(١) الاسلام والاستبداد السياسى « و » التعصب والتسامح بين الميعة والاسلام .

العلمى والاستقراء التاريخى - أن الحروب التى اشتبك فيها الإسلام - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه - كانت فريضة لحماية الحق ، ورد للظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبابرة .

أما تخرص المستشرقين والحقده على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والادعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لامبرر لها ، فذلك كله لغو طائش ، وهو جزء من الحملة المدبرة لحو الإسلام من الأرض ؛ واستبقاء أهله عبداً للصليبية والصهيونية وما إليهما .

وما من أيام للقتال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يهدد فيها الإسلام وآله بالقناء .

وتتألب عليه شتى القوى ، بل يصطالح ضده الخصوم الألداء ، محاولين سحقه إلى الأبد .

وقد وقع ذلك فى صدر الإسلام ، قبل الهجرة وبمدها ، ووقع فى هذه الأيام فسقطت أوطان الإسلام فى أيدي لصوص الأرض ، تم رسمت أخبث السياسات للذهاب به رويداً رويداً .

فكيف تستغرب الدعوة إلى التسليح ، والإهانة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية فى سبيل الله ؟

كيف تستنكر صناعة الموت فى أمة يتروائب حولها الجزارون من كل فج ؟

كلا كلا « ولا يحسن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون » * وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين ، من دونهم لا تعلمونهم * الله يعلمهم * وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسلم فاجنح

لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ
فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .

* * *

وتمشيًا مع توجيه الوحي وسياسة الواقع ، وحفاظًا على حق الله وحق الحياة
درّب النبي صلى الله عليه وسلم رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم
في الغارين والمناورات والمعارك ، وعد السعى في هذه الميادين خطوات إلى أجل
القرّب وأقدس العبادات ، له بذلك بقل شوكة الكفر ، وبكسر عن
المسلمين أذاه .

« فقاتل في سبيل الله لا تكاف إلا نفسك وحرص المؤمنين على عسى
الله أن يكف بأس الذين كفروا * والله أشدّ بآمًا وأشدّ تنكيلًا »
عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر
يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي
ألا أن القوة الرمي ^(١) .

والحديث ينوّه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك .

والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو القنابل .

وعن يقيم اللخمى ، قال : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين
— تتردد بينهما — وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٢ / ٦) وأبو داود (٣٩٤ / ١) والترمذي
(١٢٢ / ٣) وابن ماجه (١٨٨ / ٢) وأحمد (١٥٧ / ٤) من حديث عقبة بن عامر
وصححه الحاكم (١٣٨ / ٢) على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه . قال : وما ذاك ؟ قال سمعته يقول : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ! » (١) .

فانظر كيف يبقى الشيوخ المسنون على دربتهم في إصابة الهدف ، ومهارة اليد ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعاً .

وعن أبي نعيم السلمي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة » فبلغت يومئذ عشرة أسهم ، وسمعت يقول « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة » (٢) .

وعن عقبة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : ١ — صانهه يحتسب في عمله الخير . ٢ — والرامي به . ٣ — ومنبله ، الممد به ، فارموا واركبوا . وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محموداً إلا ثلاثة :

١ — تأديب الرجل فرسه . ٢ — وملاعبته أهله . ٣ — ورميه بقوسه ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها أو كفرها (٣)

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٢ / ٦) ، وروى الجملة الأخيرة منه أصحاب السنن من طريق أخرى يأتي الكلام عليها .

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٦٥ / ٢) والنسائي (٥٩ / ٢) وأحمد (٣٨ / ٤) والحاكم (٩٥ / ٢) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي ! وإنما هو على شرط مسلم وحده فإن تابعيه معدان بن أبي طلحة لم يخرج له البخاري وروى عنه الترمذي (٧ / ٣) الجملة الأخيرة وقال : « حديث حسن صحيح » وكذلك رواه ابن ماجه (١٨٨ / ٢) نحوه لكن من طريق أخرى . وهو رواية للهاكم (٩٦ / ٢) وكذا النسائي (٦٠ / ٢) (٣) في سنده اضطراب كما قال الحافظ العراقي في « تخرريج الإحياء » (٦ / ٢٥٢) وبيانه : أنه رواه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي سلام عن خالد بن زيد — (١٥ — فقه السيرة)

وعن ابن عمر « الحيل معقود في فواصيدها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة »^(١) .

وهذا ترغيب من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، في تعليم الفروسية ، وإبراز لون معين من ألوان القتال لا يحط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر منزلتها .

الآ ترى كيف حض النبي على تعلم القتال في البحر بقوله : « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر » ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها والمائد فيه — الذي يصيبه الدوار والقيء — كالمشحط في دمه »^(٢) .

== عن عقبة ، به . أخرجه أبو داود (٣٩٣/١ — ٣٩٤) والنسائي (١٢٠/٢) والحاكم (٩٥/٢) وأحمد (١٤٦/٤ ؛ ١٤٨) . وخالفه يحيى بن أبي كثير فقال : حدثنا أبو سلام عبيد الله الأزرق عن عقبة بن عامر ، أخرجه الترمذي (٦/٣) وابن ماجه (١٨٨/٢) وأحمد (١٤٤/٤ ؛ ١٤٨) وقال الترمذي : « حديث حسن » وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي ، وكأنهم لم يقفوا على هذا الاضطراب الذي نبه عليه الحافظ العراقي رحمه الله ؛ وأيضاً فإن له علة أخرى . هي جهالة خالد بن زيد وعبد الله بن الأزرق . وهو بن زيد بن الأزرق . فسواء كانت الرواية عن هذا أو ذاك فهي معلولة للجهالة . نعم ذكر الحاكم للحديث شاهداً من حديث أبي هريرة وقال : إنه : صحيح على شرط مسلم ، فتعقبه الذهبي بأن فيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك .

(١) حديث صحيح مرفوع أخرجه البخاري (٤١/٦) ، ٤٣ ، ومسلم (٣١/٦ ؛ ٣٢) من حديث ابن عمر وعروة البارقي وليس في حديث ابن عمر : « الأجر والغنيمة » فلو عزى الحديث لعروة كان أولى .

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم (١٤٣/٢) من حديث عبد الله بن عمرو : وقال « صحيح على شرط البخاري » ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا وإلعال للناوي له تبعاً لأبن الجوزي بأن فيه خالد بن يزيد ؛ يروي الموضوعات عن الأثبات خطأ فاحش ، لأن خالد هذا ، لا ذكر له في سند الحديث عند الحاكم ، فالظاهر أنه عند غيره ممن خرج الحديث وبعد ورود من طريق آخر صحيح ، لا يضره رواية أحد المتهمين له .

والدول تحتاج إلى الكتائب في البر والأساطيل في البحر والجو وكل سلاح
عون لأخيه في إدراك النصر ، وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلاً من
العدو ، وأرعاهم لذمام أمته . وشرف عقيدته ، سواء مشى ، أم رمى ، أم أبحر ،
أم طار .

سرايا . . .

فلما استقر أمر المسلمين ، أخذوا يرملون سراياهم المسلحة ، تجوس خلال
الصحراء المجاورة ، وتخترق طرق القوافل المارة بين مكة والشام ، وتستطلع أحوال
القبائل الضاربة هنا وهناك .

١ - ففي رمضان من السنة الأولى التقى « حمزة بن عبد المطلب » في ثلاثين
من المسلمين ، بأبي جهل يقود قافلة لقريش ، ومعه ثلاثمائة راكب . وقد حجز
بينهما مجدي بن عمر الجهمي فلم يقع قتال .

٢ - وفي شوال من السنة نفسها ، سار عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلى
وادي رابغ . فالتقى بمائتي مشرك على رأسهم أبو سفيان ، وقد ترامي الفريقان
بالنبيل ولم يقع قتال .

٣ - وفي ذي القعدة خرج « سعد بن أبي وقاص » في نحو عشرين رجلاً
يعترض عيراً لقريش فقاتله .

٤ - وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول بنفسه بعد أن استخلف سعد
ابن عباد على المدينة ، وصار حتى بلغ ودان يريد قريشاً وبني ضمرة ، فلم يلق
قريشاً ، وعقد حلقاً مع بني ضمرة .

٥ - وفي ربيع الأول من السنة نفسها ، خرج الرسول على رأس مائتين من
المهاجرين والأنصار إلى « بواط » معترضاً عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف
ومعه مائة من المشركين فقاتله .

٦ - وفي جمادى خرج إلى العشيرة من بطن « ينبع » . وأقام شهراً ، صالح فيه بني مدلج .

٧ - ثم أغار كرزين جابر القهري على المدينة ، واستاق سرحها ، فخرج النبي في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريباً من « بدر » لم يدر كه . ويسمى المؤرخون هذه « غزوة بدر الأولى » .

الحكمة في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو المتتابع تملخص في أمرين :
أولهما : إشعار مشركي يثرب ويهودها وأهرب البادية الضاربين حولها ، بأن المسلمين أقوياء : وأهمهم تخلصوا من ضعفهم القديم . ذلك الضعف الذي مكن قريشاً في مكة من مصادرة عقائدهم وحرياتهم ، واغتصاب دورهم وأموالهم ، ومن حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضالة شأنها ، فإن المتربصين بالإسلام في المدينة كثروا . ولن يصددهم عن النيل منه إلا الخوف وحده . وهذا تفسير قوله تعالى « ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلم الله يعلمهم » .

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبطنون البغضاء للإسلام وأهله ، ولا ينعمهم من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء النية ، أما الأولون فهم المشركون ولصوص الصحراء وأشباهم ممن لا يبلون - لولا هذه السرايا - الهجوم على المدينة واستباحة حاماها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثة « كرزين جابر » السابقة . وتنجراً البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع وحفظت هيبة المسلمين .
والأمر الآخر - في حكمة بعث السرايا - إنذار قريش عقب طيئها .

فقد حاربت الإسلام ، ولا تزال تحاربه ، ونسكت بالمسلمين في مكة ، ثم
مظلت ماضية في غيها ، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله . ولا
تسمح لهذا الدين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض ، فأحب الرسول صلى
الله عليه وسلم أن يشعر بحكام مكة ، بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار
الفادحة ، وأنه قد مضى - إلى غير عودة - ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه
على المؤمنين ، وهم بآمن من القصاص ...

والمستشرقون الأوروبيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع
الطريق . وهذه النظرة صورة للحقد الذي يعنى عن الحقائق ، ويتيح للهوى أن
يتكلم ويحكم كيف يشاء .

وقد ذكرنى هذا الاستشراق المفرض بما حكموه عند قمع الإنجليز لثورة
الأهلين في أفريقيا الوسطى - مستعمرة كينيا - وهم يطلبون الحرية لوطنهم
ويحاولون إجلاء الأجانب عنه ...

قال جندي إنكليزى لآخر - يصف هؤلاء الإفريقيين - : إنهم وحوش ،
تصور أن أحدهم عضنى وأنا أفتله !!!

إن هذه الأنحوسة صورة من تفكير المستشرقين في إنصاف أهل مكة
واللعنى على الإسلام وأصله ...

سرية عبد الله بن جحش

وفي رجب من السنة الثانية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن
جحش في رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً . وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد
يومين من مسيره .

فإذا نظرت فيه ووعى ما كلفه الرسول به ، مضى في تنفيذه غير مستكره أحدًا من أصحابه فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه : أمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشًا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

فقال عبد الله : سيما وطاعة ، وأطلع أصحابه على كتاب الرسول قائلا : إنه نهاني أن استكره أحدًا منكم . فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فينتقل معي ، ومن كره ذلك فليرجع . . . فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذي كان يتعقبه « سعد بن أبي وقاص » و « عتبة بن غزوان » ندّاهما فشتلا بطلبه ، ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة . فمرت عبر قريش فهاجمها عبد الله ومن معه ، فقتل في هذه المعركة « عمرو بن الحضرمي » وأسر اثنان من المشركين ، وعاد عبد الله بن جحش بالثأفة والأسيرين إلى المدينة .

ويظهر أن هذا القتال وقع في آخر رجب ، أي في الشهر الحرام .
فلما قدمت السرية على رسول الله قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لانتقام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسمًا هذه الأقاويل ومؤيدًا مسلك عبد الله تجاه المشركين .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .
وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ . وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » (١) .

(١) أورده ابن هشام (٢/٥١ - ٦) عن ابن إسحاق قال ابن إسحاق في آخره
« والحديث في هذا عن الزهري وبزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وقد رواه البيهقي في
« سننه الكبرى » (١٢/٩) بسند صحيح عن الزهري عن عروة مرسلًا به ولكنه لم يسبق

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساع لها . فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله . فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداسها نجاة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وصاب أموالم ؟ لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عند ما تكون في مصلحته .

فاذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتفضها هدم القوانين والدمائير جميعاً .

فالقانون المرعى - عنده في الحقيقة - هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضى في خطتهم الأصلية ، وهى سحق المسلمين ، حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال :

« وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا »

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذى شرفهم الله به ، وخط سعادتهم فى الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قُتِلَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وزكى القرآن عمل « عبد الله » وصحبه . فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة

== الحديث بتمامه بل طرفاً من أوله ثم أحال على باقيه . وقد وصله هو وابن أبي حاتم من طريق سليمان التميمي عن الحضرمي عن أبي السوار عن جندب أبي عبد الله مختصراً وليس فيه قوله صلى الله عليه وسلم . « ما أمرتكم قتالاً فى الشهر الحرام » وسنده صحيح إن كان احضرى هذا هو ان لاحق فقد قيل إنه غره وإنه مجهول ورجحه الامام في التهذيب والله أعلم ، ثم رأيت البيهقي قد ساق فى موضع آخر من السنن (٩ / ٥٨ - ٥٩) حديث عروة بتمامه ما أمرتكم . . . »

وشجاعة وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة ، متعرضين للقتل في سبيل الله متطوعين لذلك من غير مكره أو مخرج .

فكيف يجزون على هذا بالتقريع والتخويف ؟ قال الله فيهم .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَنُورٌ رَحِيمٌ » .

والقرآن في فعال هذه السرية ، لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتدين مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصوصهم .

فبعد أن كان أغلب المسكتبين في السرايا السابقة من المهاجرين أخذت البعث الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه ، وتكثر تبعاته ولكنه كفاح مستحب ، مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذه بما جد أو يجحد من سيئاتها ، وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكان هذه الأحاديث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها عندما جمع رجالات مكة . وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » .

معركة بدر

ترامت الأنبياء إلى « يثرب » أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بعير موقرة بالأموال يقودها « أبو سفيان بن حرب » مع رجال لا يزيدون عن ثلاثين أو الأربعين .

إن الضربة التي تنزل بأهل مكة — لو فقدوا هذه الثروة — موجة حقا ،
وفيهما عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة . لذلك
قال الرسول عليه الصلاة والسلام : هذه غير قریش ، فيها أموالهم ، فأخرجوا
إليها ، لعل الله ينقلكموها (١) .

لم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفا ، بل ترك الأمر المرغبة
المطلقة ثم صار — بعد — بمن أمكنه الخروج .

وكان الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرة يحسبون أن مضيقهم
في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية ، ولم يدركوا أن مضيقهم أنه
مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لا اتخذوا أهبتهم كاملة ، ولما سمح
لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة ! لذلك فترت المهم عندما وردت أخبار أخرى بأن
القافلة المطالوبة غيرت طريقها .

واستطاع قائدها « أبو سفيان » أن ينجو من الخطر المحدق به ، بعد أن
أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ، ويستشير حميتهم للخروج في تعبئة ترد
كل هجوم .

وغالب النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفتور العارض ، وحذر صحابته من هتفي
العود السريع إلى المدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها !
وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا .

وذلك قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا
من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون
إلى الموت وهم ينظرون » .

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام (٢ / ٦١) عن أبي إسحاق بسنده الصحيح عن
ابن عباس .

والذين كرهوا اللقاء قريش ، ما كانوا إليها بوا الموت ، ولكنهم لم يعرفوا الحسكة في خوض معركة مباغتة دون إلتقان ما ينبغي لها من مدة وعدد ، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزن الظروف للملابسة الأمر كله ، فوجد الإقدام خير من الإحجام ، ومن ثم قرر أن يضى . فإن الحسكة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضيع مدى لوعاد على هذا النحو .

وقد اختفت — على عجل — مشاعر التردد ، وانطلق الجميع خفاقا إلى غايتهم . والمسير بإزاء طريق القوافل إلى « بدر » ليس سفراً قاصداً أو نزماً لطيفة . فالمسافة بين « المدينة » و « بدر » تربو على ١٦٠ كيلو مترا ، لم يكن مع الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يعتقبونها .

روى أحمد^(١) عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا يوم بدر ، كل ثلاثة على بعير — أى يتعاقبون — وكان أبو لبابة وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فكانت هقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا له : نحن نمشى عنك — ليظل راكبا — فقال : « ما ألتما بأقوى منى على المشى ، ولا أنا بأغنى عن الآخر منكما » !!

وبعث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة وأين الرجال الذين قدموا لحمايتهم ؟

* * *

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته ، بعث « ضحضم بن عمرو الغفاري » إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم .

(١) في للسند (رقم ٣٩٠١ ، ٣٩٦٥) وسنده حسن . وأخرجه الحاكم (٢٠/٣) وقال : « حديث صحيح على شرط مسلم » !

واستطاع « ضمنهم » هذا إزعاج البلدة قاطبة : فقد وقف على بعيره بعد أن جدد أنفه . وحول رحله ، وشق قميصه ، يصيح : يا مشرك قريش اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان ، عرض لها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، العوث العوث !

فتجهز الناس جميعا ، فهم إما خارج وإما ماعث مكانه رجلا ، وانطلق سواد مكة وهو يغلى ، يمتطى الصعب والذلول . فكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائتا فرس يقودونها . ومعهم القيان يضربن بالدفوف وينغنين بهجاء المسلمين . .

وولوا وجوههم إلى الشمال ، ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم .

لكن أبا سفيان لم يستنم في انتظار النجدة للقبلة ، بل بذل أقصى ماله من حذر ودهاء ، لحثالة المسلمين والإفلات من قبضتهم ، وقد كاد يسقط بالير جماء في أيديهم وهم يشتدون في مسيرهم نحو بدر ، غير أن الحظ أسعفه !

روى أنه اتى مجدى بن عمرو ، فسأله : هل أحسست أحدا ؟ قال : ما رأيت أحدا أنكره . إلا إنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا القتل . ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا فتى أبو سفيان مناخهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحاتين ثم فتحا فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ! وأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد . وأن جيشه هنا قريب !

فرجع إلى العير يضرب وجهها عن الطريق ، شاردًا نحو الساحل ، تاركا بدرا إلى يساره ... فنجأ .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز الفلة فأرسل إلى قريش يقول : إنما خرجتم لتبعوا عيركم ورجالكم وأموالكم . وقد نجاها الله . فارجموا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنفق ثلاثا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر وننزف عينا القيان . وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجعنا ، فلا يزلون بهابونا أبدا !

وهذا الذى عان به أبو جهل ، هو ما كان يحاذره الرسول عليه الصلاة والسلام فإن تدعيم مكانة قريش . وامتداد سطوتها فى هذه البقاع — بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت — يعتبر كارثة للإسلام ، ووفقاً لنفوذ ، وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك ، وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لا يملك نفعا ولا ضرا ؟

لذلك لم يلتفت الرسول لقرار القافلة ، الفقائه اضرورة التجوال المساح فى هذه الأنحاء . إبرازاً لهذه المعانى القوية . وتمكيناً لصداها فى القلوب .

* * *

ومضت قريش فى مسيرها . مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادى بدر ، وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضى إلى العدوة الدنيا .

وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر ، وهو لا يدري ما وراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً والزبير وسعداً ، يتحسسون الأحوال وينتقمسون الأخبار ، فأصابوا غلامين لقريش كانا يداينهم بالماء ، فأتوا بهما ، وسألوهما — ورسول الله قائم يصلى — فقلا : نحن سقاة قريش . بعثونا نسقيهم من الماء .

فكره القوم هذا الخبر ، ورجوا أن يكونا لآئى سفيان — لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة ! — اضربوهما ضرباً موجعا حتى اضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لآئى سفيان ! فتركوهما ، وركع رسول الله وسجد سجدة وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما .

صدقا والله إنهما لقريش ، ثم قال للغلامين : أخبرانى عن قريش ! قالا : هم وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟

قالا : كثير ! قال : ما عدتهم ؟ قالا : لاندري ! قال كم ينحرون كل يوم ؟ قالا :
يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله . للقوم ما بين التسعمائة إلى الألف ،
ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قریش ؟ قالا عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو
البختري بن هشام . وحكيم بن حزام ، ووفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ،
وطبيعة بن عدی ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وعمر بن هشام ،
وأمية بن خلف ... الخ .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت
إليكم أفلاذ كبدها ... (١)

وانكشف وجه الجد في الأمر . إن اللقاء المرتقب سوف يكون مرة المذاق
لقد أقبلت قریش تخب في خيلاتها ، تريد أن تعمل العمل الذي يرويه القصيد ،
وتذرع المطايا به البطاح ، ونحسم به صراع خمسة عشر عاماً مع الإسلام ، لتنفرد
- بعدها - الوثنية بالحكم النافذ ...

ونظر الرسول حوله ، فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله
نفسه وماله . وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين لذي انتداء وآوى أصحابه .
فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف . حتى يبصروا - على ضوءه - ما يفعلون
إن المرء قد تفجؤه أحداث عارة وهو ماض في طريقه - يحتاج في مواجهتها
لأن يستجمع مواهبه ، وأن يستحضر تجاربه ، وأن يقف أمامها حاد الانتباه
مرهف الأعصاب ، وهذه الامتحانات المباغنة أدق في الحكم على الناس وأدل على
قيمتهم ، من الامتحانات التي يعرفون ميعادها . ويتقدمون إليها ، واثقين مستعدين

(١) أخرجه ابن هشام (٢/٦٥) عن ابن اسحاق حدثني يزيد بن رومان عن عروة
ابن الزبير قصة . وهذا إسناد صحيح لكنه مرسل . وقدرناه أحمد (رقم ٩٤٨)
من حديث علي ابن أبي طالب دون قوله : ثم قال لهما ... « وسنده صحيح ، ورواه
مسلم (١٧٠/٥) مختصراً من حديث أنس .

والمسلمون الذين خرجوا لأمر يسير ، ما لبثوا أن أقبلوا أنفسهم أمام امتحان شاق ، تيقظت له مشاعرهم ، فشرعوا ، بقلوبهم — على عجل — تكاليفه وتأنجه .
 موثار منطق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخلطة الفذة التي لا يحيص عنها المؤمن .
 استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس . فقام أبو بكر الصديق ، فقل وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب ، فقل وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو . فقل : يا رسول الله ، امض لما أراك الله : فنحن معك . والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إفا معكما مقاتلون . فو الذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له .
 ثم قال : أشيروا على أيها الناس — وإنا يريد الأنصار — وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وأهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا امرأة من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت في ذمتنا ، فممنعك مما تمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا بمن دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ . والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال : أجل . فقال . قد آمنا بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك . فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . فو الذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا الصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

وفي رواية : املك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر
الذي أحدث الله إليك فامض ، أصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت ،
وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وأعطنا ماشئت ،
وما أخذت منا ، كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سعد » ونشطه ثم قال : سيروا
وابشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين . والله لكأني أنظر إلى مصارع
القوم .. (١)

(١) رواه ابن هشام (٢ / ٦٣ — ٦٤) عن ابن اسحاق بدون إسناد . والرواية
الأخرى أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن عمر وابن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه
عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كانت بالروحاء خطب
الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر « الحديث نحوه ذكره ابن كثير (٣ / ٢٦٤)
وهذا مرسل وكذلك رواه ابن أبي شيبة كما في « الفتح » (٧ / ٢٣٠) وعن عبد الله بن
مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود — هو بن عمرو — مشهداً لأن أكون صاحبه
أحب إلى ما عدل . أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول
كما قال قوم مومي ، اذهب أنت وربك فقاتلا ولكننا نقاتل عن عيبتك وعن ثمالك وبين
يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وصره قوله . ورواه البخاري
(٧ / ٢٣٠) والحاكم (٣ / ٣٤٩) وصححه ووافقه الذهبي . وأحمد (رقم ٣٦٩٨ ؛ ٤٠٧ ،
٢٧٦) ، ورواه الطبراني من حديث أبي أيوب الأنصاري . قال الهيثمي « ٦ / ٧٤ » :
« وإسناده حسن » . وفي حديث أنس المشار إليه آنفاً عند مسلم : « قال : فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصرع فلان ؛ قال ويضع يده على الأرض ههنا وههنا قال
فماط أحدكم عن موضع لم يد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

تأهب المسلمون لخوض المعركة ، وعسكروا في أدنى ماء من بدر .

فجاء الحباب من المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرايت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، أمتض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنمسكر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . ثم أمر بإنفاذه ! فلم يحىء نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب ، وامتلكوا مواقع الماء ^(١) .

وقضى المسلمون ليلاً هادئاً الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم ، وتسايط عليهم مطر خفيف رطب حولهم الجو وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتتبعش صدورهم وتجدد أملهم ، وكان الرمل تحت أقدامهم دهساً يتلبد وتماصك ، وجعل حركتهم عليه ميسرة « إذ يفشيك الداس أمانة منه ، وينزل عليك من السماء ماء ليظهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ويربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقد الرجال ، وينظم الصفوف ، ويسدى

(١) رواه ابن هشام (٢ / ٦٦) عن ابن إسحاق قال : خذت عن الرجال من بقي سلمة أنهم ذكروا أن الحباب .. « وهذا سند ضعيف لجمالة الواسطة بن ابن إسحاق والرجال من بقي سلمة . وقد وصله المصنف (١٠٦ / ٣) حديث الحباب وفي سنده من لم أعرفه وقال الذهبي في « تلخيصه » : « قلت حديث منهكر وسنده » كذا الأصل ولعله سقط منه « وه » أو نحوه ررواه الأموي من حديث ابن عباس كما في البداية ، (١٦٧ / ٣) وفي الكلبي وهو كذاب !

النصائح ، وبذكر بالله والدار الآخرة . ثم يعود إلى عريش هي له فيستغفر في الدعاء الخاشع ، ويستغث بأمداد الرحمن . . .

ووقف أبو بكر إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يكثّر الابتهاال والتضرع . ويقول فيم يدعو به « اللهم إن تترك هذه المصيبة لا تعبد بعدها في الأرض » وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ويرفع يده إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداؤه ويقول — مشفقاً عليه من كثرة الابتهاال — : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك^(١) .

* * *

وتزاحف الجمعان وبدأ الهجوم من قبل المشركين ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الخوض الذي بناه المسلمون قائلاً : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموئن دونه ، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الخوض يبغى اقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه ! فبرز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . فخرج للقائهم فتية من الأنصار ، فنادوا : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذي استرجع أولئك الأنصار رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو في مثل هذا الموقف . فقال : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي . فبارز عبدة عتبة ، وبارز حمزة

(١) حديث صحيح ، أخرجه مسلم (١٥٦/٥ — ١٥٧) وأحمد (رقم ٢٠٨ ، ٢٢١) من حديث عمر بن الخطاب ، وبعضه في البخاري (٢٣١/٦) من حديث ابن عباس .

شبيهه . وبارز على الوايد . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وكذلك فعل على مع خصمه ، وأما عبيدة وعقبة . فقد جرح كلاهما الآخر ، فسكر حمزة وعلى بأسيا فهما على عقبة فأجهزوا عليه ، واحتملا صاحبهما . فجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفرشه الرسول قدمه فوضع خده على قدمه الشريف وقال يا رسول الله لو رأي أبي أبوطالب لعلم أني أحق بقوله :

ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم أسلم الروح .. (٢)

واستشاط الكفار غضبا للبداية السيئة التي صادفهم فأمطروا المسلمون وابلانهم سهامهم ، ثم حى الوطيس وتهاتت السيوف ، وتصايح المسلمون . أحد أحد وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكسروا هجمات المشركين ، وهم مرابطون في مواقعهم . وقال إن اكتنفتكم القوم فانضحوم عنكم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا (٣)

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قمتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد

(١) روى القصة إلى هنا ابن هشام (٦٧/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ورواها أبو داود (٤١٦/١) من حديث علي بدون قصة الأسود وإسناده صحيح وكذلك رواه أحمد (رقم ٦٤٨) .

(٢) وهذا القدر أورده ابن كثير (٣٧٤/٢) وقال : رواه الشافعي « ولم يذكر عن . ورواه بنحوه الحاكم (١٧٨/٣) من حديث ابن شهاب مرسل وليس فيه « ثم أسلم الروح » ويدل على ضعف هذه الزيادة أن الحاكم روى من حديث ابن عباس أن عبيدة ابن الحارث مات بالصفراء . تنصرفه من بدر فدفعته رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك وسنده حسن ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) رواه ابن إسحاق (٦٨/٢) بدون سند ، وفي البخاري (٢٤٥٠/٧) عن أبي أسيد قال لنا رسول الله يوم بدر : إذا أكتبوكم فارموموا واستبقوا بئلكم .

أعدائهم ولحقوا بهم خسائر جسيمة . والنبي في عريشه يدعو الله ويرقب بطوالة رجاله وجيادهم . قال ابن اسحاق ^(١) : خفق النبي عليه الصلاة والسلام خفقة في العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع » .

لقد انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين ، وهم بين كر وفر جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغرام أن يغالبوا « القدر » .

فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث في قلوب المسلمين روح اليقين .
وتمحضهم على الثبات والإقدام .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه إلى الناس فخرضهم قائلاً :
« والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً . مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأميل في الآخرة هو بضاعة الأنبياء ، وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك ؟

وعمل هذا التحريض عمله في القلوب المؤمنة .

روى أحمد ^(٢) أن المشركين إسادنوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ؛ فقال عمير بن الحمام الانصاري

(١) في «لناري» وعند ابن هشام (٦٨/٢ - ٦٩) بدون سند ؛ لكن وصله الاموي عن طريق ابن اسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيير ؛ وهذا سند حسن . وسكت عنه ابن كثير (٢٨٤/٣) .

(٢) في السند (١٣٦/٣ - ١٣٧) بدون الاييات . وكذلك — أخرجه مسلم (٤٤/٦ - ٤٥) . والحاكم (٤٢٦/٣) . مستدركا على مسلم فوم . أخرجه كلهم من حديث أنس . مسلم أيضاً من حديث البراء مختصراً . أما الاييات فمرأها الحافظ ابن كثير (٢٢٧/٣) لابن جرير .

يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ! قال نعم . قال : يخ : يخ قال رسول
الله : وما يحملك على قول يخ : يخ ؟ قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون
من أهلها !

قال : فإلك من أهلها ...

وأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل
تمرأتى هذه ، إنها حياة طويلة . فرمى ما كان معه من التمر ثم قال لهم وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلى التقي وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضه النقاد

غير التقي والبر والرشاد

فما زال حتى قتل . !

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة
الدنيا . وراعهم محمد عليه الصلاة والسلام . وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد
القتال . ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبسالون شيئاً ، فانسكبرت قريش
وأخذها الفرع .

وصاح النبي عليه الصلاة والسلام - وهو يرى كهرياء الكفر يترغ في التراب -
« شامت الوجوه ... » ^(١)

فانهزمت قريش ...

وذلك قول الله في كتابه : « إِذْ يُوحَىٰ رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِي مَعَكُمْ
فَفَيْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ه سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالرَّعْبُ ، فَاضْرِبُوا »

(١) حديث حسن وهو من رواية عبد الله بن ثعلبة المتقدمة . وله شاهد من حديث
حكيم بن حزام قال الهيثمي (٨٤ / ٦) : « رواه لأطبراني وإسناده حسن »

فَقَوْفُ الْمَأْغَنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،
وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، ذَلِكَ كَمْ تَذَرُّوهُمْ ، وَأَنَّ
الْمُكَافِرِينَ هَٰذَا أَبَ النَّارِ .

• • •

وحاول وأبو جهل أن يقف سيل الهزيمة النازل بقومه ، فأقبل بصرخ بهم ،
وغشاة الغرور لا تزال ضاربة على عينيه . « واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم
في الجبال . خذوهم أخذاً . »

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة؟ لكن أبا جهل - والحق
يقال - كان تمثالا للعناد إلى آخر رمق ، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من
كيانه لا ينفك عنه أبداً ، لذلك أقبل يقاقل في شراسة وغضب وهو يقول :

ما تنقم الحرب الشموس مني ؟ بازل عامين حديث سني !

لمثل هـ — ذا ولد تني أمي

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبو الحكم لا يخاص إليه ، فكان بينهم
وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعا جذعا ، أمام حماس
الؤمنين الذين اشتد بأسهم ، وأغرتهم بشارت الفوز ، وساد هتافهم الواقعة وهم
يقولون : أحد أحد !

قال عبد الرحمن بن عوف : لاني اني الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني
ومن يساري فتيان حديثا السن ، فسكأت لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرأ
من صاحبه : يا عم ، أدنى أبا جهل ، فقلت : يلا ابن أخي ما تصنع به؟ قال : عاهدت
الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ! وقال لي الآخر سرأ من صاحبه مثله .

قال : فما سر بي أني بين رجائين مكاهما .

فأشرت لها إليه . فتشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه ، وهما ابنا عفراء ^(١) ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت ، وقد امتشهد البطلان في هذه الواقعة ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصرعهما يدعو لهما ويذكر صنيعهما ^(٢) .

أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ، وتفرق المشركون بعده بدءاً ، وتركوها سيقانهم للريح ، تبعثهم في فجاج الصحراء ، كما تبعثر كتيبا من الرمل للنهار .

ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم ، لا يزال به رمق ، فجثم على صدره يبغى الإجهاز عليه ، ونحرك «أبو جهل» يسأل : لمن الدائرة ؟ قال عبد الله :

لله ورسوله ، ثم استلقى عبد الله : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال له : وبماذا أخزاني ؟ هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتفرس في عبد الله ثم قال له : أأنت ربيعة بمكة ؟

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٤٦/٧) ومسلم (١٤٨/٥ — ١٤٩) وأحمد (رقم ١٦٧٣) واستدرکه الحاكم (٤٢٥/٣) فوهم ، وقوله : « وهما ابنا عفراء » هكذا في رواية البخاري ، وعند الآخرين : « والزجلين معاذ بن عمرو بن الجوح ومعاذ ابن عفراء » وهي رواية للبخاري (١٨٩/٦ — ١٩٠) فلتل الرواية الأولى على طريقة التفليل .

وانظر « الفتح » (٢٣٦/٧)

(٢) الجزم بهذا خطأ ابن لأنه من رواية الواقدي بدون سند ! كما في ابن كثير (٢٨٩/٣) وحتى لو سلم سنده وكان رجاله ثقات لم يصح لأن الواقدي منهم بالكذب . ويدل على ضعف هذه الرواية أن معاذ بن عمرو مات في زمن عثمان كما جزم به البخاري وغيره (راجع ابن هشام ٢/٢٧٢) .

فجعل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خد^(١) .

ولقي مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديداً من رؤوس الكفر بمكة دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأمر سبعون كذلك .

وفرّ بقية التسعمائة والخمسون يروون لمن خلفهم أن الظالم مرتعه وخيم ، وأن البطر يجر في أعقابه الخزى والعار .

° ° °

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء . إن هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال قتال « ولقد نصركم الله ببدر » وأنتم أذلة فأتقوا الله اعلمكم تشكرون » .

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً ، استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عليين ثبت عن أنس بن مالك ، أن حارثة بن سراقة ، قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ، أصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت : يا رسول الله ، أخبرني عن حارثة ؟ فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليدين الله ما أ صنع - تعنى من النياحة - وكانت لم تحرم بعد !! فقال لها الرسول : ويحك أهبات ؟ إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ...^(٢)

(١) رواه بنعوه ابن هشام (٧٢/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد وبعضه في للسند (رقم ٤٢٤٦) والبيهقي (٦٢/٩) عن ابن مسعود بسند منقطع ، وقصة قتل ابن مسعود لأبى جهل صحيحة رواها البخارى (٢٣٥/٧) ومسلم (١٨٣/٤ - ١٨٤) وأحمد (١١٥/٣ ، ١٢٩ ، ٢٣٦) من حيث أنس .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٦/٢٠-٢١ - ٢٤٣/٧٠) .

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفتمهم سهام طائشة ، فكيف بن خاض إلى المنايا العمرة الصعاب ؟ ...

في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ . فقصصت بينهم السيوف وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنهم ، ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتقدون . فلا عجب إذا رأيت الآن المؤمن بغاضب أباه الملعن ، ويحسمه في ذات الله . وللقاتل الذي دار به « بدر » سجل صوراً من هذا النوع الحاد : كان أبو بكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل ، وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين . وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي . فلما سحبت جثة عتبة لترمى في القليب ، نظر الرسول إلى أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ! فقال له : يا حذيفة ، لماذا قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه وذكرت مامات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنتني ذلك !

فدعا له رسول الله بخير . وقال له خيراً . . . (١)

وأمر رسول الله بقتل المشركين فطرحوا في القليب . وروى أنه قال عند مرآم بنس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقتني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . (٢) فلما ووريت جثتهم وأهيل التراب

(١) حديث ضعيف رواه ابن هشام (٧٥/٢) ! عن ابن إسحاق بلاغاً .

(٢) حديث ضعيف رواه ابن هشام (٧٤/٢) عن إسحاق قال : حدثني بعض أهل العلم . وهذا اسناد متصل . وقد رواه أحمد (١٧٠/٦) من طريق إبراهيم .

على رفاتهم ، انصرف الناس وهم يشعرون أن أئمة الكفر قد استراح الدين
والدنيا من شرورهم إلا أن النبي استعاد ماضيه الطويل في جهاد أولئك القوم .
كم عالج مغاليتهم وحاول هدايتهم ؟ . وكم ناشدتم الله وخوفهم عصيانه وتلا
عليهم قرآنه ؟

وهم — على طول التذكير — ينجحون ، وبالله وآياته ورسوله يستهزئون
فخرج^(١) النبي في جوف الليل حتى بلغ القليب المطوى على أهله وسمعه الصحابة يقول
« يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن

== عن عائشة مرفوعاً بلفظ : « حزاكم الله شراً من قوم نبي ، ما كان أسوأ الطرد ،
وأشد التـكذيب » ورجاله ثقات لكنه منقطع بين إبراهيم وهو النخعي وابن عائشة .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن إسحاق (٧٤/٢) : حدثني حميد الطويل عن أنس
به وهذا سند صحيح وحمد وإن كان مدلساً فإن ما يرويه ممنناً عن أنس بينهما ثابت
البناني كما ذكروا في ترجمته وهو ثقة من رجال الشيخين وقد أخرجه أحمد (١٠٤/٣) (١٨٧)
من طرق عن حميد به . وقال الحافظ ابن كثير (٢٠٢/٣) « إنه على شرط الشيخين »
قلت : وقد وصله مسلم (٢٦٣/٨) وأحمد (٢١٩/٢ ، ٣٧٧) من طريق حماد بن سلمة
عن ثابت عن أنس ورواه أحمد (١٤٥/٣) من قتادة عن أنس . لكن رواه البخاري
(٢٤٠/٧ — ٢٤١) من طريقه قال : ذكر لنا أنس عن أبي طلحة : « فغله من سند
أبي طلحة وهو الأصح كما قال الحافظ ابن كثير وابن حجر . ثم أخرجه مسلم والطحاوي
(٩٧/٢ — ١٠٨) ترتيب الشيخ أحمد البنا وأحمد (رقم ١٨٢) من طريق سليمان
ابن المغيرة عن ثابت عن أنس عن عمر . فالظاهر أن أنس / منه صلى الله عليه وسلم وإنما
رواه عنه بواسطة الصحابة . فكان تارة يرسله . وتارة يوصله . والحديث رواه غير من
ذكر من الصحابة عبد الله بن عمر . أخرجه البخاري (٢٤٣/٧) وغيره . وفي الباب
عن مسعود وابن عبيدان وغيرهما وأما إنكار عائشة الذي ذكره المؤلف في التعليق فقد
أنكره العلماء وبينوا أن الصواب بجانب الذين رووا هذا الحديث . راجع « البداية »
لابن كثير . و « الفتح » لابن حجر . وعندى أبي لا تمارض بين روايتهم وروايتهم .
بل اجمع بينهما هو الصواب كما بينته في « أحكام الجنائز وبدعها » ولله يطبع قريباً .

هشام ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً !
فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادى قومًا جيفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول
منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني ^(١) .

كانت واقعة بدر في السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة . وقد أقام
رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثًا : ثم قفل عائداً إلى المدينة يسوق أمامه
الأسرى والغنائم ! ورأى قبل دخولها أن يعجل البشرى إلى المسلمين المقيمين فيها
لا يدرون مما حدث شيئاً .

فأرسل « عبد الله بن رواحة » و « زيد بن حارثة » مبشرين يؤذنان الناس
بالنصر العظيم .

قال « أسامة بن زيد » . فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول
الله ! وكان زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها يمرضها بأمره . وضرب رسول
الله بسهمه وأجره في بدر ^(٢)



محاسبة وعتاب

برغم ما سجله التاريخ من تحمل ومواصلة بين الأنصار والمهاجرين فإن متاعب
العيلة . ومشكلات الفقر تمشت خلال المجتمع الجديد ، إن سترها التعفف حيناً .

(١) تنكر عائشة هذا الحديث محتجة بقول الله (وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت
إلا نذير) ونقول : إن اللفظ الذي قاله الرسول : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه البيهقي (١٧٤/٩) بسند صحيح من حديث أسامة ورواه بنحوه
الحاكم (٤٨/٣) عن الزهري مراسلاً . وفي الباب أحاديث أخرى تراجع في « المجموع »
(٨٣/٩ — ٨٤) .

أبرزتها الحاجة حيناً آخر ، والأزمات التي تصاحب تكوين دولة من العدم ومسط
أُم تكيد لها وتترص بها الدوائر ، يجب أن تتوقع ، وأن توطن النفوس على
احتمالها . ولا تكون حدة الشعور بها سبباً في ضعف السيرة وعجز الهمة ...

وقد أخذ الله المسلمين — قبل معركة بدر وبعدها — بأمور بدرت منهم ،
يجب لهم أن يتزهدوا عنها . مهما بلغ من شدة الدوافع والبررات لارتكابها .
فهم يوم خرجوا من يثرب للملاقاة مشركي مكة ، تعلق أمانهم بإحراز العير
وما تحمل من ذخائر ونفوس ...

حقاً إنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وضجوا في سبيل الله بأنفسهم
وأولادهم ... فليعضوا في طريق الفداء إلى المرحلة الأخيرة ، ومهما عضهم الفقر
بنائه ، فليكن التنكيل بالكافرين أرجح في ميزانهم من الاستيلاء على الغنيمة .
« وإذ يعدكم الله لإحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات
الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يمحى الحق بكلماته ويقطع دابر
الكافرين » .

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الغنائم ومحولة كل فريق
الاستئثار بها ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرأ
فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون
وأكبت طائفة على المغنم بموزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله
لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ،
قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين
خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا نحن نحميها منها العدو وهزمناه ،
وقال الذين أحدثوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ،
فأنزل الله « يسألونك عن الانفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ « فقسمها رسول الله بين المسلمين ^(١) .

هذا التنازع المؤسف إثر البأساء الشاملة التي لحقت بالمهاجرين والأنصار على السواء . وقد نظر رسول الله إلى مظاهر هذا البؤس على أصحابه وهم خارجون إلى بدر ، فرنى لحلم ، وتألّم لما بهم ، وسأل الله أن يكشف كرباتهم فمن عبد الله بن عمرو ^(٢) قال : خرج رسول الله يوم « بدر » في ثلثمائة وخمسة عشر رجلا من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : اللهم إنيهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنيهم خفاة فأحلمهم ، اللهم إنيهم عراة فأكسهم ، ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وبامنهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حلين واكتسبوا وشبعوا .

إن الجوع والعري عندما يطول أمدها يترك في النفوس ندوبا سيئة ، ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح على أن هذه الأزمات إن أخرجت العامة وأهاجتهم إلى طلب العزاء والكساء لأنفسهم وذرائعهم بحرص ومجورة ، فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا ، وأن يكتموا أحاسيس الفاقة الملمحة فلا يتنازعوا على شيء ١٠

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٣٢٣ / ٥ — ٣٢٤) والحاكم (٣٢٦ / ٢) من طريق مكحول عن أبي أمامة عن عباد بن الصامت . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ! وأبو أمامة لم يره مكحول كما قال أبو حاتم فهو منقطع ، ومن هذا الوجه أخرجه ابن مشام (٧٦ / ٢) عن ابن إسحاق . ومن طريقه أحمد (٣٢٢ / ٥) لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود (١١ / ١٣٠) والحاكم وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قال . وبه صح الحديث .

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود (١٣ / ١ — ١٣٢) والحاكم : (١٤٥ / ٢) والبيهقي (٩ / ٥٧) وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ! وإنما هو حسن فقطه وحسنه الحفاظ في « الفتح » (٢٣٣ / ٧) .

وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسلمين ، وافتتح به السورة التي تحدثت عن القتال في بدر..

ذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم ، فإذا ساءت أخلاقهم للضوابط العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب إلى مزلق الفوضى أسرع.. وقد رأينا « الألمان » في الحرب العالمية الأولى و « الإنجليز » في الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام ، واصفرت الوجوه ، وما صارت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتجملين .

ومما حاسب الله عليه المسلمين حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى ، فإن الرغبة في استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الانتصاف من مآثمهم السابقة ، حتى يكونوا نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين ...

استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً ، قال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ! وإنى أرى أن تأخذ منهم للفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن نـمـسـكـنـى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه . ونـمـسـكـن علياً من عقيل بن أبى طالب ، فيضرب عنقه ، ونـمـسـكـن حمزة من فلان أخيه ، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صفاديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فقدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان ! فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبأ كيت لبكائك كما ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض على غذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة .

وأُنزل الله تعالى : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يُبشخن في الأرض ، تريدون عَرْضَ الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » .
لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١) .

إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترفتها الأسرى أيام حريتهم ، وهؤلاء الطغمة من كبار مكة ، لهم ماضٍ شنيع في إيذاء الله ورسوله ، وقد أبطرتهم منازلهم ، فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ، ما كان لها من داع ، فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم ؟

أذلك لأن لهم ثروة يفتدون بها ؟ ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه الأعراض التافهة متناسين ما فرط من أولئك الكفار في جنب الله .

إنهم مجرمو حرب — بالإصطلاح الحديث — لأسرى حرب ، وقد ندد القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها ، وبئس القرار » .

(١) حديث صحيح ، أخرجه مسلم (١٥٦/٥ — ٢٥٧) وأحمد (رقم ٢٠٨ ؛ ٢٢) والبيهقي (٦٧/٩ — ٦٨) من حديث عمر .

وهناك نصوص توصي برعاية الأسرى وإطعامهم ، وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم ، وهذا ينطبق على جماهير الأسرى من الأنباغ والعامه .
أما الذين تاجروا بالحروب ، لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأقتهم ، وذلك هو الإثنان في الأرض .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار ، فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة ، وإذا كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تقلم . فمن حق الحياة ، لكي تصلح ، أن تنقى من السفهاء والعتاة والآثمين ، ولن يقوم عرض أبداً عن هذا الحق ، ولو كان القناطير الملقطة من الذهب ، وقد أسمع الله نبيه وصحابته هذا الدرس ، حتى إذا وعوه وتذبروه عفا عنهم ثم أباح لهم — من رحمته بهم — الاتساع بما أخذوا من فداء فقال « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » . . . » .

في أعقاب بدر

شده العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون ، فلما استبان صدقه حصق نفر منهم فهلك لتوه ، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل . . .

وكما استبعد أهل مكة المزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها ، استبعد مشركوا المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشرىات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حد اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ، وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاة ، فسقط في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا القلب الذي

مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطوا على أنفسهم ، يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم . ويعلنون أن يوم الانتقام قريب ، ولم يزدحم المزيمة إلا كرهاً للإسلام ، ونقمة على محمد وصحبه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه ، فكان من ينشرح صدره للإسلام يختفى به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً .
ذلك في مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والخائلة ، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تقلى حقداً وكفراً ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي .

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب — كما أمرهم الله تعالى — ويصبرون على الأذى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو الذي أمره الله به — حتى أذن فيهم ^(١) .

فلما غزا بدرأ ، وقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه منصورين غائبين معهم أسراهم ، قال « عبد الله بن

(١) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في تكميله ، وإسناده صحيح كما قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » (١/١٥٣) .

أبيّ » ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه (أى استقر فلا مطمع في إزالته) فبايعوا رسول الله صل الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا . .
على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذى عان فيه فريق آخر من اليهود يسخطهم على محمد ، والمهم للهمزة التى أصابت قريشاً فى « بدر » بل إن كعب بن الأشرف — من رجالات اليهود — أرسل القصائد فى رثاء قتلاهم والمطالبة بثأرهم . !

ولقد اتسعت شقه للعداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابى .
ثم حاول اليهود أن يحرقوا من شأن الضر الذى حظى به الإسلام ، مما مهد للأحداث العنيفة التى وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجماعات .
أما البدو والصاربون حول المدينة وعلى طرق القوافل ، فهم قوم همل ، لا يهمهم شىء من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهمهم اكتساب القوت من أى وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب . وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على أنهم لا يرعون حرمة ولا يخشون إلا القوة ، ولولا بطش السعوديين بهم ما أمن طريق الحج قط ! وقد سبق لهم استيلاء على المدينة ، وما ورثوه من جاهلية طامسة ، جعل قلوبهم مع مشركى الجزيرة ، وقد ذهروا لانتصار المسلمين فى بدر ، وأخذت جموعهم تحتشد ، تبغى انتهاء فرصة للإغارة على المدينة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نهض إلى جموعهم فشتتها ولم يبق فى إرهابهم متاعب ذات بال .

بدء الصراع بين اليهود والمسلمين

لم تحدث المسلمين أنفسهم بنقض عهود اليهود ، ولا فكروا فى طردهم من أرض الجزيرة ، بل على العكس ، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم (١٧ - فقه السيرة)

في حرب الوثنية المخرفة وتدعيم عقيدة التوحيد ، ورجا المسلمون أن يصدق اليهود
محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يثبت به الله من تنزية ومجد ، وأن تكون صلتهم بالكتب
القديمة وألفهم لأحاديث المرسلين سبيلاً في إقناع العرب الأُميين بأن الرسلات
السموية حق والإيمان بها واجب .

وهذه المشاعر الحسنة تغمشى مع القرآن النازل يومئذ ، يؤسسها ويؤكددها :
« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، آتَتْ مُرْسَلًا . قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

« وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ
مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ
أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابٍ » .

يبد أن لليهود كانوا عند أسوأ الظن فلم تمض أيام على اختلاطهم بالمسلمين
في المدينة حتى شرعوا يخرجون صدورهم ويعينون عليهم ، ولو أنهم كذبوا
بمحمد صلى الله عليه وسلم كما كذبوا بعبسى من قبل ، واعتقدوا أن ما وراء
توراتهم باطل باطل ، واكتفوا بأداء عبادتهم في بيعهم ، وحبسوا في أفواههم
المطاعن على أنبياء الله ... لتركهم المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة ،
دون حرب أو ضرب .

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في نقضها . أما أن
يصطدم الإسلام بالشرك فينضم بنو إسرائيل بعواطفهم وألسنتهم ودعايتهم ضد
محمد وصحبه فهذا مالا يستساع .

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر ، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا
لرسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا يفرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب
فأصبحت منهم فرصة . أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ! !

وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء المنقلب « قل للذين كفروا : مُستغلبون وتحشرن إلى جهنم وبئس المهاد » قد كفى لكم آية في فئتين المتقاتلة تُقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يُؤيد من يشاء * إن في ذلك لآية لأولى الأبصار .

والآية الأخيرة تذكير بما وقع في بدر .

وأول من كشف عن ضعفه وهزأ بالإسلام وأهله ، يهود بنى قينقاع ، المقيمين داخل المدينة نفسها ، وكظم المسلمون غيظهم ، وانهظوا مائة مائة مخض عنه الليالي من مكر اليهود .

وسعى هؤلاء إلى حثفهم بظلفهم فقد حدث أن امرأة عربية قدمت بحليها في سوق بنى قينقاع ، جلست إلى صائغ هناك ، فاجتمع حولها نفر من اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهي غافلة فعقده إلى ظهرها .

فلما قامت انكشفت سوءتها وضحك اليهود منها ! وصاحت المرأة فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وهكذا طارت الشرارة ووقعت الحرب بين المسلمين وبنى قينقاع .

وكان ذلك في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة .

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ، ففرض الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم الحصار ، وأحكمه خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى التسليم ، ورضوا بما يصنعهم رسول الله في رقابهم ونسائهم وذريتهم فلما أمكن الله منهم جاء عبد الله بن أبي فقال يا محمد أحسن في موالي — وكانوا حلفاء الخزرج — فأبطأ عليه رسول الله ، فكرر ابن أبي مقالته : أحسن في موالي . فأعرض عنه الرسول . فأدخل يده في

جاء بدفعه ، فتغير لون النبي وقال له : أرساني ، وغضب حتى رآوا لوجهه ظلالا .
ثم أعاد أمره وهو مغضب : أرسني ويحك ! قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى
تحسن في موالى ، أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود ،
تخصمهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله :
هم لك ^(١) على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورنا بها .

فرحلوا إلى « أذرعات » بالشام ولم يبقوا هناك طويلا حتى هلك أكثرهم .
أما كان خيرا لهم أن يؤدوا حقوق الجوار ، ويعرفوا قيم اليهود ، ويبقوا في
المدينة آمنين موفورين ؟ لقد تعجلوا الشر فباءوا به . . . وفي حوار عبد الله بن أبي
مع الرسول عليه الصلاة والسلام نزل قوله تعالى : فترى الذين في قلوبهم مرض
يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن نصيبنا دائرة فحسى الله أن يأتي بالفتح
أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أمرُوا في أنفسهم نادمين ^(٢) . ويحسن
أن نتأمل في سيرة هؤلاء اليهود ، وسر نفعتهم الشديدة على الإسلام ونبيه ونحيزهم
المعيب إلى الوثنية في فضال الإسلام معها .

أصحح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسيا لادينيا ؟ وأن الافراد بالسلطان
في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

إن التعلل في فهم العواطف والمشاعر الإنسانية ، يفسر كثيرا من المواقف

(١) إلى هنا رواه ابن هشام (٢ / ١٢١) عن ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن
قنادة مرسلأما بآقيه فلم أقف عليه الآن .

(٢) رام ابن اسحاق (٢ / ١٢١) عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت وابن
جرير عن عطية العوفي وعن الزهري . وكلها مرسلات . وقد أشار ابن كثير في تفسيره
(٢ / ٦٨) إلى تضعيف نزول الآية في ابن أبي وأالله أعلم .

الغامضة . لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للنصرانية في صراعها مع المجوسية
ويعجزون لانكسار الروم أمام الفرس . مع أن الإسلام لم يكن قد اتصل بعد
بالنصارى اتصالاً يبرر هذا الجاس . لكنه الشعور الطبيعي الوحيد الذي ينتظر
من الرجل المخلص لدينه ، فالمسلمون أصحاب كتاب يدعو إلى التوحيد ، والنصارى -
وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة - فهم - على كل حال -
أهل كتاب ، ويعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية
الصرخة الشريك ، ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ! ومن الاحترام للحقيقة التي
معك أن تقترب مما يقرب منها ، وأن تباعد عن كل ما يبعد عنها .

وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار
الفرس ، وعدوه رمزاً لغلبة الوثنية في كل صورها على أديان السماء جميلة . . .

فما معنى أن يفضب اليهود للموحدين - كما يزعمون - من انتصار الإسلام على
الشرك . وبم يفسر حنوهم على القتل من عبدة الأصنام ، وسعيهم الخيث لتغليب
كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد ؟ ؟ ؟

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين وأن
سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي ، وأنهم لا يكثرثون بما يقترب
من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة ، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شمواتهم
الغالبة وأثرهم اللازمة . ومن ثم شكك القرآن في قيمة الإيمان الذي يدعيه
القوم :

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا: نُوْمُنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ * قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ... »

والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة . فلما تَوَّهَّم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ، ظهر الكفر الخبيث فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين .

ولم يعرف أولئك شرفاً في حرب الإسلام . ولم يقفهم حد أو عهد في الكيد له فلم يكن بد من إجلائهم ، وتنظيف الأرض منهم .

وقد تعقب المسلمون كل غادر بعده ، مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ورأيها ، مظهر للعطف والأسف على ما أصابها . . تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود وسراهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقات العادل « كعب بن الأشرف » فإن كعباً هذا سافر إلى مكة - من المدينة - يواسي مشركيها الممزمزين في بدر . وبحرصون على إدراك ثأرهم من محمد صلى الله عليه وسلم ومحابته . وهو الذي سأله أبو سفيان أناشدك الله . أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق ؟ إننا نطعم الجزور الكوماء ونسقي اللبن على الماء . ونطعم ما هبت الشمال .

قال له كعب : أنتم أهدى منهم سبيلاً فأُنزل الله على رسوله .

« ألم تر إلى الذين أوْتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجيبات والطاغوتِ ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . »

وعاد كعب إلى المدينة سافر العداوة ، بعيد الجراءة ، حتى أنه صاغ قصائد الغزل في بعض النساء المسلمات ... وليس بعد ذلك صبر ، فأهدر المسلمون دمه .

وبعث إليه النبي من استنزله من حصنه ليلتي جزاء الحق .

ذهب إليه « محمد بن مسلمة » و « أبو نائلة » بعدما استأذنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقولوا فيه ما يطمئن اليهودي إلى تبرمهما بالاسلام ، أتاه « محمد ابن مسلمة » فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عانا ، وإني قد أتيتك أسئلتك !! . قال كعب : والله لئلمنه ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نجب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شئ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني قلت : أى شئ تريد ؟ قال أرهنوني نساءكم ! قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ .

قال : فترهنون أبناءكم . قال : يسب ابن أحدنا فيقال : رهن في وسق أو وسقين من عمر . ولكن نرهنك السلاح ...

وصنع أبو نائلة ما صنع محمد بن مسلمة ، قال لليهودي : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ! عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهمدها وجهد عيالنا ! ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، ورضى كعب - أخيراً - أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم .

وإلى هذا قصدوا ، فإن كعباً لن ينكر السلاح معهم وهو الذى طالب منهم .

وفي ليلة مقمرة انطلقوا إلى حصنه ليقبضوا ما توعدوا عليه : فقالت امرأته وقد سمعت النداء : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، قال كعب : لو دعى الفتى لطفنة لأجاب ، فنزل متوشحاً تنفح منه رائحة الطيب . واستدرجه القوم في الحديث والسير ، ثم زعم أبو نائلة أنه يريد أن يشم الطيب من شعره ، فسرح فيه يده وهو يقول : ما رأيت كالليله طيباً أعطر ، وزهى كعب بما سمع أو عاد

أبو نائلة فوضع يديه في شعر اليهودى حتى إذا استمكن من فؤديه قال لصحبه : دونكم عدو الله ، فاخترقت عليه أسيافهم ^(١) . دخلت في بدنه الأسلحة التى طلبها رهاناً بدل النساء والأبناء ..

وصاح كعب صبيحة لم يبق معها حصن إلا أوقدت عليه النار استجلاء للخبر فلما طلع الصباح علمت يهود بمصرع جبارها ، فذب الرعب فى القلوب العنيدة ، وأسرعت الأفاعى إلى حجورها تنجيء فيها ..

لقد أجدت العصا حين أعيت النصيحة وبطل المقال . ولزم اليهود حدودهم فلم يتجرأوا على المسلمين بسب ، وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركاً بعد اليوم ...

وهكذا تغر الرسول عليه الصلاة والسلام - إلى حين - لمواجهة الأعراب المشركين ..

مناوشات مع قريش

لم يقتدر المسلمون بانصر الذى نالوه فى « بدر » ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم والإعداد لهم . وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تنى عن الانتقام لنفسها وإن نستكين للسكرانة التى حلت بها .

(١) حديث صحيح ، رواه ابن هشام (١٢٣ / ٢ - ١٢٤) عن ابن إسحاق حدثني هبدا الله بن الليث ابن أبي بردة به نحو ، وهذا سند ضعيف مرسل أو معضل ، وعبد الله هذا ترجمه ابن أبي حاتم (١٧٤ / ٢) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . ورواه البخارى (١٠٦ / ٥ - ١٠٧ / ٦ ، ١٢٠ - ١٢١ / ٧ ، ٢٧٢) ومسلم (١٨٤ / ٥) ؛ (١٨٥) وأبو داود (١١ / ١٣٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه نحوه ، والظاهر أن سياق الكتابة مركب من الروايتين . والحديث رواه البيهقي (٨١ / ٩) من حديث جابر . ثم رواه من حديث موسى بن عقبة معضلاً .

ورأى أبوسفیان - حفظاً لمكانة قومه وإبرازاً لما لديهم من قوة - أن يتعجل عملاً قليل المغارم ظاهر الأثر . فقرر أن يفاجئ المدينة بغارة خاطفه يعود عقيها وقد رد لقريش بعض سمعتها ، وألحق بالمسلمين ما يستطیع من خسائر .

تم إن أبوسفیان كان نذر الأيس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً صلى الله عليه وسلم ، وينبغي أن يبر في قسمه .

فخرج في مائتي راكب حتى وصل إلى مساكن بنى النضير في جناح الليل - بأطراف المدينة - ، ونزل على « سلام بن مشكم » من سادة اليهود . فتعرف منه أخبار المسلمين ، وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قواهم .

واهتدى أبوسفیان إلى العمل الذى وفى به يمينه ، وحقق به غايته ، فهجم برجاله على ناحية يهل لها : العريض . وحرقوا أسواراً من نخيل بها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له فى حرث لها فقتلوهما . ثم لاذوا بالقرار عائدين إلى مكة .

وشعر المسلمون بما حدث . فانطلقوا وراء أبى سفیان ورجالهم يطاردونهم ويبتغون الإيقاع بهم وأحس المشركون بالطب فجدوا فى الحرب . والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين فى الإحراق بهم ، فلما أحس أبوسفیان بالخطر أخذ يتخفف من الأوزاد التى يحملها حتى تمكن من النجاة . وعثر المسلمون فى طريق المطاردة على هذه المؤن وأكثرها من السويق فسموا هذه المناوشة الطريقة غزوة السويق !

o . o . o

ولم تقل قرش من هذه الغارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها فكسرت أن تتجنب الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية ولسكن أى لها ذلك ، وتجارهم تمر فى الغدو والرواح بالمدينة ؟ .

قال صفوان بن أمية لقريش : « إن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه عوروا علينا متجرباً فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل

قد وادعوم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ . وإن أقننا في دارنا هذه .
أكلنا رهوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام
في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » فقال له الأسود بن عبدالمطلب . تنكب الطريق
على الساحل . وخذ طريق العراق . ودله على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل
ليكون رائدكم في هذه الرحلة .

وخرجت عبر قریش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن
نعيم بن مسعود ، قدم المدينة يحمل أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها . واجتمع في
مجلس شرب - قبل تحريم الخمر - بسليط بن النعمان فباح له بسرها . فأمرع سليط
إلى النبي صلى الله عليه وسلم يروي له القصة ، فبعث النبي لوقته « زيد بن حارثة » في
مائة راكب يعترضون القافلة . فلقيا زيدا عند ماء يقال له القرادة ، فاستولى عليها
كلها : وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، وفر المشركون مذعورين . فلم يقع
في الأسر غير فرات بن حيان .

فلما جرى به إلى المدينة دخل في الاسلام ...
واقعد حزن مكة لهذه النكبة الجديدة ، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة
بثأرها ، والتهوؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة . فكان ذلك وما سبقه من أحداث
التمهيد القوي لمعركة «أحد» في السنة الثالثة للهجرة .



ولا يفوتنا إذ نتابع النشاط العسكري للإسلام في سنتيه الأولىين بالمدينة ،
أن نذكر بعض الشؤون الهامة الأخرى . فقد توفي خنيس بن حذافة السهمي زوج
حفصة ابنة عمر بن الخطاب . وهو رجل صالح ممن شهدوا بدرًا . فلما تألمت منه ،
أراد أبوها أن يتخير لها زوجًا . قال عمر : فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه
حفصة ، فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر !! فقال سأنظر في أمري !
فلبث ليالي ثم نقيته فعرضت عليه . فقال : قد بدا لي ألا أتزوج .

قال عمر : فلقيت أبا بكر فقلت له : إن شئت أنكحك حفصة ابنة عمر :
فصمت ولم يرجع إليّ شيئاً ، ! فكنت عليه أوجد منى على عثمان ..
فلبثت ليالى فخطبها منى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتمها إياه . فلقيني
أبو بكر فقال : لعلمك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟
فقلت : نعم ، فقال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت
هملت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها . فلم أكن لأفشى سر رسول
الله ولو تركها لقبلتها (١) ...

وانجاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبى بكر .
ثم تزويجه ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان - بعد وفاة
رقية - يشير إلى إن النبي صلى الله عليه وسلم يبنى من وراء ذلك توثيق الصلات
بالرجال الأربعة . الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام ، فى الأزمان التى مرت
به وشاء الله أن يجتازها بإسلام .

ومن السنة الثانية للهجرة فرض صيام رمضان ، وزكاة الفطر وبينت أنصبة
الزكاة الأخرى . ومن أجل ماوقع فى هذه السنة تحويل القبلة من بيت المقدس
إلى الكعبة المطهرة . وقد كان هذا الانتقال مثار تعيظ اليهود واستنكارهم
الشديد .

كانوا - قبله - يؤملون فى متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام لهم (١) ولعل
أساس موادعهم له ظنهم الإفادة منه واستغلال أنصاره ! فلما تميز الإسلام بقبلته
الجديدة ، امتلأت أنفسهم باليأس . ودفعهم خيبة الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام
وتبنييت السوء له .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٩ / ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٥٢) والنسائى
(٢ / ٧٥ - ٧٦ ، ٧٧٠) وأحمد (رقم ٧٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وقد أحبط القرآن حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغيير القبلة .

« سيقول السفهاء من الناس : ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟
 قل : الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .. »

« ايس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر
 من آمن بالله واليوم الآخر .. »

إن الله رب الأزمنة والأمكنة جميعاً ، وتوجيه أمة إلى قبلة معينة ، لا يعنى انحصاراً في إحاطته ، أو قصوراً في ربوبيته . لقد كانت عودة المسلمين إلى الكعبة رجوعاً إلى الأصل الذي بناه أبو الأبياء إبراهيم . وفي العودة إلى الأصل ، تنزه عن الإنحرافات التي حدثت بعد من الذراري الضالين ، وخصوصاً بنى إسرائيل . لم يهدأ بال قریش مذغشياً في « بدر » ماغشياً وكان ماجد من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضرماً . فاما استدارت السنة ، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين ، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله . فخرج الجيش التأثر في عدد يربو على ثلاثة آلاف .

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه ، حتى يكون ذلك أبلاغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرمانهم وأعراضهم ؟ وكانت الترات القديمة والغليظ السكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير . وفي أوائل شوال من السنة الثالثة ، وصل الجيش الزاحف إلى المدينة ، فنزل قريباً من جبل « أحد » وأرمل خيله ترعى زروعها الممتدة هناك !

واجتمع المسلمون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يتدبرون أمرهم .

أيخرجون لمقاتلة العدو في العراء أم يستدرجونهم إلى أزقة المدينة ، حتى إذا دخلهم قاتله الرجال في العارق ، وقاتله النساء من فوق أسطح البيوت ؟؟

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل إلى الرأي الأخير ، وأيده فيه رجال من أولى النظر والروية . وقال عبد الله بن أبي : هذا هو الرأي ! لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرأ ، تحمسوا للخروج ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ! وظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد . وبدا أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز للملاقاة العدو فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيئته وخرج منه لابساً عدته ، متهيئاً للقتال .

وشعر القوم أنهم استكروا الرسول صلى الله عليه وسلم على رأيهم ، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيهم ! بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد غضاضة من الاضطراب بين شتى الآراء . فقال : ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه (١) .

وقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتكم إلا الخروج . فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه (٢) ..

ثم خرج في ألف رجل حتى نزل به « أحد » إلا أن عبد الله بن أبي انسحب

(١) رواه ابن هشام (٢/ ١٢٦ - ١٢٨) عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره مرسلاً وقد وصله أحمد (٣/ ٣٥١) من طريق أبي الزبير عن جابر نحوه وسنده على شرط مسلم غير أن الزبير مداس وقد عنفنه . ولكن له شاهد من حديث ابن عباس الذي أخرجه البيهقي كما في « البداية » (٤/ ١١) بسند حسن فالحديث صحيح وقد رواه أحمد أيضاً (رقم ٢٦٠٩) والحاكم (٢/ ١٢٨ - ١٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبي وهو حديث طويل في غزوة أحد سيأتي بعض فقراته في الكتاب .

(٢) ذكره ابن كثير (٤/ ١٢ - ١٣) من رواية موسى بن عقبة معضلاً .

في الطريق بثلت الناس . قائلًا ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومحتجًا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره .. !!

فتبعهم عبدالله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - ينصحهم بالثبات ؛ ويؤنبهم على العودة ، ويذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين ، إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم والآخر ، وثقة بالإسلام ورسوله .

فأبى « ابن أبى » الاستماع إليه . وفيه ومن انسحب معه نزلت الآية :
« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا .
قائلوا : لو نعلم قتالًا لا تبعنكم » هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان »

* * *

عسكر المسلمون بالشعب من « أحد » في عدوة الوادى ، جاغلين ظهرهم إلى الجبل . ورسم النبي صلى الله عليه وسلم الخطة لكسب المعركة . فجاءت محكمة رائحة . وزع الرماة على أماكنهم وأمر عليهم عبدالله بن جبير - وكانوا خمسين رجلًا - وقال : انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ! إن كانت الدائرة لنا أو علينا قاتلوا أماكنكم ، لا تؤتبن من قيلكم (١) ! وفي رواية قال لهم : احموا ظهورنا إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ! وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا ! واطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن فرقة الرماة قد أمنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتعهد مقدمته . وأمر ألا ينشب قتالًا إلا بإذنه .

(١) حديث صحيح . أخرجه ابن هشام (٢ / ١٢٩) عن ابن إسحاق بدوئ إسناد ، وله شواهد كثيرة ، منها عن البراء بن عازب أخرجه البخارى (٧ / ٢٨٠) وأبو داود (١ / ٤١٥) وأحمد (٤ / ٧٩٣ ؛ ٢٩٤ . ومنها عن ابن عباس . وهو الرواية الثانية التى فى الكتاب . أخرجه أحمد والحاكم وصححه كما تقدم قريباً .

وظاهر هو نفسه بين درعين^(١) ، وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكفونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان .

إن عدد المسلمين على الربع من المشركين . وإن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد .

روى ثابت^(٢) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمسك يوم « أحد » بسيف ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأججم القوم . فقال أبو دجانة : أما آخذه بحقه فأخذه فقلقه به هام المشركين ، قال ابن إسحاق : كان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يخالع عند الحرب ، وكانت له عصاة حراء إذا اعتصب بها ، علم أنه سيقاتل حتى الموت فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعصب وخرج يقول .

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول
وبعني بعدم قيامه في الكيول . ألا يقاتل في مؤخرة الصعوف ، بل يظل أبداً في المقدمة .

ثم تدانت الفئتان وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لرجاله أن يجالدوا العدو ، وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة . كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ! وظهروا المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .

(١) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم (٢٥ / ٣) وعنه البيهقي (٤٦ / ١) من حديث الزبير بن العوام . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو حسن الإسناد عندي وأخرجه الترمذي (٢٨ / ٣) واستغربه . وله شواهد كثيرة . منها ، عن السائب بن يزيد عن رجل قد سماه . أخرجه أبو داود (٤٠٤ / ١) والبيهقي . وبقيّة الشواهد تراجع في « المجموع » (١٠٨ / ٦) .

(٢) كذا وقع في تاريخ ابن كثير (١٥ / ٤) معزواً لأحمد ، فنقله المؤلف كذلك وإنما هو عن ثابت عن أنس ، كذلك أخرجه أحمد (١٣٣ / ٣) ومسلم أيضاً (١٥١ / ٧) .

خرج حفظة بن أبى عامر من بيته حين سمع هواتف الحرب ، وكان حديث
عم — يد بعرس ، فأنخلع من أحضان زوجته ، وهرع إلى ساحة الوضى حتى
لا يفوته الجهاد .

إن حادى التضحية كان أملك لنفسه وأملاً لحسه من داعى اللذة . فاستشهد
البطل وهو جنب !!

وسادت روح الإيمان المحض صفوف المجاهدين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك
انطلاق الفيضان ، تقطعت أمامه السدود .

وقف طلحة بن أبى طلحة العبدري حامل لواء قريش يتحدى ، داعياً إلى
البراز ، فوثب إليه الزبير بن العوام حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض
فألقاه عنه وذبحه بسيفه !!

وأقبل أبو دجانه معلماً بعصابته الجراء لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وكان أحد
المشركين قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين فى المعركة ! قال كعب بن
مالك : وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته . فضيت حتى كنت من
ورائه ثم قتت أقدر المسلم والكافو ببصره ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ،
فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف ،
فبليت وركه ، وتفرق فرقتين !! ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى
يا كعب ؟ أنا أبو دجانة ...

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتل الليوث المتهاجة . وصمد لجملة اللواء من بنى
عبد الدار فالتصص أرواحهم فرداً فرداً .

قال « وحشى » غلام جبير بن مطعم : قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد
فأنت عتيق ، قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف
الحبشة فلما أخطى بها شيئاً . فلما التقى الناس فخرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيت
كأنه الجبل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدا ، ما يقوم له شيء ! فوالله إني لأنهيأ له
أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنومنى . إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما

رآه حمزة قال : لم إلى يابن مقطعة البظور ؟ قال : فضربه ضربة كأنما اختطفته رأسه . فهزرت حربتي . حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت في ثلثته — أحشائه — حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغاب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر فعدت فيه . إذ لم تسكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق .

ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل حمزة فإن جيشهم القليل ظل مسيطر على الموقف كله ، وحمل لواء المسلمين في هذا القتال « مصعب بن عمير » الداهية العظيم فلما استشهد حمل اللواء على بن أبي طالب « واستبق المهاجرون والأنصار في ميدان الشرف ، وأخذ اللواء الإسلامي يتقدم خطوة خطوة . وشعار المسلمين في هذا الاتحام « أمت أمت » .

وكانت نسوة قریش ذائبات على استنهاض رجالهن ، يضررن بالدفوف ، ويمحرضن على القتال ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان .

فكانت تقول — حاثمة بنى عبد الدار على إبقاء لواء مكة مرفوعاً :

وبها بنى الدار وبها حماة الأديار
ضرباً بكل بشار ١١

وتؤز قومها على القتل منشدة :

إن تقبلوا نعاقي ونفرش النماقي ١١
أو تدبروا نفارق فراق غير وامي ١١

وقد بذات قریش أقصى جهدها لتحطيم عنفوان المسلمين . لكنها أحسنت العجز وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم .

قال ابن إسحاق . ثم أزل الله نصره وصدق وعده ، فحشوم بالسيوف حتى كشفوم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خـدم
— سوق — هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل
ولا كثير ...

• • •

قد يجد المرء نفسه في حفل بموج بالأنوار ، وتنتشر في أجوائه الأشعة المبصرة
ثم يقع خلل مفاجيء يقطع التيار ، فإذا المصاييح تعدم ، ثم يسود المكان ظلام
موحش مقيم ! .

إن هذا مثل التحول المستنكر الذي قلب سير الحوادث في معركة (أحد).

لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند ، فأوقعت
الارتباك في صفوف الجيش كله ، فضاعت في ساعة نزع كل المكاسب التي أحرزتها
الشجاعة النادرة ، والتضحية البالغة . . !

لقد علمت كيف شدد الرسول عليه الصلاة والسلام على الرماة أن يلزموا
أما كنهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوها أبداً ، ولو رأوا الجيش
تخطفه الطير ؟ غير أن إثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة في ساعة غفلة ؟
فما إن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن في الجبل ، والرجال يولون
الأدبار ، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي ... حتى غادروا
مواقعهم هابطين إلى الميدان ، يبعون انتهاب أنصبهم من الأسلاب والأموال ؟

وكان فرسان المشركين بقيادة (خالد بن الوليد) محصورين ، لا يجدون تفرقة
ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت الهزيمة ، فلما رأى خالد أن مؤخرة
المسلمين انكشفت . فلم يبق عليها حارس ، اهتبل الفرصة على عجل ، فاستدار بالخيـل

وأحدق بخصومه منحدرأ عليهم من حيث لا يحتسبون . ورأى القارون من قريش بوادر هذا التغير الطارىء ، فراجعوا حتى إن امرأه تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية ، هى التى رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصرع حملته ؟ وثاب المشركون إلى رايتهم وخيالهم . فأحيط بالصحابة من الأمام والخلف ووقعوا بين شقى الرحى ..

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة ، إنهم شد هوا لما حدث . ولكنهم أخذوا يقاتلون بجرارة ، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا فحسب ! أن يبصروا طريقاً يخلصهم من هذا المأزق العضوض !

واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم . واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبی . فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجّه فى وجهه فأثقله وقبّج منه الدم ^(١) . وشاع أن محمداً قتل ، فتفرق المسلمون ، ودخل بعضهم للدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل . واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون ..

إلا أن النبی صلى الله عليه وسلم جعل يصيح بالمؤمنين : إلى عباد الله . إلى عباد الله ! فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً ، غير أن للشركين بصروا بهم فهاجموهم ! ووقف طلحة بن عبيد الله ، وسهل بن حنيف ، إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام . فأصيب طلحة بسهم فى يده فشلها .

وأقبل أبى بن خلف الجمحى على النبی عليه الصلاة والسلام وكان قد حلف

(١) رواه ابن جرير فى تاريخه عن السدى مرسلًا كما فى « البداية » (٢٣/٤) ؛ وكسر رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج رأسه ثابت فى مسلم (١٧٩/٥) من حديث أنس ؛ ورواه البخارى (٢٩٢/٥) معلقاً .

أن يقتله . وأيقن أن الفرصة سانحة فجاء يقول : يا كذاب ابن نفر 1 وحمل على الرسول بسيفه .

فقال النبي : بل أنا قاتله إن شاء الله . وطأته في جيب درعه طعنة وقع منها بخور خوار الثور ، فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى مات (١) .

ومضى النبي صلى الله عليه وسلم يدعو المسلمين إليه ، واستطاع — بالرجال القلائل الذين معه — أن يصعد فوق الجبل ، فأنحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار .

وفرح النبي عليه الصلاة والسلام أن وجد بقية من رجاله يتمتع بهم ، وعاد هؤلاء صوابهم إذ وجدوا الرسول حياً ، وهم يحسبونه مات .

ويبدو أن إشاعة قتل النبي سرت على أفواه كثيرة ، فقد مر أنس بن النضر بقوم من المسلمين وألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال : ما تنظرون؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ؟

قوموا فموتوا على ما مات عليه تم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى قتل . .

ولم تتوان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن انحاز إليه من أصحابه بغية الإجهاد عليه وعليهم . ومرت ساعة عصبية من أخرج الساعات في تاريخ الدنيا ، وفرسان المشركين ورماتهم يحملون — بهناد وإلحاح — لتحقيق أمنيتهم .

(١) هو من حديث السدي المتقدم . وقال ابن كثير : انه غريب جداً وفيه نكارة . لكن هذا النذر وهو قصة قتله صلى الله عليه وسلم لأبي بن خلف له شاهد من رواية أبي الأسود عن عروة بن الزبير ، ومن رواية الزهري عن سعيد بن المسيب كافي (البداية) (٢٢/٤) وكلاهما مرسل .

مقتل بين يدي النبي خلق كثير وهم يناخون دونه ، جالدم طلحة حتى أجبرهم عنه ، ثم سقط بين حمى وميت ، وترس عليه أبو دجانة بظهره فكان النبل يقع فيه ولا يتحرك .

روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم « أحد » في وسبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما أرقعه المشركون قال : من يردم عنى وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ! ثم أرقعه فقال من يردم عنى وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله : ما أنصفنا أصحابنا — يعني من فروا وتركوه !

وتركت هذه الاستبانة أثرها ، ففترت حدة قريش في محاولة قتل الرسول وثاب إليه أصحابه من كل ناحية وأخذوا يلون شملهم ويزيلون شعهم . وأمر النبي صحبه أن ينزلوا قريشاً من القمة التي احتلوها في الجبل قائلاً : ليس لهم أن يعملوا . فخصبهم بالحجارة حتى أجلوهم عنها ^(١) .

* * *

إن الإفلات من عواقب هذا الانكسار الشنيع عمل لا يقل - في خطره - عن الانتصار الأول وقد اتجه عزم الرسول إلى بذل كل جهد ممكن في سبيل مقاومة قريش حتى لا تنظر بشيء ماغنيمة باردة . بل حتى تنقل بها مغارمها فلا تطمع في مزيد من إيذاء المسلمين فكان ينقل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص ويقول ارم فذاك أبي وأمي ^(٢) . وكان أبو طلحة الأنصاري رامياً ماهراً في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله فكان إذا رمى رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هو من حديث السدي المتقدم .

(٢) رواه البخاري (٢٨٧/٧) من حديث سعد .

شخصه ينظر أين يقع سهمه ويرفع أبوطلحة صدره قائلاً : هكذا بأبي أنت وأمي ، لا يصيبك سهم ، نحوى دون نحر ك^(١) ويقول : أنى جلد يارسول الله فوجهنى فى حوائجك ومصرنى بما شئت !! وقد نجح الرماة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رد المشركين الذين حاولوا صعود الجبل وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبي ومن معه .

إلا أنهم جاءوا وكأنما خرجوا من عماية ، حتى أن بعضهم — من فرط الغيظ والذهول — قاتل أمانة لا يدري من يقاتل ، فقاتل اليمان والد الصحابي المعروف حذيفة وصرح حذيفة : أبا أبى ! دون جدوى .

ولما تجمعت فلول المسلمين بعد هذا السكر والفركان الإعياء قد نال منها أى منال لولا أن الله قذف فى قلوبهم السكينة . وأعاد إليهم — بعد هذا الزلزال — الأمل والثقة فسكنوا حول رسول الله يرقبون ما يجد . وداعب الكرى أجفان البعض من طول التعب والسهرة ، فإذا أغفى وسقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب للعراك من جديد ! وهذا من نعمة الله على القوم « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانةً نسميها طائفةً منكم ... »

ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأحوال ذلك اليوم العصيب .

فقد تعبت جد التعب فى الجولة الأولى فلما أذبل لها وطمعت أن تجعل المعركة حاسمة قاصية وجدت المسلمين أصلب هوداً . دون إفتانهم صعاب لاستطيع احتمالها فاكثفت مما ظفرت بالإياب .

وظن المسلمون — لأول وهلة — أن قريشاً تنسحب لتهاجم المدينة نفسها .

(١) رواه البخارى (٨٨٩/٧ - ٢٩٠) من حديث أنس . وكذلك أخرجه أحمد وعنده فى رواية قول أبى طلحة : « أنى جلد ... »

فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب : أخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة . فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم فيها .

قال علي : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل وأنجموا إلى مكة^(١) .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هُبل ! فقال رسول الله لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل . لا سواء . قتلانا في الجنة وقتلناكم في النار .

فقال له أبو سفيان : هلم إلى يا عمر .

فقال رسول الله لعمر : ائتته فانظر ما شأنه . فجاءه .

فقال له أبو سفيان : أُنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا ؟

فقال عمر : اللهم لا ، وأنه ليسمع كلامك الآن . قال . أنت عندى أصدق من ابن قبيصة — وهو الذى زعم أنه قتل النبي .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مثله ، والله ما رضيت ولا مسخطات وما نهيت ولا أمرت^(٢) .

(١) روى ابن هشام (١٤٠/٢) عن ابن إسحاق بدون اسناد .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وإسناده حسن كما تقدم فى أول معركة أحد : قوله شاهد من حديث البراء عند البيهقى وغيره . وقد سبق نخرجه قريباً . وشاهد آخر من حديث ابن مسعود أخرجه أحمد (رقم ٤٤١٤) وفيه حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب وقد سمع منه فى حالة الاختلاط كما سمع منه قبلها ولهذا قال الحافظ ابن كثير (٤١/٤) : (هذا إسناد فيه ضعف) وهذا هو الصواب خلافاً لقول الشيخ أحمد محمد شاكر : إنه صحيح . ذهل عماد ذكر من سمعه —

ولما انصرف أبوسفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد (٢) .

عبر المحنة

موقعة « أحد » فياضة بالمعظات الغوالي والدروس القيمة . وقد نزلت في أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال . وكان لها في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته . كانت امتحاناً ثقيلاً الوطأة محض المرأثر ومزق النقاب عن محبوبها . فامتاز النفاق عن الإيمان ، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه فعرف الذين ركوا الدنيا بنعالم فلم يرجوا على مطمع من مطامعها والذين مالوا إليها بعض الميل فنشأ عن أطاعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة .

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبى وهو عمل ينطوى على استهانة بمستقبل الإسلام وغدر به في أخرج الظروف . وتلك أبرز خسائس النفاق .

والدعوات - إبان امتدادها وانتصارها - تفرى الكثير بالانضواء تحت لوائها فيختلط الخالص بالمغرض ، والأصيل بالدخيل . وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإنتاجها .

ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة تعزل الخبيث عنها وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التحميم في أحد .

== منه في الاختلاط . وقد صحح فضيلة الشيخ كثير من الأحاديث في تعليقه على المسند وغيره . كلها من هذا الطريق . فليتنبه لهذا .

(١) لم أجده الآن عند غير ابن اسحاق .

« ما كان الله ليذرك المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطالعكم على الغيب » .

فالجبن والنكوص هما الاذان كشفا عن طوية المنافقين ، فانتضخوا ، أمام أنفسهم وأمام الناس . قبل أن تعلن عن نفقهم السماء ..

فإذا تجاوزت السفوح التي يدب عليها أولئك المنافقون ، وثبت إلى ذرا شاحنة للآيمان البعيد النور . البقي العنصر . يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتداء به القتال ، ثم مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذي حمل المسلمون عبئه . عند ما ارتدت الكرة للمشركين ، ورجحت كفهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بعزماتهم ، هم الذين صلوا هذه الحرب ، وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

روى أن « خيشمة » قتل ابنه في معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت - والله - عليها حريصاً . حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج - في القرعة - سهمه . فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأثمارها . يقول : إلحق بنا تراءفنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ثم قال . وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبرت سني وورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي . فداع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني خيشمة في الجنة . فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له . فقتل بـ « أحد » شهيداً . (١)

وكان « عمرو بن الجموح » أعرج شديد العرج . وكان له أربعة أبناء شباب يفزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج

معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة . فلو قدمت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إن بنى هؤلاء يمنعونى أن أجاهد معك . ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة !! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل يوم أحد شهيداً .. (١)

وقال نعم (٢) بن مالك : يابى الله لأتحرر من الجنة - وذلك قبل نشوب القتال - فوالذى نفسى بيده لأدخلنها !! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم ؟ قال : بأتى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . واستشهد يومئذ ...

وقال عبد الله بن جحش فى ذلك اليوم : اللهم أنى أقسم عليك أن أتى العدو غداً فيقتلونى ، يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأذنى . ثم تسألنى : فبم ذلك ؟ فأقول : فيك .. (٣) ؟

(١) رواه ابن هشام (٢ / ١٣٩) عن ابن اسحاق قال : وحدثنى أبى اسحاق بن يسار عن أشياخ من بنى سلمة به ، وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة ، والا فهو مرسل . وبعضه فى السند (٥ / ٢٩٩) من حديث أبى قتادة : رضى الله عنه وزاد : « فقتلوا يوم أحد ، هو وابن أخيه وهولى لهم ، فر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . كأتى أنظر إليك تمنى برجلك هذه صحيحه فى الجنة » وسنده صحيح . (٢) الصواب « النعمان بن مالك » وفى ترجمته أورد هذا الحديث الحافظ فى « الاصابة » من طريق السدى . فهو مرسل .

(٣) أخرج هذا الأثر الحاكم (٣ / ١٩٩ - ٢٠٠) من طريق سعيد بن المسيب : قال : قال عبد الله بن جحش . . . وقال « صحيح على شرط الشيخين لولا ارسال

هذه صورٌ للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول للمركة وأخرها .
فداد أمامها ، واصطربت من تحت أقدامه الأرض ، فمارح شيئاً في بداية القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم . وما يقوم الاسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان ، إلا بهذه القوى المذخورة المضبوطة في أفئدة الصديقين والشهداء ..

مَنْ سرُّ هذا الإلهام ؟ مَنْ مشرق هذا الضياء ! مَنْ مبعث هذا الاقتدار ؟
إنه محمد ! إنه هو الذي ربى ذلكم الجيل لئلا ، ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب ، تقانياً في الله ، وإيثاراً لما عنده .

وقد أصيب هذا النبيّ الجليل في « أحد » أصيب في بدنه إذ دخلت حلقات المنفر في وجهه . فأكبّ عليه أبو عبادة يعالج انتزاعها بقمعه ، فما خلصت من لجه حتى سقطت معها ثيابه^(١) . ونزف الدم — بغزارة — من جراحته ، كلما سكب عليه الماء ازداد دافقاً ، فما استمسك حتى أحرقت قطعة من حصير فألصقت به^(٢) .

== فيه « ووافقه الذهبي قلت : لكن له شواهد موصلة وأخرجه البغوي كما في « الإصابة » من طريق اسحاق بن سعد بن أبي وقاص حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال : فذكره بنحوه وزاد وفي آخره : قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وأت أنفه وأذنه لمعلتان في خبط » .

(١) ذكره ابن هشام (١٣٥/٢ — ١٣٦) من طريق اسحاق بن يحيى بن طلحة عن عيسى بن طلحة عن عائشة عن أبي بكر وقد وصله الطيالسي (٩٩/٢١) فقال : حدثنا ابن المبارك عن اسحاق به . وكذلك وصله الحاكم (٢٦/٨ — ٢٨) — ووقع في سنده تحريف — وقال : « صحيح الإسناد » فتعقبه الذهبي بقوله : « قلت : اسحاق متروك » وكذا قال الهيثمي (١١٢/١٦) بدأن عزاء للزار .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٩٨/٧) ومسلم (١٧٨/٥) وغيرهما من حديث هسل بن سعد :

وكسرت كذلك ربايته ، وكسرت البيضة على رأسه . ومع ذلك فقد ظل
حتمق الذهن ، يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت الحركة .

ثم أصيب في أهله ، فقتل « حمزة » بحربة انفرزت في أحشائه ، وجاءت
« هند » امرأة أبي سفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه ، ولا كتبها بفمها ثم
لفظتها لإفجاء المرارة .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزُ حمزة ، ويحبه أشد الحب ، فلما
رأى شناعة المثلة في جسمه ، نألم أشد الألم ، وقال : ان أصاب بمثلك أبداً ،
ما وقعت قط موقفاً أغضب إلى من هذا ^(١) ، بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح
الأحزان العارضة ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقد أصحابه ويخفف
ما نزل بهم ، ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاء ورضاً عن الله ،
واستكانة لقضائه ^(٢) .

روى الإمام أحمد ^(٣) : لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : استووا حتى أتى على ربي عز وجل !
فصاروا خلفه صفوفاً فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت

(١) هو من حديث سهل بن سعد المتقدم آنفاً .

(٢) حديث لا يصح ؛ ذكره ابن هشام (٢ / ١٤٩) بدون اسناد ؛ ولم أجده عند
غيره وقد نقله عنه الحافظ ابن كثير (٤ / ٤٠) وابن حجر في « الفتح » (٨ / ١٩٧)
ولم يوصله .

(٣) في المستد (٣ / ٤١٤) والحاكم أيضاً (١ / ٥٠٧ ؛ ٣ / ٢٣ - ٢٤) وقال :
« الحاكم : « صحيح على الشيخين » قلت : إنما هو فقط صحيح فان فيه عيبين رعاة
ولم يخرج له الشيخان ومن أخطاء الذهبي أنه في أحد الوضعين وافق الحاكم على تصحيحه
وفي الموضع الآخر قال : « والحديث مع نظافة اسناده منكسر » كذا قال ؛ ولم أعرف
تلقوله وجها : والله أعلم :

ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضلّت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى
لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم
أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك . ورزقك .

اللهم : إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يمحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك
العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم : إني عائد بك من شر ما أعطيتنا
وشر ما منعتنا . اللهم : حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر
والفسوق والمصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم : توفنا مسلمين وأحيينا مسلمين
والْحَقْنَا بِالْأَصَالِحِينَ غَيْرِ خِزَايَا وَلَا مَقْتُونِينَ اللَّهُمَّ : قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ
رِسْلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم : قاتلِ
الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أَوْتُوا السِّكِّتَابَ . إله الحق ..

• • •

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين فى « أحد » على عكس
ما نزل فى « بدر » من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من
حساب المنكسر . فى المرة الأولى قال :

« تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب
من الله سبق لمسكم فيما أحزنتم عذاب عظيم » .

أما فى « أحد » فقال :

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة * ثم صرفكم عنهم
ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

حسب الخطئين ما لحقهم من أضرار الهزيمة ، وفى القصص العاجل درس يذكر
الخطيئ بسوء ما وقع فيه .

وقد أتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين المؤمنين ، حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يقل قوامه ، حسرة تشل اقتاجهم ...

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ماجهولوا من سنن الدين والحياة . أو يذكركم بما نسوا من ذلك . فبين أن المؤمن - مهما عظمت بالله صلته - فلا ينبغي أن يفتر به أو يحسب الدنيا دانت له ، أو يظن قوانينها الثابتة طوع يديه .

كلا كلا . فالخذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ، وأن أيجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع .

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ » .

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ؟ »

وأولو الأبواب يستحيون أن يطالبوا السلعة الغالية بالتمن النافه . وهم يبدون استعدادهم للتضحية بانفسهم لقاء ما يندشدون . بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروع .

إن الإنسان — في عاقبته — قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخذاع .

فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ، ثم حادوا عنه لما جاء .

« وَاقْدِرْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ! .

ثم غاب الله عز وجل من سقط في أيديهم ، وأنكسرت هممتهم ، لما أضيع أن الرسول عليه الصلاة والسلام مات . ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص .

ولو افترض أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه ، الذي ورده قائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ..

إن عمل محمد عليه الصلاة والسلام ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمدة من فكر الإنسان وضميره . فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها !

لقد جمع محمد الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله . والذين ارتبطوا به ، عرفوه إماماً لهم في الحق ، وصلة لهم بالله .

فإذا مات عبد الله ، ظلت الصلة الكبرى بالحى الذى لا يموت ، باقية نامية :
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وََمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسِيعُزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

وقد استطرد النظم الكريم يبصر المؤمنين بمواطن العبرة فيما نالهم ، ويعلمهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآزق ، وينتهز هذه السكوبة العارضة فيعزل عن جماعة المسلمين من خاطوهم على دخل ، وعاشروهم على نفاق .

ولئن أفادت وقعة « بدر » في خذل الكافرين ، إن وقعة « أحد » أفادت مثلها في فضح المنافقين ، ورب ضارة نافعة ، وربما صححت الأجسام بالعلل .

ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة ، درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد ، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام ، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام .

والأمم كلها . مؤمنها وكافرها ، تعرف هذه الحقيقة . ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة ، وعندما تشتبك أمة في حرب ، تجعل أحزابها جبهة واحدة وأهواءها رغبة واحدة ، وتحمّد كل تمرد أو شذوذ ينجم في صفوفها .

وإحسان الجندية كإحسان القيادة :

فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة ، فإن إتقادها يحتاج إلى كبح وكبت . ولكن عقي الطاعة في هذه الشئون ، تعود على الجماعة بالخير الجزيل .

وأمرع الناس إلى الشعب والتمرد ، من أقصوا عن الرئاسة وهم إليها طامحون . وكان عبد الله بن أبي مثالا لهذه الفئة التي تضحي بمستقبل الأمة في سبيل أطماعها الخاصة . . .

أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أما كنهم مهما كانت أطوار القتال فقد مرت بهم فترة ضعف وذبول ، تيقظت — خلالها — بقمية في أنفسهم من حب الدنيا ، والإقبال على هرضها الزائل فكان إثر ذلك ما كان :

ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قبلت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها : فما أخلفهم موعداً ، ولا ظلمهم حقاً :

(أولاً أصابكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم : أئسى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قديرٌ) .

إن الإسلام يشترط لكمال لعمل وقبوله . الإيمان والاحتساب ، والتجرد .

شهداء أحد

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد استخفها النصر الذي أحرزته .

لأنها طارت به على عجل ، كأنها خبر واثقة مما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها
أول القتال !!

وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم في الرجال . ويحجمزون القتلى المضاجعهم التي يبرزون منها للقاء الله يوم ينفخ في الصور .

روى ابن إسحاق^(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رجل ينظر لي

(١) أخرجه من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني مصرحاً بسماعه منه مرفوعاً به ، كما في سيرة ابن هشام (١٤٠/٣ — ١٤١) وهذا إسناد معضل وقد رواه الحاكم (٣٠١/٣) من طريق محمد بن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه انت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فذكره . وأنا أخشى أن يكون سقط من السند «محمد» بن عبد الله بن عبد الرحمن ، بن إسحاق ، وعبد الله بن عبد الرحمن فإنهم لم يذكروا ابن إسحاق في الرواة عن عبد الله بن عبد الرحمن ، وعليه يكون الحديث مرسلًا وبه أهله الذهبي لأن عبد الله ، هذا تابعي وأما أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة فصحابي فلو أن سند الحاكم سلم من السقط لكان الحديث متصلًا ولما أهله الذهبي بالإرسال والله أعلم . والحديث رواه مالك في الموطأ (٢١/٢) عن يحيى بن سعيد له معضل ، ونقل = (١٩ — فقه السيرة)

ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا . فنظر ، فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق . فقال له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر ، أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ فقال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامى ! وقل له : إن « سعد بن الربيع » يقول لك . جزاك الله عفا خير ماجزى نبيا عن أمته ! وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم . إن « سعد بن الربيع » يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلف إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ... !!

قال : ثم لم أبرح حتى مات ، وجئت النبی علیه الصلاة والسلام فأخبرته خبره . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء حيث قتلوا . ورفض أن ينقلوا إلى مقابر أسرم .

قال جابر بن عبد الله : لما كان يوم أحد جاءت عمتى بأبى لتدفنه فى مقارنا ، فتنادى منادى رسول الله : ردوا القتلى إلى مضاجعهم ^(١) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » فى نوب واحد . ثم يقول : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإن أشير إلى أحدهما

== السبوطى فى « تنوير الحوالك » عن ابن عبد البر قال : « هذا الحديث لا أحفظه ولا أعرفه إلا عند أهل السير فهو عند مشهور معروف » قلت : قد رواه الحاكم أيضاً من حديث زيد بن ثابت قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ... وقال الحاكم : صحيح الإسناد « ووافقه الذهبى ، وفى سنده أبو صالح عبد الرحمن بن عبد الله الطويل ، ولم أجد الآن ترجمته .

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٦٣/٢) والنسائى (٢٨٤/١) وابن ماجه (٢٦٤/١) وأحمد (٢٩٧/٣) ، ٣٠٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨) بسند صحيح عن جابر .

قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء ! وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ، ولم يغسلهم . . (١)

ولما انصرف عنهم قال : أنا شهيد على هؤلاء ما من جريح يخرج في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك (٢) .

• • •

إن معركة « أحد » تركت آثاراً غائرة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام ظلت تلازمه إلى آخر عهده بالدنيا . في هذا الجبل الماكن الجاثم حول « يثرب » أودع (محمد) أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه . فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة ، وعادت في سبيل الله الأفر بين والأبعدين ، واغتربت بمقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وأنققت وقا نلت ، وصبرت وصابرت ، هذه الصفوة اختط لها القدر منوها الأخير في هذا الجبل الأشم فتوسدت ثراه راضية مرضية . وكان رسول الله يتذكر سير أولئك الأبطال ومصابرهم فيقول : (أحد) جبل يحبنا ونحبه (٣) .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣/١٦٣ - ١٦٥ : ١٦٩ : ٣٠٠/٧) والنسائي (٢٨٨/١) والترمذى (٢/١٤٨) وصححه ، وابن ماجه (١/٤٦٠) وأحد (٥/٤٣١) من حديث جابر أيضاً .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد (٥/٤٣١ ، ٤٣٢) وابن هشام (٢/١٤٢) كلاهما من طريق ابن إسحاق : حدثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبة بن صمير العذري سرفوعاً . وهذا مسند صحيح وابن صمير صحابي صغير فهو مرسل صحابي وهو حجة . وكذلك أخرجه البيهقي (٤/١١) من طريق ابن عيينة عن الزهري به وأخرجه أيضاً من طريق أخرى عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه به . وإسناده صحيح أيضاً .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/٣٠٢) ومسلم (٤/١٢٤) وغيرهما من حديث أنس وغيره .

فله حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة، أن يزور قتلى «أحد» وأن يدعو الله لهم ، وأن يعظ الناس بهم !!

عن عقبة بن عامر قال . صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى «أحد» بعد ثمانين سنين كالمودع للأحياء والأموات . ثم طلع المنبر فقال : إني بين أيديكم فرط . وأنا عليكم شهيد . وإن موعدكم الخوض . وإني لأنظر إليه من مقامى هذا . وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها . !!
قال عقبة : فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله (١) .

• • •

على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم ، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذى حل بهم ! وكان تكثر خصومهم حولهم سببا فى أن يقاوموا عوامل الخور . وأن يبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين . على نحو ما قال الشاعر :

وَنَجْلِدِي لِلشَّامَتِينَ أَرْيَهُمْ أَنِّي لِرَبِّ الدَّهْرِ لَا أَنْضَعُضِعُ

وقد كانت الهزيمة فى «أحد» فرصة انتهزها المنافقون واليهود ، وكل ذى غمر على محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وأصحابه فقارت المدينة كالرجل المتقدم وكشف عن عذارته من كان قبلا يواربها . وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء لآبئ المرسل من عند الله .

فراى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعيد تنظيم رجاله على عجل ، وأن يتحمل

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣/١٦٤ ، ٧/٢٧٩ — ٢٨٠ : ٣٠٢) ومسلم (٧/٧) وأحمد (٤/١٤٩ ، ١٥٣ : ١٥٤) والبيهقى (٤/١٤) .

الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد ، يخرج في أعقاب قريش ليطاردها
ويمنع ماقد يجد من نكرار عدوانها ١١

كانت معركة « أحد » في السبت ، خمسة عشر من شوال ، وكان خروج هذا
الجيش في الأحد لسته عشر منه ...

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلمون معه حتى بلغوا حراء الأسد (١)
واقترحوا من جيش أبي سفيان ، وكان رجال قريش - بعد أن ضمهم القضاء الرحب -
قد عادوا إلى التفكير فيها حدث . وأخذوا يتلاومون : يقول بعضهم لبعض : لم
تصنعوا شيئاً . أصبتم شوكة القوم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، وقد بقيت منهم
دروس يجتمعون لكم !

إلا أن هذا التفكير نزل إثر ما عرفت قريش أن المسلمين عبأوا قوامهم وخرجوا
يستأنفون للقتال .

وحار المشركون في أمرهم ، أيعودون للحرب لا يأمنون مغبتها ، وربما أفقدتهم
ثمار النصر الذي أحرزوه ؟ أم يعضون - لتوهم - إلى مكة ؟ وفي هذه الحال يتحسن
مركز المسلمين ، وتخف مرارة الهزيمة التي لحقتهم .

وقد رأى « أبو سفيان » أن يغتم الأوبة الراجعة ، وأن يبعث إلى المسلمين من
يقذف بالرهب في قلوبهم ، ويخبرهم أن قريشاً عادت لاستئصال شأفتهم بعد أن
تبين لها خطؤها في تركهم ١٠٠ !

وعسكر المسلمين بـ « حراء الأسد » ثم جاءهم دسيس أبي سفيان ،

(١) رواه ابن أبي شيبة عن أبي الأسود عن غروة بن الزبير مرسل كما في البداية وذكره
ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند .

يفرهم بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كرة المشركين عليهم ، وهم لا يقدر
على ملاقاتهم !

بيد أن المسلمين قبلوا التحدى ، وظلوا في معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث
ليال في انتظار قريش التي ترجح لديها أن النجاة بنفسها أولى فعادت إلى مكة .
وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى ، أرفع رهوساً ، وأعز جانباً .
وفي هذه المظاهرة الناجحة ، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب
وفي ثباتهم على التثييط واطمئنانهم إلى جانب الله ، نزلت الآيات السكرية .

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ
مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) .

آثار واحد

انتفض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه .

وبرغم مظهر البأس الذي أبداه المسلمون في مطاردة المشركين حتى « حرام
الأسد » فإن هزيمة « أحد » كانت أبعد غوراً مما يظنون .

لقد جرأت عليهم أعراب البادية ، وفتحت لهم أبواب الأمل في الإغارة على
المدينة وانتهاب خيرها .

كما أن يهود عالتوا بسخريتهم ، وتركوا وساوس الغش تلح عليهم ، وتسكن
سبوتهم مع المسلمين ..

ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة وقياد الدعوات بعد

الانكسارات الخطيرة . وإن كان الرجال يستسهلون الصعب ، ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لما يداؤوا جراحاتهم في «أحد» إلا أن الأحداث لا تنتظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة ، يحسبون أن ما فيها أصبح غنيمة باردة ، وأول من تهايا لغزو المدينة بنو أمية ، فسارع رسول الله إلى بعث أبي سلمة على رأس مائة وخمسين رجلاً ، ليبيت القوم في ديارهم قبل أن يقوموا بغاراتهم ^(١) .

ولم يلق أبو سلمة عناء في تشتيت أعدائه واستياق نعمهم أمامه ، حتى عاد إلى المدينة مظفراً ، وأبو سلمة يعد من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله وسبقوا إلى الإيمان والجهاد معه وقد عاد من هذه الغزاة مجهوداً ، إذ نفر جرحه الذي أصابه في «أحد» ، فلم يلبث حتى مات .

وحاول «خالد بن سفيان الهذلي» أن يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي عبد الله بن أنيس فقتله ^(٢) وهو يجتهد في تأليب القبائل للهجوم على المدينة .

(١) ذكر هذه السرية ابن كثير في «البداية» (٦٩/٤ — ٦٢) من طريق الواقدي بإسناد له معضل ! والواقدي متروك !

(٢) رواه أبو داود (١٩٦/٢) والبيهقي (٢٥٦/٣) وأحمد (٤٩٦/٢) من طريق ابن عبد الله بن أنيس سماه عن أبيه وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢٩٥/١) «إسناد جيد» وقال الحافظ بن حجر في «الفتح» (٣٥٠/٢) «إسناذه حسن» . قلت : وابن عبد الله بن أنيس سماه البيهقي في روايته «عبيد الله» وكانه تحريف من الناسخ أو الطابع ؛ فقد أوردته ابن أبي حاتم فيمن اسمه «عبد الله» مكبراً . وقال : «روى عن أبيه» وروى عنه محمد بن إبراهيم التيمي «ولم يذكر فيه جرحاً ولا تدليلاً» . وقد روى عنه محمد بن جعفر بن الزبير أيضاً وهو الذي روى عنه هذا الحديث والله أعلم .

وثارت « هذيل » لرجلها بأن أعانت على تسليم أسرى المسلمين إلى أهل مكة في غزوة الرجيع .

وأصل قصة « الرجيع » هذه ، أن وفدًا من قبائل عضل والقارة ، قدم على رسول الله يذكر أن أنباء الإسلام وصلت إليهم ، وأنهم يحتاجون إلى رجال يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن . فأرسل النبي معهم رهطًا من الدعاة برأسهم « عاصم بن ثابت » فانطلق الجميع حتى إذا كانوا بين « عسفان » و « مكة » قريبا من مياه « هذيل » شـهر الدعاة بأن أصحابهم غدروا بهم واستصرخوا هذيلًا عليهم ...

وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون الغادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل ، وماذا يجدى قتال نفر يمدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة ، وراهم قومهم يشدون أزرهم ؟ لذلك لم يلبث عاصم وصحبه أن قتلوا .

واستسلم للأسر منهم ثلاثة نفر ، « خبيب » و « زيد بن الهدنة » و « عبد الله ابن طارق » . فاسترقهم الهذليون وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوه بها . ومعنى بيعهم بمكة تسليمهم للقتلة المنزبصين . فإن أولئك النفر ، من الرجال الذين قاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في « بدر » و « أحد » . ولأهل مكة لديهم ترات يودون الاشتفاء منها . وقد حاول عبد الله الإفلات من هذا المصير فقتل . وأما « خبيب » و « زيد » فأخدهما رجال قريش ليقتلوهما ، أخذًا بنأرهم القديم .

فأما « زيد » فابتاعه صفوان بن أمية ، ليقتله بأبيه ، ولما خرجوا به من الحرم ، اجتمع حوله رهط من قريش - فيهم أبو سفيان بن حرب - فقال له أبو سفيان - حين قدم ليقتل - : أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك ، تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمدًا الآن

في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي .
فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد .
ثم قتل زيد .

وأما «خبيب» فقد اشتراه عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه ، فلما خرجوا به «خبيب»
من الحرم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا قالوا :
دونك فاركع . فركع ركعتين أنهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال :

أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة
فكان «خبيب» أدل من سن هاتين الركعتين عند القتل ثم رفعوه على خشبة .

فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسلك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم
قال : — اللهم احصهم عدداً . واقتلهم بدداً ولا تقادر منهم أحداً^(١) واستقبل الموت
وهو يندد :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي ممزع

* * *

حزن المسلمون لفقدانهم عاصماً وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو

(١) رواه ابن هشام (١٦٧/٢ — ١٦٩) عن ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر
ابن قتادة مرسل . وهذا سند صحيح لولا الإرسال ؛ لكن رواه البخاري في صحيحه
(٣٠٣/٧ — ٣٠٨) وأحمد (١٩٤/٢ ؛ ٢١٠) موصولاً من حديث أبي هريرة نحوه
وفيه الأبيات الآتية .

الفاجع ، فقد خسر فريقاً من الدعاة الأكفاء الشجعان ، يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه . ثم إن اصطيد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجساً وقلقاً : إذ أن ذلك المسلك دل على مبلغ طمعية العرب في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم ، دون خوف أو محاذرة قصاص !

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد للنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة ، إن أن ضرورة بث الدعوة - مهما فدت الخسائر - جعلت النبي ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لا بد منه . كالتاجر الذى يتحمل المغارم الثقيلة حيناً من الدهر ، لأن الانسحاب من السوق بغية تجنبها - قضاء عليه . فهو يبقى متحملاً حتى تهب الريح من جديد ، رُخاء تعوض ما فقد . وذلك سر استجابة الرسول لأبى براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة حين عرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد .

وقد أبدى النبي خشيته من أن يصاب رجاله بسوء ، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذماماً . فقال أبو براء : أأنا لم جار (١) !!

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا بئر معونة . وكانوا سبعين من خيار المسلمين يعرفون بالقراء ، يحطبون بالفهار ويصلون بالليل ، ويمحون على هذا النسق الرتيب بين جهاد للحياة ورغبة في الآخرة .

فلما أمرهم الرسول بالسير لإبلاغ رسالات الله ، خرجوا ، وما كانوا يعرفون أنهم - جميعاً - يحثون الخطأ إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجائها ...

(١) رواه ابن هشام (١٧٤/٢) عن ابن إسحاق بسند صحيح مرسل . كذلك رواه الطبرانى عن ابن إسحاق كما في « المجموع » (١٢٨/٦ - ١٢٩) ورواه الطبرانى أيضاً من حديث كعب بن مالك رضى الله عنه نحوه قال الهيمى « ورجاله رجال الصحيح » .

وحينما انتهى القراء إلى « بئر معونة » بمنوا أحدهم - حرام بن ملحان - إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع ، فأعطاه كتاب النبي الذي يدعو فيه إلى الإسلام فلم ينظر « عامر » في الكتاب وأمر رجلا من أتباعه أن يقتال حامل الرسالة ، فما شعر حرام إلا وطئته بجلاء فخرق ظهره وتنفذ من صدره ، وكان هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلا يطمئنها من قديم فقد صاح حرام على أثر ذلك فرّت ورب الكعبة . !

ومضى « عامر » في غشمه ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليه قبائل « رِعل » و « ذكوان » و « القارة » فهجم بهم عامر على القراء الوادعين .

ورأى هؤلاء الموت مقبلا عليهم من كل صوب ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى ، إذ استطاع الأعراب الهجم أن يغشوم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم .

وكان في سرح القراء إثنان لم يشهدا هذه المأساة . منهم « عمرو بن أمية الضمري » ولم يعرفا النبأ المحزن ، إلا من أفواج الطير المتوحشة ، تطلق نحو المعسكر محوّة حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر ، طاعة مما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها . قالا : والله إن لهذه الطير لثأنا فأقبلا لينظرا فإذا القوم مخرجون في دماهم . وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ! قال زميل عمرو له : ماذا ترى ؟ قال عمرو : أرى أن نالحق برسول الله نقص عليه الخبر . لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى المنذر لذلك أجاب عمرو ابن أمية قائلا : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر ! وما كنت لأبقى حتى أقص خبره على الرجال ! وهجم على الأعراب يقتلهم حتى قتل

وأخذ عمرو وأسيراً . فاعتقه « عامر بن الطفيل » كبير الغادرين عن رقبة زعم أنها على أمه !

° ~ °

ورجع « عمرو » إلى النبي حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة « أحد » إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ، وأولئك ذهبوا في غدر شائن .

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً ، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة ، أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الاسلام وأهله ، غل عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء ، وأباح لكل قادر أن يلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء .

وفي طريق « عمرو » إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من بني عامر فقتلتهما ثأراً لأصحابه ، ثم تبين أنهما من كلاب ، وأنهما معاهدين للمسلمين .

ولما قدم « عمرو » على الرسول عليه الصلاة والسلام وأخبره الخبر ، قال النبي للناس ^(١) : إن أصحابكم أصيبوا ، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا ^(٢)

ثم قال النبي لعمرو : لقد قتلت قتيلين لأدينتهما ^(٣) وانشغل بجمع ديانتها من المسلمين وحلفائهم اليهود !

° ~ °

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢١٢ / ٧) عن طريق هشام بن عروة عن أبيه مرسل . لكن رواه بنحو موصولاً من حديث انس (٣٠٩ / ٧ ؛ ٣١٠ ؛ ٣١١) ؛ والطبراني من حديث ابن مسعود كما في « المجمع » (١٣٠ / ٦) .

(٢) رواه الطبراني وابن هشام من طريق ابن إسحاق بسنده مرسل . وقد تقدم قريباً .

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوباً كثيرة ، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل : وارتقاهم المزيد من الفتح ، زاد ضمن الضاغنين ، وقد كان الناقون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » ، ومن يتوكّل على الله فإن الله عزيز حكيم » . هير أن هذه الكراهية اختفت أمدأ بعد انتصار « بدر » ، بل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف والمترددين بالإنضواء تحت علم الهدى الجديد . فلما تقلبت الآلي بالمسلمين ، ولحقهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان .

وقد قلنا : إن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك هذه الحال بعد « أحد » فهذل جهده يستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم ، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع « أحد » بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد .

على أن الخسائر تلاحقت بالمسلمين في « الرجيع » و « بئر معونة » كما مر بك ودخل الإيمان في محنة بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلهم ربهم ، واطمئنانهم إلى غدهم ، وشرعوا يردون الضربة بمثلها ، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة ليعتالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتوان في إزال العقوبة الرادعة بهم .

إجلاء بني النضير

وتفصيل ذلك القدر أن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب إلى منازل بني النضير ليستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلها « عمرو بن أمية » مرجعه من بئر معونة ، فلما فاوضهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس

إلى جنب جدار من بيوتهم ، ينتظر وفاءهم بما وعدوا . لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا :

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — خلوا بال واطمئنان — فمن رجل يعلم ظهر هذا البيت ، فيأتي عليه صخرة ، ويرجمنا منه ؟

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطر المدبر له فنهض — عجباً — من جوار البيت الذي اضطلعج إلى جداره ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

وشعر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بغيبه ، فقاموا في طلبه فإذا رجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها ، فأسرعوا يلحقون به ، فلما انتهوا إليه . أخبرهم بما كادت له يهود ، وقد عرف — بعد — أن عمرو بن جحاش هو الذي أراد قتل النبي بالقاء الرمح عليه ، ولم ينج الشقي من عواقب جرمه ، ولا نجا قومه ، فإن رسول الله مالبث أن استدعى محمد بن مسلمة وقال له اذهب إلى بني النضير فمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يساكنوني بها ، وقد أجابهم عشرا فن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه (١)

ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، بيد أن منافقي المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ، أرسلوا إليهم : أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه ! فعادت لليهود ثقتهم ، وامتقر رأيهم على المذوأة ، وأرسلوا للنبي

(١) رواه نحوه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » في غزوة بني النضير بدوت إسناد لكن روى البيهقي — كما في تفسير ابن كثير (٣٣٣/٤) — بإسناد عن محمد بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني النضير وأمرهم أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام ؛ ورجاله ثقات غير محمود بن مسلمة ترجمة ابن أبي حاتم (٢٩٠١/٤) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . فهو في عداد المجهولين .

صلى الله عليه وسلم يقولون له : لن نخرج ، فافعل ما بدالك ، ثم احتسبوا
بمحصولهم واستمدوا للقتال ، وزادهم إصراراً على المقاومة ما تراءى إليهم من أن
ابن أبي أعدأني مقاتل لنصرتهم ، ونهض النبي صلى الله عليه وسلم لمناجزة
القوم وتحدثى من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو من مشركى العرب
وفرض الحصار على مساكن بنى النضير ، وأمر بتقطيع نخيلهم^(١) . ثم جد
الجد وراى اليهود للوت ، ووقع الرعب فى قلوب أعوانهم ، فلم يحاول أحد أن
يسوق لهم خيراً أو يدفع عنهم شراً مع أن اشتباك المسلمين بمحصولهم فى هذه الفترة
الخرجة من تاريخهم . لم يكن مأمون العواقب . وقد رأيت كلب العرب عليهم
وفسكهم الشنيع ببعوثهم ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة ، تجعل
استسلامهم بعيد الاحتمال وتعمل فرض القتال معهم مخوفاً بالكاره إلا أن الحال
التي جدت بعد مأساة « بئر معونة » وما قبلها ، زادت حساسية المسلمين بحراثم
الاغتيال والعدو التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً وضاهقت نقتهم على
مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاوموا بنى النضير بعد همهم باغتيال رسول الله صلى
الله عليه وسلم — مهما تكن النتائج .

وقد جاءت النتيجة فى مصلحتهم بأسرع مما يتصورون ، فاندحر اليهود ، ونزلوا
على حكم المنتصر الذى أذن لهم بالجلء عن ديارهم ، ولم ما حملت إليهم من أموال
ما عدا السلاح^(٢) .

وفى هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها ، فوصفت طرد اليهود فى صدرها

(١) هذا الأمر صحيح أخرجه الشيخان . غيرهما من حديث ابن عمر .
(٢) رواه الحاكم (٤٨٣/٢) من حديث عائشة ، وفيه نزول الآية الآتية ؛ وقال :
صحيح على شرط الشيخين « ووافقه الذهبي ! وإنما هو صحيح فقط لأن زيد بن المبارك
الصنعاني وشيخه محمد بن نور ليسا من رجالهما .

« هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حِصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ يُبْغِضُهُمْ يُبْغِضُهُمْ وَأَبْدَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاغْتَبَرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . »

ثم فضح القرآن مسلك منافقي المدينة الذين حاولوا إغانة يهود ، في غدرها وحر بها ، وحرصوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من إمداد وعتاد فقل :

« أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ؟ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ لَئِنْ أَخْرَجَتمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ أَوْ اللَّهُ يُشْهِدُ إِنَّهُمْ كَادُبُونَ * لَئِنْ أَخْرُجُوا لَا يَخْرُجْنَ مَعَهُمْ * وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ * وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدَارَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ . »

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون دون تضحيات ، توطن سلطانهم في المدينة ، وتحاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد « أحد » وتواثبوا على بسوئ الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران .

* * *

وتأديباً لأولئك الغادرين خرج النبي عليه الصلاة والسلام بجوس فيافي نجد ، ويطلب ثار أصحابه الذين قتلوا في « الرجيع » و « بئر معونة » ، ويأتي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة حتى لا يعاودوا مناكرهم التي ارتكبوها مع المسلمين .

وقام النبي صلى الله عليه وسلم - تحقيقاً لهذا الغرض - بفزوات شتى أرهبت القبائل المقيمة وخطت بمشاعرها الرعب ... فأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في ردوس الجبال بعدما قطعوا الطرق على الدعوة ردحاً من الزمن وفي مقدمة هؤلاء - بنو لحيان وبنو محارب ، وبنو ثعلبة من غطفان .

فلما خضد المسلمون شوكتهم ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون للملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش . وحقّ لحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أباسفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء .

بدر الآخرة

لم ينشط أبوسفيان للوفاء بالبيعة الذي ضربه عند منصرفه من «أحد» بلى خرج من مكة متثاقلاً يفكر في عقبي القتال مع المسلمين ، وهو - بعد - لما يتخذ لهذا القتال أهبته التي يودها . إن قومه هزموا في «بدر» على كثرة مددهم ووفرة عدتهم ، واستخلصوا النصر في «أحد» بعد جهد فاشل .

ولولا الخطأ الذي وقع فيه جيش التوحيد ، ما ظفرت قريش بهذه الفرقة . لذلك ما كاد أبوسفيان يقترب من «الظهران» حتى بدا له في الرجوع فصاح بقومه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جرب ، وإنى راجع فارجبوا ... وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة .

أما المسلمون فإنهم نفرُوا للملاقاة المشركين على استعداد وحامة ، حتى وصلوا إلى ماء «بدر» فعسكروا حوله ، يملنون وفاءهم بكلمتهم ، وتأهبهم للحرب الموعودة (٣٠ - فقه السيرة)

وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة ، ويمسحون من سمعتهم آخر ما تركت هزيمة (أحد) من غبار .. وكان ذلك في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة .

دومة الجندل

وانتقل زمام المواجهة إلى أيدي المسلمين بعد أن نكصت قريش عن مواجهتهم .
فالتفتوا إلى الشمال ، بعد أن توطدت مهابتهم في الجنوب .
وشمال الجزيرة يحاور سلطان الروم القديم ، والعرب الضاريون هناك لابخشون بأس أحد بعد القيصر .

وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنبت في الجزيرة قوة تناوئه أو تنجاهله .
وجاءت الأخبار إلى المدينة أن القبائل حول دومة الجندل - قريباً من الشام -
تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وقد بلغ بها الطيش حدّاً ، فسكرت معه أن تهاجم المدينة ، وأن جمعاً كبيراً احتشد بها للاندفاع في هذه الغارة !
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من المسلمين ، يمكن بهم نهاراً ،
ويسير ليلاً حتى يفاجئ أعداءه وهم غارون . والمسافة بين يثرب و «دومة الجندل»
خمس عشرة ليلة ، قطعها المسلمون بمعونة دليل ماهر . فلما بلغوا مضارب خصومهم ،
اجتاحوها مباغتتين ، فقرت الجموع المتأهبة للسطو ، وأصاب المسلمون سوائهم
ورعاهم وكانت لبني تميم .

أما أهل الدومة فقرروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ،
وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام عدة أيام يبعث السرايا ، ويبعث رجاله هنا
وهناك . فلم يثبت للقائهم هارب .

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وكان توجههم لعرب الشمال في ربيع الأول من

السنة الخامسة .

هندما كان الإسلام دعوة تعالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق
الجهرة والتهجم دون مبالاة . فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة ،
حسكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة ، فأمسى الكيد له يقوم
على المكر . والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعان بها الأقوياء . واثمار
الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام . بل
إن المرء قد يالُم لإشاعة ملفقة أكثر عما يالُم لطعنة مواجهة .

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو ، وإن كان
بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف !

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته بأسلوب
تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ، ويفلب عليها الضعف ،
أسلوب اللمز والتعريض حيناً ، والإفك والافتراء حيناً آخر .

وكلما توسدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضعفاً
عليهم وربصاً بهم . وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنتهم الرسول بالجلاء ، فلما لم
يقف مد الإسلام شيء ، ولم تهدء هزيمة ، وأخذت القبائل العادية تحتفي واحدة تلو
أخرى ، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم للسوء إلا
على فلتات الألسنة ومزلق الطباع . فكانت ميرتهم تلك ، مشارفتين شداد
تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئاً غير قليل .

وظهر ذلك جلياً في « غزوة بنى المصطلق » . فإن الأنباء أتت الرسول عليه
الصلاة والسلام بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله وأن سيدها الحارث بن أبي
خرار قد استكن عدته لهذا المسير فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين
اليطعن الفتنة قبل اندلاعها .

وخرج مع الرسول عليه الصلاة والسلام هذه المرة جميع المنافقين الذين لم يعتادوا

الخروج قبلاً . ولعل ثقتهم بانتصار محمد عليه الصلاة والسلام أغرتهم بالذهاب معه ، ابتغاء الدنيا لا انتصاراً لدين .

وانتهى المسلمون إلى ماء يسمى « المريسيع » اجتمع لديه بنو المصطلق ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يعرض الإسلام على القوم . فنادى عمر فيهم : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ، فأبوا وترامى الفريقان بالنبل .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد . فلم يفلت من المشركين أحد . إذ وقعوا جميعاً أسرى بعدما قتل منهم عشرة أشخاص . ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قتل خطأ . وسقطت القبيلة — بما تملك — في أيدي المسلمين^(١) .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعامل للهنوزمين بالإحسان : فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة بطلب ابنته التي وقعت في الأسر ردها عليه . ثم خطبها منه^(٢) .

(١) رواه بنحوه ابن جرير في تاريخه (٢/٢٦٠ — ٢٦٢) من طريق ابن إسحاق بسنده مرسل . وكذلك رواه ابن هشام في « السيرة » (٢/٢١١ — ٢١٨) وهذا الإسناد مع ضعفه ليس فيه أمر عمر بعرض الإسلام . وقد أشار الزرقاني على الواهب (٢/٩٧) لضعف هذه الزيادة . وحق له ذلك فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم ما يقتضي ضعفها فقال ابن القيم في « الزاد » (٦/٥٨٨) بعد ذكر نحوه ما هنا من القتال .

« هكذا قال عبد الرحمن بن خلف في سيرته وغيره وهو وم فإنه لم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم على الماء فسي ذراهم وأمواهم كما في الصحيح : أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وذكر الحديث » راجع « فتح الباري » (٧/٣٤٦) .

(٢) هذا غير صحيح ، وقد أشار لذلك ابن هشام في سيرته (١/٣٦٧) فإنه ذكر هذه الرواية بدون إسناد وصدرها بقوله : « ويقال » والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم =

«وزوجها فاستحي الناس أن يسترقوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاطلقوا
مَنْ بأيديهم من الأسرى ! فكانت جوبرية بنت الحارث من أئمة الناس
على أهلها . فقد أعنت في زوجها مائة أهل بيت من بني المصطلق ...»

على أن هذا النهر الميسر شابه من أعمال المنافقين ما عكر صفوه وأنسى للمسلمين
حلاوته ، فإن خادماً لعمركان يسقى له من ماء المريسيع ، ازدحم مع مولى لبني
خوف من الخزرج وكذا يقتتلان على الورود - شأن الخدم الطائشين - فصاح
الأول : يالها جرين ، وصاح الآخر : يا للأنصار ! واستمع إلى صياح الأتباع
عبد الله بن أبي ، وكان في رهط من قومه ، فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفائظهم
وحياهم ما أماته الإسلام من نمرات الجاهلية فقال : أوقد فعلوها ؟ نارونا وكأرونا
حتى بلادنا أما والله لنرجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعرس منها الأذل . ثم أقبل على
قومه - ولم نزل له فيهم بقية وجاهة - يلومهم ويحرضهم على التنكر للرسول عليه
الصلاة والسلام وصحبه فذهب «زيد بن أرقم» إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقص
عليه الخبر وأسرع بن أبي إلى رسول الله يريء نفسه وينفى ما قاله !!

ورأى الحاضرون أن يقبلوا كلام بن أبي رعاية لمنزله ، وقالوا : الغلام -
يعنون : زيد بن أرقم - أوم ، ولم يحفظ ما قيل .

على أن الحقيقة لم تقف النبي صلى الله عليه وسلم فأحزنه ما وقع ، ووجد خير
علاج له شغل الناس عنه حتى يفي على آثاره ، فأصدر أمره بالارتحال في ساعة
ما كان يروح في مثلها ، ومشى بالناس سائر اليوم حتى أمسوا ، وطيلة الليل حتى
أصبحوا ، وصدر يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس ثم نزل بهم .

== قضى منها كتابتها وزوجها دون أن يخطبها من أيها فإنها كانت أجنبية كما رواه ابن
إسحاق - سند صحيح عن عائشة رضي الله عنها . ومن طريقه أخرجه أحمد (٢٧٧/٦)
جواب هشام (٢/٢١٨ - ١١ ، ٢٦٤) وفي حديثها قصة إطلاق الأسرى .

فما إن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً وتابع الرسول عليه الصلاة والسلام رواحاً حتى عاد إلى المدينة .

ونزلت سورة المنافقين ، وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم « يقولون : إن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلُّ » والله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » ^(١) .

لم يدُر بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكتوبة دينية يحكي أطرافها « عبد الله بن أبي » ثم يرحى بها بين الناس ، فتسير الوباء الفاتك .

إن هذا الرجل حلف كاذباً بعد أن أنكر مقلته الثابتة ، ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقابها ، لكان ذلك أجدى عليه ، لكنه لم يزد — على السماح الذي قوبل به — إلا خسة وخصاما والبنون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله . لقد كان « أبو جهل » خصماً لدوداً لكل من دخل هذا الدين ، وكان طاغية عنيداً لا تنتهى لجأته ، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الاتواء والوقية ، حمل السيف في وضح النهار ، وما زال يقاتل به حتى صرع .

أما عبد الله بن أبي ، فقد اختفى كالعقرب الخائنة ، ثم شرع يلسع الغافلين . قبح هذا المنافق في جنح الظلام . وبدأ ينفث الإشاعات المريبة .

وتدلى — في غوايته — إلى حضيض بعيد ، فلم يبال أن يتهم على الأعراض المصونة ، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات .

في عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق إلى المدينة ، نبت حديث الإفك وشاع ، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان .

(١) هذا تمام مرسل ابن إسحاق الذي ذكرته آنفاً .

قاسدين - من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام - أن يدسروا على الرسول صلى الله عليه وسلم بيته ، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه ، وأن يدعوا جمهور المسلمين - بعد ذلك - يضطرب في عماية من الأمى والغم !!

وللوصول إلى هذه الغاية ، استباح ابن أبى لنفسه أن يرمى بالفحشاء سيده لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لاتعرف الشر ، ولا تهم بمفكر ، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالى . وهى التى تربت في حجر صديق ، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة . وتلقف العامة هذا الحديث الغريب ، وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبالغ الخطر السكامن في قبوله ونقله .

إليك سرداً لهذا الحديث المفتعل على لسان السيدة التى تعرضت له وبرئت منه .

حديث الإفك

قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرجت معه . فلما كانت « غزوة بنى المصطلق » خرج سهمى عليهن ، فارتحلت معه ! قالت : وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق ، لم يهيجهن اللحم فينقلن ، وكنت إذا رحل بعيرى جلست في هودجى ، ثم يأتى القوم فيحملوننى يأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ، ثم يضعونه على ظهر البعير ويشدون به بالحبال وبعدئذ ينطلقون . قالت : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذاك توجه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل . ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل فتهيئوا لذلك وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، ورجعت إلى الرحل فالتصت عقدى فلم أجده ! وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فعدت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتصته حتى وجدته .

وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير - وقد كانوا فرغوا عن إعداده -
فأخذوا المودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ،
ولم يشكوا لى به ثم أخذوا برأس البعير وانطلقوا !!

ورجعت إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب . لقد انطلق الناس ! قالت :
فتلفت يجلبأى ثم اضطجعت فى مكأى وعرفت أنى لو أفقت لرجع الناس إلى
فو الله إنى لمضطجعة ، إذ مر بى « صفوان بن المعطل السلمى » وكان قد تخلف
لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على - وقد
كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه
راجعون » ظعينة رسول الله ؟ وأنا متلفة فى ثيابى !!

ما خلفك برحك الله ؟ قالت : فما كأته ، ثم قرب إلى البعير : اركبى ،
واستأخر عنى . قالت : فركبت وأخذ برأس البعير منطأاً يطلب الناس فو الله
ما أدركنا الناس وما أفقت حتى أصبحت ونزلوا ، فلما اطمأنوا طاع الرجل
يقود بى البعير ، فقال أهل الإفك ما قالوا . وارتج العسكر ، وو الله ما أعلم بشىء
من ذلك .

ثم قدمنا للمدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، وليس يبالغى من ذلك
شئ ، وقد أنهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى ، وهم لا يذكرون لى منه
كثيراً ولا قليلاً - إلا لى قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض
لطفه لى فى شكواى هذه .

فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضى قال : كيف نيكم ؟
لا يزيد على ذلك . قالت : حتى وجدت فى نفسى - غضبت - فقلت يا رسول الله
- حين رأيت مارأيت من جنأه لى - : لو أذنت لى فأنقلت إلى أمى ؟ قال :
لا عليك قالت : فاقبلت إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقيت من وجبى
بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عرباً ، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى

تفخذها الأعاجم ، نعاها ونسكرها ، إنما كنا نخرج في فمبح المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجن . فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعى أم مسطح ، فوالله إنها لتشي معى إذ عثرت في مرطها فقالت : تعس مسطح ؟ فقلت : بئس — لعمر الله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرأ ! !

قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخبر ! فأخبرتني بالذى كان من أهل الإفك . قلت : أو قد كان هذا ؟ !
قالت : نعم . والله لقد كان ! .

قالت عائشة : فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتي . ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . وقلت لأُمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : أى بنية ، خفنى عنك فوالله أقل ما كانت امرأة حسناء . عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها .

قالت : وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبهم — ولا أعلم بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟

والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى ! قالت : وكان كبر ذلك عند « عهد الله ابن أبى » فى رجال من الخزرج ، مع الذى قل « مسطح » و « حمنة بنت جحش » وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزل عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً . وأما « حمنة » فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى بأختها . فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ،

إن يكونوا من « الأوس » نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا « الخزرج »
فرنا أمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فقام « سعد بن عباد » -
وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ، ماتضرب أعناقهم
إنك ماقلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك
ماقلت هذا .

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..
وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فدخل على ودعا « علي بن أبي طالب » و « أسامة بن زيد »
فاستشارهما . فأما « أسامة » فأنى خيراً ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ، وما نعلم
منهم إلا خيراً . وهذا الكذب والباطل !

وأما (علي) فقال : يا رسول الله إن النساء لكثير . وإنك لقادر على أن
تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم (بريرة) يسألها ، وقام إليها على فضربها
ضرباً شديداً وهو يقول : اصدقني رسول الله ! فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً وما
كنت أعيب على عائشة ، إلا أنى كنت أعجن عجيني ، فأمرها أن تحفظه ،
فتنام عنه ، فتأتى الشاة وتأكله !!

قلت : ثم دخل على رسول الله وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار
وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقي الله ، وإن كنت قد فارت
سوءاً مما يقول الناس ، فتوبى إلى الله يقبل التوبة عن عباده ..

قالت : فوالله ، إن هو إلا أن قال لي ذلك حتى قلص دمي ، فما أحس منه
شيئاً ، وانتظرت أبوى أن يجيبا مني فلم يتسكلا !

قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنًا من أن ينزل الله في قرآنًا ، لكنني كنت أرجو أن يرى النبي عليه الصلاة والسلام في نومه شيئًا يكذب الله به عني ، لما يعلم من براءتي . أما قرآنًا ينزل في ، فوالله ، لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك .

قالت : فلما أرى أبوي يتكلمان ! قلت لما : ألا تحييان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقالا : والله لاندري بما نحييه ، قالت : والله ما أعلم أهل البيت دخل عليهم ، ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام . ثم قالت : فلما استعجبا عليّ استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول للناس - والله يعلم أني بريئة - لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني قالت : ثم التمت اسم يعقوب فما أذكره . فقلت : أقول ما قال أبو يوسف (فصبر جميل) والله المستعان على ما تصفون) .

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بشوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت وما باليت ، وقد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالم . وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما مرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله مجلس وإنه لينحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ ، فجلس يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشري يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت : الحمد لله ، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ

هو خيرٌ لكم لكل امرئٍ منهم ما اكتسبَ من الآثم والذي تولى كبره^١ منهم له عذابٌ عظيمٌ» (١).

والغريب أن الحد أقوم على من ثبتت عليهم تهمة القذف ، وهم (حسان بن ثابت) و (مسطح) و (حمنة) أما (عبد الله بن أبي) مدرّ الحملة وجرثومتها الخفية ، فإنه كان أحذر من أن يقع تحب طائلة العقاب . لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه ...

وكتاب السيرة على أن (حديث الإفك) و (غزوة بنى المصطلق) كانا بعد الخندق لسكننا تابعا (ابن القيم) في اعتبارها من حوادث السنة الخامسة قبل هجوم الأحزاب على المدينة . والتحقيق يساند (ابن القيم) ومتابعيه . فستعلم أنه (سعد بن معاذ) قتل في معركة الأحزاب . مع أن لسعد في غزوة بنى المصطلق شأنًا يذكر . إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام اشتكى إليه (٢) عمل ابن أبي ولا يتفق أن يستشهد سعد بن معاذ في غزوة الخندق ثم يحضر بعد ذلك في بنى المصطلق ، لو صح أنها وقعت . في السنة السادسة .

غزوة الأحزاب

أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربت كل طائفة مفردة . وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة وكان زعماء

(١) هذه القصة صحيحة رواها بهذا السياق ابن إسحاق بأسانيد صحيحة عن عائشة . ومن طريقه أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٢٠٠/٢ - ٢٢٢) وهي عند البخاري (٧/ - ٤٤٧ - ٣٥) ومسلم (٨/ ١١٣ - ١١٧) بنحو ما هنا .

(٢) لعله وم أو سبق قلم ، فإن للشككي إليه إنما هو أسيد بن حضير كما في سيرة ابن هشام (٢١٧/٢) . على أن إسناده مرسل فلا حاجة فيه . وفي الباب مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أشياء صحيحة فيراجع لها « فتح الباري » (٢/ ٣٤٥) .

يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة ، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدتهم في جيش كثيف ينزل محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه في معركة حاسمة .

وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، وكانت قريش قد أخلفت عندها مع النبي عاماً .

وهي لا بد خارجة لقتال المسلمين إنقاذاً لسمعتها وبرأ بكلمتها .

وها هم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبغيون فلا مكان لتوجس أو إخلاف .

والغريب أن أحبار التوراة أكدوا لعبدة الأوثان في مكة أن قتال محمد صلى الله عليه وسلم حق ، واستئصاله أرضى الله ! لأن دين قريش أفضل من دينه . وتقليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن ! ، وسرت قريش بما سمعت ، وزادها إصراراً على العدوان . فواعدت اليهود أن تسكون معها في الزحف على المدينة .

رترك زعماء اليهود قريشاً إلى أعراب « غطفان » فعقدوا معهم حلفاً مشابهاً لما تم مع أهل مكة ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الدقة على الدين الجديد

وبذلك نجح سياسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وعرف المسلمون مبالغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا — على عجل — الخطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودوائهم ، وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب — قبلاً — بمثلها ، وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة .

أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين .

وأُقبلت الأحزاب في جمع لا قبل للمسلمين برده .

قربش في عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من « كنانة » و « تهامة »
و « غطفان » في طليعة قبائل « نجد » .

وبرز المسلمون بعد ما جعلوا نساءهم وذرايعهم فوق الآطام الحصينة من يثرب .
ثم انتشروا على حدود مدينتهم مستدين ظهورهم إلى جبل سلع ، ومرا بطين على
شاطيء الخندق الذي احتفروه بعد جهود مضنية ، وبلغت عدتهم في هذه المعركة
نحو ثلاثة آلاف مقاتل .

* * *

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في
ساحة ممهدة ليس طريق النصر . فما عسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافحة مع هذا
السيل الدافق ؟

لذلك لجأ إلى هذه المكيده ، ويروى أن الذي أشار بها « سلمان الفارسي »
وتقدم النبي رجاله لإحكامها وإنجازها ، فأخذ يحفر بيده ويحمل الأثربة والأحجار
على عاتقه وتأمى به الرجال الكبار ممن لم يأنفوا هذا العمل قط ، فشهدت يثرب
منظراً عجباً ، وجوهاً ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفتوس وتحمل
المكانل ، وتتعري من لباسها وزينتها لتلبس حللاً من نسج الغبار المتراكم
والعرق والغبوب !! .

قال البراء بن عازب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم
الخندق حتى اغبر بطنه وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن مكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بَنَوْا علينا إذا أرادوا فتنة أَيْنَا (١)

وهذا الغناء من شعر « عبد الله بن رواحة » كان المشتغلون في الخندق يزجحون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمه وترديد الكلمات الأخيرة من مقاطعة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يد صوته بها معهم فيقول : لا قينا ، أَيْنَا (٢) مما يعيد إلى أذهاننا صور « الفعلة » الذين يحفرون الترع بالريف ، أو يبنون القصور بالمدن .

إن الدفاع عن الإسلام ، وخفاة الفتنة لو انتصر المشركون ، جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل ، ونفوسهم راضية مقبضة ، مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة .

ولا تحسبن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعميق الخندق وقذف أتربة من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا . كلا . كلا .

إن الرجولة السكادحة الجادة في أنبل صورها . كانت تقتبس من مسلك الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه للعة . يقول البراء : لقد وارى عنى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر (٣) .

أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه . فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل .. وكان الفصل شتاء ، والجو بارداً وهناك أزمة في الأفوات تعانها المدينة التي توشك أن تعرض لحصار عنيف ، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان في صحيحهما .

(٢) حديث صحيح وهو رواية للبخارى عن البراء بن عازب .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٣١٩/٧) .

فلو تعرض المحصور لسوراته القابضة ، فزالق الاستسلام للذليل أمامه تنجرُّ به إلى الحضيض لذلك اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في تدعيم القوى المعنوية لرجاله ، حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم محابة صيف عن قليل تقشع .

ثم يستأنف الإسلام مسيره بعد ، فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندك أمامه معاقل الظلم ، فلا يصدر عنها كيد ، ولا تخشى منها فتنة .

ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الوامع مراحل الجهد المضني .

قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان ، وحذيفة ، والنعمان بن مقرن ، وستة من الأنصار في أربعين ذراعا — من الأرض التي كلفوا بحفرها — فحفرنا حتى وصلنا إلى صخرة بيضاء كسرت حديدنا وشقت علينا ، فذهب سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عن هذه الصخرة التي اعترضت عملهم وأعجزت معاولهم .

فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ من سلمان للمول ، ثم ضرب الصخرة ضربة صدمتها . وتطاير منها شرر أضاء خلل هذا الجو الداكن . وكبر رسول الله عليه الصلاة والسلام تكبير فتح ، وكبر المسلمون . ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك .

تفتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيّد الجلد ، الموصول بالسما الراسخ على الأرض ، ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى صحبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الغامرة والأمل الحلو ، فقال — يحدث صحبه عن العنا المنقذ بين حديد المول وحدة الصخر — : لقد أضاء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . وفي الثانية أضاء القصور الحجر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي

ظاهرة عليها . وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعود صادق ^(١) !

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيقوا عليها الخناق لم تطرف نفوس المسلمين شعاعاً بل جابهوا الحاضر المرّ وهم موطدو الأمل في غد كريم « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

أما الواهون والمرتابون ومرضى القلوب . فقد تندرأوا بأحاديث الفتح ، وظنوها أمانى المغرورين وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنهم تحفرون الخندق لاستطيعون أن تبرزوا .

وفيهم قال الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

* * *

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب . فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع . ومع تلك الحقيقة فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها

(١) ضعيف جداً بهذا السياق رواه ابن جرير في تاريخه من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف الزنى عن أبيه عن جده . و « كثير » هذا متروك بل قال الشافعي وأبو داود ركن من أركان الكذب وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه (١٠٠/٤) « حديث غريب » وقصص الصخرة ثبتت في صحيح البخاري (٣١٧/٧) من حديث البراء مختصراً ، وهي عند أحمد (٣٠٣/٤) من حديث مطولا ، وإسناده حسن كما قال الحافظ في « الفتح » (٢١٧/٧) ، فيحسن جملة مكان حديث « كثير » .

أشبه بمصير رجل يمشى على حافة قمة سامقة ، أو جبل ممدود ، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه ، لهُوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق ، ممزق الأعضاء ، بمنزع الأشلاء ! ولقد أُمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يهددها بالغرق ليلاً أو نهاراً . وبين الحين والحين يتطلع المدافعون : هل اقتحمت خطوطهم فى ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ، ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر .

وعرف المسلمون ما يتربص بهم وراء هذا الحصار ، فقرروا أن يربطوا فى مكانهم ينضحون بالنبل كل مقرب ، ويتحملون لأواء هذه الحراسة التى تنظم السهل والجبل ، وتنسع ثغورها يوماً بعد يوم وهم كما وصف الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أفلٍ منكم . وإذ زاغت الأبصارُ وبلتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنون) هـ هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) .

وكره فوارس من قریش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو ، فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمهم . فخرج عمرو بن عبدود ، وعكرمة بن أبى جهل ، وضرار بن الخطاب ، وأقبلوا تعق بهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق . فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمسكيدة ما كانت العرب تـسكدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، وضربوا خيلهم فقتلهمته . وأحسن المسلمون الخطر المقرب ، فأمرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم على بن أبى طالب .

وقال على لعمر بن عبدود ، وهو فارس شجاع معلم : يا عمرو إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قریش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ! قال : أجل فقال له على : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ! قال عمرو :

1

مع قريظة

انقضت حشود الأحزاب حول المدينة ، وعادت الملقى بها من حيث أتت
تذرع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة ، وتبقى يهود قريظة
وخدمهم ، أو بقوا وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طواياهم ، فأصبحوا وأمحووا
أشبهه بالجحرم الذي ثبتت إداقته ، فهو يرقب - بوجه كالح - قصاص
العدالة منه .

وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها ،
لأنهم هم الذين امتخرجوا العرب استخراجاً ، واستقدموهم إلى دار الهجرة
ليجتأحوها من أقطارها ، ويستأصلوا المسلمين فيها ؛ إن جراحات المسلمين لطردهم
من ديارهم ومطارذنتهم في عقيدتهم ، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب
ومغتال ، لما تدمل بعد ، بل لن تدمل أبداً ، فكيف ساغ لأولئك الخونة
من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطه لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا
الذبح والذليل ؟

ثم ما الذي يجعل بني قريظة خاصة - وهم لم يروا في جوار محمد إلا البر
والوفاء - يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في
قتل المسلمين وسلبهم ؟

وها قد دخل في حصونهم حي بن أخطب رأس للعصابة التي طافت بمكة ونجد
تخرص الأحزاب على الله ورسوله ، وترغم أن الوثنية أفضل من التوحيد . .
لذلك ، ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً يأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا
يصلين العصر إلا في بني قريظة^(١) .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن هشام (٢ / ١٩٤ - ١٩٥) عن ابن اسحاق
حدثني الزهري به مرسل ، وقد أخرجه البخاري (٣٢٧ / ٧) ومسلم (١٦٢ / ٥) وغيرهما
من حديث ابن عمر ، به دون قوله : « من كان سامعاً مطيعاً » .

والأذان للقتال في هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين ندياً جلياً، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب ؟ إنهم مدينون بحياتهم وكراماتهم للعناية العليا وحدها ..

أما خصومهم ، فإن قوى السكون المسخر بإذن الله هي التي فضت جموعهم وفلت حدودهم . فلاخرو إذا قال رسول الله للمؤمنين - محدثاً عن الروح الأبن - : « ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة ، فإني عامد إليهم فززل بهم (١) » .

وقد صدع الرسول بالأمر وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه روى البيهقي أن رسول الله قال لأصحابه : عزمت عليكم أن لاتصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بنى قريظة ، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم . فقالت طائفة من المسلمين : إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا . وقالت طائفة : والله إنا لنرى عزيمة رسول الله ، وما علينا من اثم . فصلت طائفة إيماناً واحتساباً . وتركت طائفة إيماناً واحتساباً ، ولم يعنف رسول الله واحداً من الفريقين (٢) .

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر مادامت عن اجتهاد برىء سليم ، والناس غالباً أحدرجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة

(١) هو من حديث الزهري للتقدم . لكن أمر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بالسير ثابت في صحيح البخاري (٣٢٧/٣) والمسنود (٥٦/٦ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ٢٨٠) من حديث عائشة .

(٢) حديث صحيح رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من حديث عبيد الله بن كعب ، وحديث عائشة ، وأخرجه عنها الحاكم (٣ / ٣٤ - ٣٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ؟

لا يعدوها ورجل يقين حكمتها ويستكشف غايتها ، ثم يتصرف في نطاق ملوعى من حكمتها وغايتها ، ولو خالف الظاهر القريب .

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه ، واحتسابه ، سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه ! ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال . وذلك مذهب البخارى وغيره ، وهذا — عندى — أذى إلى الصواب . فإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة ، بل إنه لا يفهم دينه فوماً صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى . فيها الفرائض وفيها النوافل .

ولا بد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . فالرجل الذى يستكثر

من أعمال التطوع فى الوقت الذى يهمل فيه فرائض لازمة . رجل ضال .

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان . كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم .

وكأن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها ، أو الزلالية وحدها ، بل لا بد من استكمال جل منوعة من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهك أو تقتله .

فكذلك الدين ، إنه لا قيام له فى كيان الفرد أو فى صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة ، تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه .

وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة فلا يشغله واجب عن واجب . وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب ! .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مباغته بنى قريظة قبل أن يستكملوا عتقهم ويقولوا حصونهم ، هو الواجب الأول فى تلك الساعة فلا ينبغي أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة .

فحذروا وقت الصلاة تدوب أمام ضرورات القتال .

وتستطيع - على ضوء هذا الإرشاد النبوي - أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم إن المدرس الذى يشغل عن تعليم تلامذته . والتاجر الذى يشغل عن تمييز ثروته ؛ والموظف الذى يشغل عن أداء عمله لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً فى تضييع هذه الفرائض ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة . أو قرأ ألف آية ، أو عد أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة . كما يفعل جهال المتصوفة .

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم يتطلب وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها فى محاربة جهلها وقررها وفوضاها .

والجهاد العام فريضة لا ينقض من قدرها شئ ؛ ولا تراحمها عو وقتها عبادة كما رأيت .



حمل راية المسلمين إلى حصون قريظة على بن أبى طالب واستبقي المسلمون يمتشدون حولها ، حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غرايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ثم سبوا رسول الله ونساءه سباً قبيحاً .

فراى على أن يصرف النبي صلى الله عليه وسلم بعيداً عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً . يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث فقال : لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله قال : لو رأونى ، لم يقولوا من ذلك شيئاً .

فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم همته ^(٢) ؟ قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً :

(١) ضعيف أخرجه ابن اسحاق عن الزهرى مرسلًا ؛ وعنه ابن هشام (٢/١٩٤ - ١٩٥) ؛ ورواه الحاكم (٣/٣٤ - ٣٥) من حديث ابن عمر ؛ وإسناده ضعيف .

هذه خلال اليهود ، يسفهمون إذا أمنوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويذكرون
الناس بالمثل العليا إذا وجلوا ، ليستفيدوا منها وحدهم لا لشيء آخر .
أما اليهود ، فهمي آخر شيء في الحياة يقفون عنده .
على أن سفاهتهم لم تغفهم . فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا
بمخناقمهم فاستيقن القوم أن الاستسلام لا يحيص عنه ، وامتلات قلوبهم باليأس
والقزع .

قال « كعب » سيد بني قريظة . يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترونه
وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثا ، فخذوا أيها شتم . قالوا : وما هي ؟
قال فتابع هذا الرجل ونصده . فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل ، وإنه
الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونساءكم
قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا . ولا نسبدل به غيره .
قال : فإذا أبيتم على فلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا . ثم نخرج إلى محمد وأصحابه
رجالا مصليتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه
فإن هلك ، هلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن ظهر ، فلعمري لنجدن
النساء والأبناء .

قالوا نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟
قال : فإن أبيتم على هذه ، فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد
وأصحابه قد آمنوا فيها . فأنزلوا علينا نصيب منهم غرة ؟

قالوا : نفس سبتنا علينا ومحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا ؟
قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما .
وحارل بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذي ناله إخوانهم بنو النضير من قبل ،
بيد أن المسلمين أبوا عليهم إلا أن يسلموا دون قيد أو شرط ، فإن ما أسلف هؤلاء

سمن جرم بين وغدر شان ، أحفظ عليهم الصدور ، فلم يبق فيها مكان لسماح ،
وتمحض الموقف للعدل الجرد يقرّ الأمور في نصابها كيف يشاء .

واستقدم اليهود — وهم محصورون — أبا لبابة بن عبد المنذر يستشيرونه .
فأينزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : نعم ، وأشار إلى خلقه ، كأنه ينبههم إلى أنه
القدح ؟ ثم أدرك — لغوره — أنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضى هاماً
على وجهه حتى أتى مسجد المدينة . فربط نفسه على سارية فيه . وحلف ألا يفك
حملاً حتى يتوب الله عليه .

وقد قبل الله منه ندمه ، ونزلت فيه بعد أيام الآية (وآخرون اعترفوا
بجدّ نوبهم . خاضوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) إن الله
غفور رحيم .

واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة سمح المسلمون في اثنتائها لليهود الذين رفضوا
الغدر بالرسول عليه الصلاة والسلام أيام الأحزاب أن يخرجوا فجزومهم عن قلوبهم
خيراً . وخلص سبيلهم ، ينطلقون حيث يرغبون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة .

فصاح على : يا كتيبة الإيمان — ومعه الزبير بن العوام — والله لأذوقن ماذاق
حمزة أو لأفتحن حصنهم فقال بنو قريظة : يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ .

فاستنزلوا من حصنهم وسيقوا إلى محبسهم ، حتى جاء سعد بن معاذ ليقضي
في حلفائه بما يرى ..

وكان « سعد » سيد الأوس وهم حلفاء قريظة في الهامية ، وقد توقع يهود أن
هذه الصلة تنفعهم ، وتوقع الأوس أيضاً من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم
« الأنفدين » ، فلما استقدمه الرسول عليه الصلاة والسلام ليصدر حكمه . جاء من

الخيمة التي برّض فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب واكتنفه قومه يقولون ٤ :
يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ...

لكن سعد لم ينس - في ضجيج الرجاء الموجه إليه - أن الإسلام وأبناءه ،
والمدينة وتمارها وحرثها ونسائها وحرمانها ، لم تنج من وطأة الأحزاب المهاجرين ،
إلا بأعجوبة خارقة . وأن بني قريظة هؤلاء ومن آوؤهم ، كانوا المحرضين والشركاء
المقبوحين في هذه الحرب التي أعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله .

ولم ينس سعد : كيف نقضت قريظة عهدها ، واستقبلته بالألغاز البذيئة عندما
ذهب ينشدها الوفاء ! ألم يقل لهم يومئذ : أخشى عليكم مثل يوم بني النضير
وأمر منه ؟ فكان ردهم عليه ، أكلت أيرايك !!

لذلك مالئ سعد أن صاح بقومه - وقد أكتروا عليه الرجاء - : قد آن
لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

• • •

وحكم سعد أن يقتل الرجال ، ونسبى الذرية وتقسّم الأموال ، وأفرأني هذا
للقضاء الحازم قائلا لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات (١) .

وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم ، وسبق إليها مقاتلة لليهود
أرسالا - طائفة بعد أخرى - ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم .

قال اليهود لسيدهم كعب وهم يساقون لمصارعهم : ما تراه يصنع بنا ؟ قال .
أفي كل موطن لاتقولون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وإنه من ذُهب به منكم
لا يرجع ؟ هو - والله - القتل .

(١) حديث صحيح أخرجه الإمامان وعنه ابن هشام (١٩٧/٢) عن علقمة بن
وقاص الأيبي مرملا ؛ لكن أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري دون
قوله : « من فوق سبع سموات » فهذا ضعيف .

أجل . هو القتل . وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صديقه ،
وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق ، ولو قد تحققت لكان ألوف
المسلمين هلكي تحت أقدام الأحزاب المنسابه من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم
أولئك اليهود .

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سبباً في هذه الكارثة التي حلت
ببني قريظة ، ولو أن حيي من أخطب وأضرابه مكثوا في جوار الإسلام وعاشوا
على ما أوتوا من معانم ، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير .
لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنًا فادحاً لأخطاء قادتها .

وفي عصرنا هذا ، دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماناً باهظة ،
لأثرة السياسة الخدوعين ..

ولذلك ينعي القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبلهم :
(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار .
جهنم : يصلونها وبئس القرار !) ...

لقد جرى بحبيبي ليلقي جزاءه . وحبيي - كما علمت - جرثومة هذه الفتن ؟
فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أما والله ما لمت نفسي في
عداوتك ، ولسكن من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ،
لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة ، كتبها الله على بني إسرائيل ! ثم جلس ،
فضربت عنقه !

وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقفلل يبنى العز كل مقفلل

والحق أن من مشركي قريش ومن رجال يهود أناماً واجهوا الموت بثبات .
ولن تقدم المبادئ الباطلة والنحل الهائلة أتباعاً يفتقدونها بالأرواح والأموال
غير أن شيئاً من هذا لا يجعل الباطل حقاً ، ولا الجور عدلاً .

إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس ، هو موقفهم من المسلمين اليوم .
فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يمتلئون فلسطين .

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر في أقطار أوروبا ، وجبنوا عن
مواجهتهم بشراً ! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثني عشر قرناً ،
فكفلواهم على النحو الخزي الفاضح ، الذي لا يزال قائماً في فلسطين ... تشهده
وتؤيده ونسائده ، دول الغرب .

* * *

في طرد الأحزاب ودخر قريظة ، نزلت الآيات (وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ه وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ه
وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسِرُونَ فَرِيقًا ه وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَحْطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) .

فقد المسلمون في هذا الصراع ، مع المشركين أولاً ، ومع أهل الكتاب ثانياً ،
عدداً يسيراً من رجالهم منهم « سعد بن معاذ » . أجاب الله دعوته فمات شهيداً
من جراحته التي أصابته يوم الأحزاب بعد أن شفى الله غيظه من يهود قريظة وبعد
أن تبين فشل قريش في هجومها على المدينة ، وانقلابها انغزى في عقر دارها ،
لأن تغزو الآخرين .

ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بهزيم قريظة وانكسار شوكتها ، فإن

بعض مؤلّجى الأحزاب على الإسلام قرّاً إلى خير لا نذا بمحصولها مستظهراً
بإخوائه فيها ، مثل أبى رافع بن أبى الحقيق ، وهو شريك حىّ فى التطواف
بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بنىة الإتيان على الإسلام وأهله وأبى يؤمن لليهود
شراً بما بقيت لهم قدرة على فعله . وقد صوّر حديث الرسول نقمة اليهود على الإسلام
بقوله : « ما خلا يهودى بمسلم إلا هم بقتله ^(١) » ولا نعرف لهذه النقمة الدفينة علة ،
إلا انحراف أصحابها عن الجادة . ومن حق المسلمين أن يحذروها ، وأن لا يدعوا
لها بقية تنموا على الزمن .

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خير ، بقيتهم القضاء على
أبى رافع وإلقاء الذعر فى قلوب شيعته وقد أمر الرسول عليهم عبد الله بن عتيك
ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة ... ^(٢)

وقدم المغامرون أرض خير . وانهوا إلى دار ابن أبى الحقيق وقد أظلمهم
المساء . قال عبد الله بن عتيك لصحبه . — عند مادنوا من الحصن — : امكثوا
أنتم حتى أنطلق أنا فأناظر . قال : فاحتلت لأدخل الحصن ، فإذا الخلد قد قعدوا
حاراً لهم فخرجوا بقبس بطلونه ، فخشيت أن أعرف ، فغطيت رأسى وجلست
كأنى أقضى حاجة .

فقتل البواب — بعدما استرجعوا حاجتهم — : من أراد أن يدخل فليدخل
قبل أن أغلقه ، فدخلت واختبأت فى مربوط الدواب عند باب الحصن .

وتعشى أبو رافع وصحبه ، وأخذوا يسرون حتى ذهبت ساعة من الليل ثم
انصرف عنه جلساؤه قائلين إلى بيوتهم ، وهدأت الأصوات فما أسمع حركة .

(١) حديث ضعيف أخرجه الخطيب فى « تاريخ بغداد » (٢١٦ / ٨) وقال
« حديث غريب جداً » .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى عن البراء بن عازب .

وخرجت . وأنا أعرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن فأخذتها وفتحت الباب حتى إذا أحس بي القوم انطلقت على مهل . ثم عمدت إلى أبواب غرفهم ففلقتها من ظاهر . ثم صعدت إلى أبي رافع - حيث يبيت في العلالى - فإذا البيت مظلم قد أطفئ سراجة . فلم أدر : أين الرجل ؟ . فقلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فعمدت نحو الصوت فضربتة ، فصاح ولم تكن الضربة شيئاً .

وجئت كأنى أغيبه فقلت : مالك يا أبا رافع ؟ - وغيرت صوتى - قال : لأملك الويل ، دخل على رجل فضربنى بالسيف ! فعمدت إليه فضربتة ضربة ثانية . فصاح ، وقام أهله ، فجئت مرة أخرى إليه وهو مستلق على ظهره فأجهمز عليه ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل ، فسقطت منه فالتحلت رجلى ، فعصبتها وأتيت أصحابى أحجل .

وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أزاحوا من طريق الدعوة عقبة كاداء .

تضمضع الكفر بعد هذه الوقعات الغليظة . ورست أصول الإسلام واطمأن دولته . فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها وتذيق الماعدين بأسها . واستيقنت قریش وأحلافها أن رد المسامين إلى عبادة الأوثان ضرب من المستحيل كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث الدين الجديد والرسالة الخاتمة لم يزدحم إلا خبالاً .

ولم تقع بعد غزوة الأحزاب هذا العام إلى أخريات السنة السادسة - أى إلى عمرة الحديبية - أحداث ذات بال .

حاولت هذيل أن تجمع للاغارة على المدينة ، فقتل قائدها خلد بن سفيان ، فعمدت وهجم لصوص الأعراب على المدينة يقودهم « عبيدة بن حصن » فى خيل لظفان . واستاقوا إبلها ثم ولوا بها هارين . غير أن سلمه بن الأكوع صرخ بأهل المدينة

محتذراً . وتبع المغيرين وحده يرميهم بالنبل ويسترد منهم القناص المنهوبة حتى أدركه فرسان المسلمين ، فلما رأهم المشركون فروا بعد ما قتل بعضهم وتركوا ما معهم .

ويروى البخاري أن ذلك كان بعد الحديبية لا قبلها ، وأعله أصح .

وفي هذه الفترة تزوج النبي بأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت مهاجرة مع زوجها بالحشة . فارتد صاحبها وهلك ، وبقيت وحدها .

فرأى النبي - إغزازاً للسيدة التي تركت أباه - وهو زعيم مكة - وآثرت الهجرة إلى الله على البقاء في كنفه - أن يتزوجها ، فأرسل إلى النجاشي مهرها ووكله عنه في العقد عليهما .

وتزوج كذلك زينب بنت جحش ، وسنتكلم عن تفاصيل ذلك في الباب الذي نفرده بعد امتداد الزوجات ، وزوجات الرسول - كذلك . ويقال إن الإسلام وقع في قلب « عمرو بن العاص » في هذه الأيام .

فقد أناره ما يلقاه محمد من ظفر ، وقال لبعض صحبه :

إني أرى أمر محمد يعملو لأمر علواً منكراً ، ثم اقترح عليهم أن ياحقوا بالحشة ، ويراقبوا نتائج الصراع بين المسلمين وقومهم !! .

فلما ذهب إلى الحشة ورأى إكرام نجاشيه للرسول ومن ينتمي إليه ، مال إلى الدخول في دين الله . .

ولكنه كنتم ما بقلبه حتى اقترب ففتح مكة ، والتقى بخالد بن الوليد وكان خالد قد أجمع أمره على الإسلام وانتوى الذهاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مهجره ليتبعه ، قال له عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم - وضع الطريق - وإن الرجل لنبي ! أذهب - والله - فأسلم لختي متى ؟

وسرَّ عمرو أن يجده صاحباً كخالد ، فصارحه بما في نفسه وانطلق الرجلان إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

وقصة إسلامهما - كما قلنا - قبيل الفتح فإن خلدًا كان في عمرة الحديبية قائداً لجيش قريش . وهي تصد المسلمين عن زيارة البيت المتيق .

(۷)

طَوْرَجَدِيدٌ

عمرة الحديبية

جاء تفكير المسلمين في زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة في تاريخ دعوتهم . أليسوا يعالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طردوا منها بالأسلحة وحاربوا حيث استقرت بهم النوى ؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تسفر عن نتيجة حاسمة ؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف ... ؟

والجواب أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم ، وإفهام للمشركين أن المسجد الحرام ليس مملوكاً لقبيل يحكمه القيام عليه ويمكنه الصده عنه ، فهو ميراث الخليل إبراهيم . والمجإ إليه واجب على كل من بلغه أذان أبى الأنبياء من قرون :

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلا تَشْرِكْ بِي شَيْئاً ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه ، وأن ينشطوا قديماً إقصاءهم ، إنهم - بعد ما وقع من قتال - لن يصروا على خطتهم القديم . وإحرام النبي وصحبه بالعمرة فحسب - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم ، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة ، وتأسيس علائق أهدأ وأرق .

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن استفرغت قريش جهدها في إيذاء المسلمين ، وعندما بدا فشلها الذريع في ذلك . لقد استمرت بضع سنين تقتل وتبذل من دمها ومالها

لتهمز الإسلام فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات العضوض ،
على حين رجعت أقدام المسلمين ، وعلت راياتهم ، وانكش عدوهم ، وهام أولاء .
يخرجون إلى مكة عباداً مخبتين لاغزاة منتقمين . أجل إنهم لا يبنون إلا أن يندلوا
مثل ماغصيرهم من حق الاعمار والحج ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبداً ،
وبذلك القصد السمع المذهب ، استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم جمهور المسلمين
وأعراب البوادي ، وآذنتهم أنه يريد العمرة ولا يريد قتالا . وساق أمامه
الهدى الذي سيذبح يطعم فقراء مكة . الفقراء الذين حشدوا لاستنصله يوم
الأحزاب ...

أكان الكفارون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام يفقهون هذه النية ويقدرّون
مكان صاحبها ؟

لا ... إنهم بقوا على العهد بهم من فساد الضمير ونية السوء .

فالأعراب المنتشرون حول يثرب ، ومن على شاكلتهم من المنافقين ، عرفوا
أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً عليه الصلاة والسلام ، أمرّاً قتل ، وأنه إذا أتى
إلا زبارة البيت - كما أعلن - فلن ندعه قریش حتى تهلكه أو تهلك
هي دون إبلاغه مأربه ... فهي عمرة مخفوفة بالأخطار في نظرهم ، والقرار منها
أجدي ١١ .

ولو فرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح في مقصده هذا ، فلا عتذار
لما به بعد عودته سهل .

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلَانَا فَاسْتَفِرُّ
لَنَا ۖ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ
مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْماً ؟ . بَلْ كَانَ اللَّهُ

بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسولُ والمؤمنون إلى أهلهم أبداً * وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء ، وكنتم قوماً بوراً)

وخرج المؤمنون الواقفون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعددهم قريب من ألف وأربعمائة ، وذلك في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . وساروا ملبيين يطوون الطريق إلى البيت العتيق فلما بلغوا « عسفان » على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها ، قد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم ، وأن جيشهم استعد للنضال ، يقود خيله خالد ابن الوليد .

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع الحرمه بالدماء والأشلاء ، والمسلمون لم يحيثوا لهذا ، وما كان لأهل مكة أن يلجئهم إليه . فقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لوخلوا بيني وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه الساقفة — يعني إلى الموت — (١)

* * *

(١) حديث صحيح أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح عن مسور بن مخرمة ومروان ابن الحاكم ومن طريقه أخرجه أحمد (٣٢٣/٤ — ٣٢٦) وابن هشام (١٢٦/٢) . وهو قطعة من حديث طويل في صالح الحديبية وقد أخرجه البخاري (٣٥١/٥ — ٣٧١) وأحمد (٣٢٨/٤ — ٣٣١) من طريق أخرى عهها بطوله . لكن عند البخاري وكذا أحمد أن هذا القول صدر منه صلى الله عليه وسلم بعد قصة الناقة الآفة عند عجي . بيدل بن ورقاء بإيه صلى الله عليه وسلم وإخباره بإياه أنه لم يأت لحرب . وهذا أصح قطعاً من رواية ابن إسحاق .

ومُضْياً مع الرغبة عن الثقال ، وتخليصاً للنسك المقصود من شائبة تحدُّ^١
سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : مَنْ رَجُلٌ يُخْرِجُ بَنًا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ
طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهِ ^(١) ؟

فجاء رجل من أسلم فـلَاكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعَرَا أَجْرَدَ . شَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اجْتِيازَهُ
ثُمَّ أَفْضَى بِهِمْ إِلَى أَرْضٍ سَهْلَةٍ عِنْدَ مَنْقَطَعِ الْوَادِي ، اثْنَى الْمَسْلُومُونَ عِنْدَهَا يَمِينًا
لِيَهْبِطُوا عِنْدَ الْحَدِيثِيَّةِ أَسْفَلَ مَكَّةَ !

وَلَمْ تَخَفْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ عَنْ فَرَسَانِ قَرِيشَ ، فَتَرَكَضُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَكَّةَ كَيْ
يَحْمِلُوا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَدُخُولِهَا .

وَمَضَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَصْحَابِهِ فِي وَجْهِهِمْ الْمَحْدَدَةَ ، فَإِذَا بِنَاقَتِهِ
تَبَرَّكَ لَا تَجَاوِزُ مَكَانَهَا ! وَدَهَشَ النَّاسَ لِمَا عَرَاهَا فَقَالُوا . خَلَّتْ الْقَصُوءُ ! فَقَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا خَلَّتْ ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخَافٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ
عَنْ مَكَّةَ . لَا تَدْعُونِي قَرِيشَ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحْمِ إِلَّا أُعْطِيْتَهُمْ
إِيَّاهَا ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَحْمِلُوا حَيْثُ انْتَهَى بِالذِّقَّةِ الْمَسِيرَ ^(٢) .

وَنَزَلَ الْمَسْلُومُونَ كَمَا أَمَرُوا يَنْتَظِرُونَ مَعَ الْغَدِ الْقَرِيبِ أَنْ تَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ مَكَّةَ
فَيَطُوفُوا وَيَسْعُوا ، ثُمَّ يَعُودُوا وَافِرِينَ رَاجِعِينَ . لِنَهُمْ وَاقِفُونَ مِنْ إِدْرَاكِ بَغْيَتِهِمْ
وَلِمَاذَا يَشْكُونَ وَقَدْ سَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيَّاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّهُمْ
سَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمَنِينَ ، مُحْتَاقِينَ رُؤُسَهُمْ وَمَقْصَرِينَ ؟ .

أَمَّا قَرِيشٌ فَقَدْ ذَعَرَتْ لِهَذَا الزَّحْفِ الْمُبَاغِتِ ، وَفَسَكَرَتْ جَادَةً فِي إِبْعَادِهِ عَنْ مَكَّةَ
مَهْمَا كَلَفَهَا مِنْ مَغَارِمَ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا نَظَرَتْ إِلَى الْأَمْرِ مِنْ زَاوِيَةِ ضَيْقِهِ ، فَرَأَتْ أَنَّ

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في حديث الحديثية المشار إليه انفاً ؛

(٢) حديث صحيح ، من حديث الحديثية عند البخاري وغيره .

مهابتها متنزع من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلادهم على هذا النحو .
بعد ما وقع من حروب طاحنة .

غير أن قريشاً تعرف حروجة موقتها إن نشب قتال جديد .
فجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة . وقد ينهى بكارثة تودي
بكيانها كله ، ولهذا سيرت الوسطاء يفاوضون محمداً عليهم بآلهة مبهمة إلى مخلص
من هذه الورطة !!

وكان أول من جاءه « بديل بن ورقاء » في رجال من خزاعة ؛ فـكلموه .
وسأله : ما الذي جاء به هنا ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً
للبيت ومعظماً حرمة .

فرجعوا إلى قريش يقولون : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ،
إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فأنهم هم وجبههم ؛ وقالوا :
وإن كان جاء لا يريد قتلاً ... فوالله لا بدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك
عنا العرب ؟

ثم بعثت قريش « مكرز بن حفص » فعاد بما عاد به بديل الخزاعي .
ثم بعثوا سيد الأحابيش « الحليس بن عاقمة » لما رآه رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألمون ، فابعثوا الهدى في وجهه
حتى يراه ^(١) .

فما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي ، عاد إلى قريش قبل أن يصل
إلى رسول الله ، إعظماً لما شاهد فقال لهم ذلك ، فأجابوه : إجلس إنما أنت أعرابي
لا علم لك . فاستشاط الحليس وصاح : يامعشر قريش ، والله ما على هذا حافناكم

(١) حديث صحيح ، رواه ابن اسحاق في حديث المدينة

ولا على هذا عاقدناكم ، أیصد عن بیت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحلیس بیده ، لتخلن بین محمد و بین من جاء له ، أو لأنفرن بالآحایش نفرة رجل واحد .. فقالوا : مه ، كفّ عنا یا حلیس حتی نأخذ لأنفسنا ما نرضی به .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « عروة بن مسعود » وكره عروة أن يعود من مفاوضة المسلمين فيسمعه رجال قریش ما يسوؤه فقال : يا معشر قریش إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد إني ولد .

وقد سمعت الذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي . ثم جئتم حتى آسيتمكم بنفسی . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها — ؟ إلى قومك لتجتاحهم — إنها قریش خرجت معها العوذ اللطافيل — يقصد النساء والأطفال — قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً .

وكان أبو بكر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ، فلما وصل في حديثه إلى التعريض بالمسلمين قال له هازئاً : أمصص بظر اللات ! أنحن نفسك عنه ؟

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ! فردّ عروة على أبي بكر يقول : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكأفأنتك بها . ولكن هذه بهذه .

وعاود عروة حديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يتناول لحيته وهو يكلمه — كأنه ينبهه إلى خطورة ما سيقع بقومه — إلا أن الغيرة بن شعبة (٢٣ - فقه السيرة)

كان يقرع يده كلما فعل ذلك وهو يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لاتصل إليك ، فقال عروة له . ويحك ما أظنك وأغلظك ، ثم سأل النبي : من هذا يا محمد ؟

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتقسم . هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه . فقال عروة للمغيرة . أى غدر ، هل غسلت سوءتك إلا بالأمس ^(١) .

وقد ردّ النبي عليه الصلاة والسلام على عروة بما يقطع اللجاجة وينفي الشبهة . إله لا ينبغي حرباً ، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلتقى صاداً ولا راداً . ورجع عروة ينوء بإجلال الصحابة لرسول الله ، ويقول : إني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً سَفَرُوا رَأَيْكُمْ ^(٢) .

° ° °

إن الرجال الذين تسكلموا باسم قريش في هذه المفاوضات لم تنهص لهم حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نسكهم ، ولم يلحظ بعضهم في التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق بعد ماتيين ، إن النزق استبد بهم وأطاش ألباسهم فقررُوا ألا يدخل المسلمون البلد الحرام وليكن ما يكون ..

وبقى المسلمون في أماكنهم يلتمسون للمشكلة حلاً أخرى أفضل من اقتحام مكة في هجوم عام ، وحاول فريق من السفهاء أن يشعل المعركة ، لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم .

(١) كانت المغيرة قبل إسلامه داهية فاتكة ؛ قتل نفراً فوداهم عروة إطفاء للفتنة .

(٢) هذا كله من تمام القصة الحديبية عند ابن إسحاق . وهو عند البخاري بنحوه .

فمن ابن عباس أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمرهم أن يعطفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا ، وأتى بهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فعفا عنهم وخلي صليلهم ، وكانوا رموافي العسكر بالحجارة والبلبل . . (١)

وفي فظاظه قريش وسماحه المسلمين نزل قوله عز وجل :

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » .

ومن السكينة التي نزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتروح ، فلا يعترضها أحد ، أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك ، كاد خراش بن أمية الخزاعي يقتل ، لولا أن أنقذه الأحابيش ، فرجع وقد عُقر جلده وكان النبي عليه الصلاة والسلام أرسله ليلبلغ أهل مكة حقيقة بحبيته ، وأنه يريد العبادة لا الحرب . .

والرسل لا تقتل ، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعي .

والرجل إذا فقد وعيه لا يبالي أن ينتحر ، وقد انحرف كبراء مكة عن الصراط السوي ولم يكثرثوا للمصير القاتل الذي ينتظرهم إذا ركبوا رءوسهم . . فلو اصطدم المسلمون بهم ما قامت لهم قائمه ولأصبحت حرمة مكة في صميمها . .

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٢/٢٢٨) عن ابن إسحاق ؛ وفيه رجل لم يسم ورواه نحوه مختصراً أحمد (٤/٨٦—٨٧) من حديث عبد الله بن مغفل بسند صحيح وفيه أن عدد المشركين ثلاثون شاباً ؛ وفيهم نزول قوله تعالى : « وهو الذي كف أيديهم عنكم » الآية .

« وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ نَحْمُ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا *
سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ،
ورأى أن يعيد محاولاته لإقناع أهل مكة ، بتركه بزور ، وعود لشأبه .

فدعا^(١) عمر بن الخطاب ليذهب إلى القوم يحدّثهم بما خرج المسلمون فيه .

فقال عمر : يا رسول الله ، ليس بمكة أحد من بنى عدى يفضب لى إن أوديت
فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته لا تزال بمكة وإنه مبالغ عنك ما أردت .

ودخل عثمان مكة في جوار قريبه أبان بن معيد بن العاص ، واستطاع أن يبلغ
رسالة كاملة وأن يفهم من لقيه الحقيقة السريعة التي جاء المسلمون قاطبة بها .
فكان الرد الذي حظى به عثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت نطف .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله

ومما يذكّر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات .

كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة .

لقد انتشر الإسلام سرّاً في بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذي تستطيع
فيه أن تظهر إيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفر عليها .

ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك للنفر المؤمن وبشرهم بقرب الفتح ، فرأت
قريش أن عثمان قد عدا الحدود المعبودة ، وأمرت باحتبامه ، عندها وشاع —
لدى المسلمين — أن عثمان قتل .

* * *

(١) من تمام النص عند ابن إسحاق .

وحين بانّت هذه الشائعة مسامع النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا تبرح حتى
تفاجز القوم ^(١) .

ودعا الناس إلى مبايعته ، وكان تحت شجرة متشابكة الفصوص . فهرع أصحابه
إليه يبائعونه على الموت أو على أن لا يفروا .

حدث جابر بن عبد الله بعد ما كفّ بصره قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر
اليوم لأريتكم مكان الشجرة ^(٢) .

وروى عن جابر أن عبداً لحاطب جاء يشكوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويقول : لا يدخلن حاطب النار . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : كذبت ،
لا يدخلها ، شهد بداراً والحديبية ^(٣) ، وتسمى هذه البيعة « بيعة الرضوان » إظهاراً
إلى قول الله في أصحابها :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَمَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » .

وقد قطعت الشجرة ونسى مكانها ، وذلك خير ، ولو بقيت لضربت عليها قبة
وشدت إليها الرحال ، فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم عن الله .

عن طارق بن عبد الرحمن ، انطلقت حاجاً ففررت بقوم يصلون ، فمات ما هذا
المسجد : قالوا هذه الشجرة حيث بايع النبي عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان .

(١) ضعيف أخرجه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (٢٢٩/٢) عن عبد الله بن أبي
بكر مرسل .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٣٥٧/٧) .

(٣) صحيح أخرجه مسلم (١٦٩/٧) ؛ وتصديره بـ (روى) يشعر بضعفه فليحذف

فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قال فلما كان العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ثم قال سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ! وعلمتموها أنتم ؟ فأنتم أعلم .

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعثمان ^(١) .

على أن عثمان لم يطل احتباسه ، فان قریشاً جزعت أن نصيبه بأذى وهو من سراتها بمكان ، وسارعت إلى بعث « سميل بن عمرو » ليعقد مع محمد صلحاً .

ولم يكن يعنينا في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام ، على أن يعودوا بعد إذا شاءوا ، وذلك إبقاء على مكانة قریش في العرب !!

* * *

واستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاوض قریش وهو أرغب ما يكون في موادة القوم ، وإن كان قادراً على تحكيم السيف وإزال خصومه على منطقته الذي آثروه مذ صدّوه عن البيت ، وتكلم « سميل » فأطال وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح ، ووافق عليها النبي ، ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يضيها الفريقان .

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله مع أوليائه ومع أعدائه .

(١) صحيح أخرجه البخاري (٧/٧٩١) .

فأما مع أعدائه ، فقد ذهب في ملايتهم إلى حدود بعيدة ، وأولى به أن يقسو عليهم .

وأما مع أصحابه — فإنه على غير ما ألفوا منه — لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح .

مع أنه في شئون الحرب والسلام التي سلفت ، كان يرجع إليهم ، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره ، لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يسكرهون ، على غير ضرورة ملجئة ..

وقد شرحتنا في غير هذا المكان ^(١) موقف النبي عليه الصلاة والسلام في عمرة الحديبية خاصة ، وأبنا أن تقدير الأمور لم يترك للنظر المعتاد . بل كان الإلهام الأعلى توجيهه الصائب .

إن الله الذي عقل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتائب أن توالى زحفها وتشرع رماحها ، وقد تحرز نهرأ أقول على الإسلام — في جدواه — من صل مبارك النتائج .

قال الزهري : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأنى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أليسو بالمشركين ! . قال بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ! .

قال أبو بكر : يا عمر أزم غرزه — أمره — فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله !

ثم أتى رسول الله فقال أنت رسول الله ! قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين !

(١) في كتابنا : الإسلام والاستبداد السياسي .

قال : بلى .

قال أوليسو بالمشر كين ؟ قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله ، وإن أخالف أمره ، وإن بضيعنى ^(١) .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً بمن مع محمد لم يردوه عليه ! .

وأن يدتنا عيبة مكفوفة - صدوراً منطوية على ما فيها من خير - وأنه لا إغلال ، لا إغلال - لا سرقة ولا خيانة - - وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأنك ترجع عنا هامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا

(١) حديث صحيح ، وهو من تمام : قصة الحديبية ؛ والزهرى أحد رجال إسنادها وليس من مراسلاته خلافاً لما يبدو من السياق . وقد رواه موصولاً أحمد من طريق ابن إسحاق . وهو عند البخارى وأحمد من طريق أخرى بنحوه .

عنك فدخلتها بأصحابك . فأقت بها ثلاثاً معك سلاح الركب السيوف في القرب
لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب . إذ جاء ابن المفاوض عن
قريش نفسه ! .. ، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يريد الانتحاق بالمسلمين ، فقد
دخل في دين الله ولقى العذاب من أهله ، وها هو ذا يرسف في الحديد ، وتثقل به
قيوده ...

ما كان المسلمون يشكون في فتح مكة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قص
عليهم رؤيا أنه دخلها ، وطوف بالبیت العتيق فيها . فلما رآها مارأوا من شروط
الهدنة ، وأمر الصلح والعودة ، وتعنت سهيل مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وافتياته
على شخصه ، دخل عليهم من ذلك كله أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ثم جاءت
قصة أبي جندل فزادت الطين بلة ...

ورأى سهيل ابنه فقام إليه يضرب وجهه ، وأخذ بتقليبيه ثم قال يا محمد : قد لجت
القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا !! قال : صدقت فجعل سهيل ينتر ابنه بتقليبيه
ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

« يا معشر المسلمين ، أردّ إلى المشركين بفتنوني في ديني ! »

فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل
لك ولئن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً
وأعطيناكم على ذلك وأعطوا باعده الله ، وإنا لا نعذر بهم .

ونفذت القضية، وأعلنت خزاعة دخولها في عقد المسلمين، وأعلنت بنو بكر دخولها إلى عقد قريش، ومضت شروط الهدنة^(١) ... !

° ° °

والنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها مجحفة بحق المسلمين مرضية لكبراء قريش وحيتها الجاهلية، وقد تساءل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنكرين !

لماذا يردون إلى قريش من جاء منهم مسلماً ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرئداً ؟

وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرين، فلا رده الله، وقد وُقِّ للمسلمون خيبته . أما المستضعفون من المسلمين . فستبي قريش بأمرهم ، كما هجزت عن سابقهم ، وستكون العقبي لهم .

ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه مستضعفين ؟ ثم نصرهم الله وخذل قريشاً أمامهم ؟

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، قد حُدِّثوا أنهم داخلون في المسجد الحرام ، وهام أولاء قد ارتدوا عنه . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبين أنهم عائدون إلى دخوله كما وعدوا ، فهو لم يذكر لهم أنهم سيطوفون به هذا العام ...

وعرا المسلمين وجوم ثقيل لهذه النهاية الكئيبة ، وزاغت نظراتهم لما ركبهم من الحرج المفاجيء . فلما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب

(١) هذا كله من قصة الحديبية عند ابن إسحاق والبيهقي وأحمد

قال لهم : قوموا فانحروا ثم احلقوا - ليتخلوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة - فلم يقم منهم رجل ! حتى قال ذلك ثلاث مرات ! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا رسول الله أنجب ذلك ؟ - أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك - فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زال عنهم الذهول . وأحسوا خطر المعصية لأمره فقاموا - عجلين - ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم ^(١) .

° ° °

ليت نيات الخير والشر تؤتى ثمارها الحلوة والمرّة بالسرعة التي ظهرت في عهد الحديبية الآنف ، إنه لم تمر أيام طوال على إبراهيم حتى كان تشدد المشركين فيه وبالا عليهم ، فأخذوا يتشكون من النصوص التي فرضوها . أو فرضتها حيتهم الغليظة - ونظر المسلمون كذلك مهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجدوا من بركانه ما ألمج ألسنتهم بالحمد !

لقد انفرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد . فإن قريشاً كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء النرد والتحدى للدين الجديد . وعند ما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة وخصوصاً لأن قريشاً جمدت على سياستها النفعية واهتمت بشئونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها ، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري ، ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام .

(١) صحيح : وهو من تمام قصة الحديبية عند البخاري وأحمد .

وكثيرين من المؤرخين بعد صلاح الحديبية فتحاً ، بل إن الزهري يقول فيه : ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، لم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه واقد دخل في بينك السنتين - بعد الحديبية - مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة - بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

أما المسلمون المذبذبون في مكة ، فقد فر منهم أبو بصير عبيد بن أسيد ، وهاجر إلى المدينة يبغي المقام فيها مع المسلمين ، فأرسلت قريش وراءه ، اثنين من رجالها يرجعان به إليها تنفيذاً لنصوص المعاهدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمك ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدرا وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك . وحزن أبو بصير وقال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟ فلم يزد النبي عن تكرار رجائه في الفرج القريب . ثم أرسل أبا بصير مع القرشيين ليعودوا جميعاً إلى مكة^(١) .

ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير فاحتال في أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ففر الآخر مذعوراً وقفل راجعاً إلى المدينة يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما وقع لصاحبه ، وإذا أبو بصير يطلع متوشحاً بالسيف يقول : يا رسول

(١) روى ابن إسحاق بدون إسناد وعنه ابن هشام (٢/٢٢٢) وقد أخرج البخاري مختصراً على قوله : فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جئت لنا به دفعه إلى الرجلين .

الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامتنعت بديني أن أفني فيه أو يعيث بي .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان معه رجال^(١) وأدرك أبو بصير أنه لا مقام له في المدينة ، ولا مأمن له في مكة ، فانطلق إلى ساحل البحر في ناحية تدعى العيص ، وشرع يهدد قوافل قريش المسارة بطريق الساحل ، وسمع المسلمون بمكة عن مقامه ، وعن كرامة الرسول فيه « مسعر حرب لو كان معه رجال » فتلاحقوا بأبي بصير يشدون أزره حتى اجتمع إليه قريب من سبعين ثائراً فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألف أولئك المذبذبون الناقون جيشاً ، ضيق الخناق على قريش فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها .

وإذا قريش ترسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناشده الرحم أن يؤدى إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم .

وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أملته تعنتاً ، وقبله المسلمون كارهين . وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة ، فهي قصة العقيسة للكافة ، - في لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب - وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شيء إلا سلامة جواهره . إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تميئهم من مخالطة الرسول صلى الله عليه وسلم والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح ، بيد أنهم عوضوا عنها من الإتصال بكتابه والاقتناس من آدابه ، فكانوا - في اهتدائهم للحق وإبانهم للضيم وإيثارهم للمغامرة - مثلاً حسناً للإسلام المكافح للعزيز .

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاء وهو محتضر ، وروى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير صادروا قافلة كان فيها

(١) صحيح . وهو من تمام القصة عند البخاري وأحمد .

أبو العاص بن الربيع صهر النبي صلى الله عليه وسلم — وهو لما يدخل الإسلام بعد — وأمرُوا من فيما ماعداً أبا العاص ، لمكانته فذهب أبو العاص إلى زينب امرأته ، وشكاهما ما وقع لأصحابه وما ضاع لهم من أموال ، وحدثت زينب رسول الله في ذلك فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلاً إنا صاهرنا أبا العاص وصاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه . وإنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأخذوا ما كان معهم ؛ وأن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألتني أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال المسلمون : نعم ^(١) .

وبلغ هذا الحوار أبا جندل فأفرجوا عن الأسرى ، وردوا عليهم كل شيء . أخذ منهم حتى العقال .

ثم جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بصير ليرك مكانه ويرجع حيث يحب ، وكان أبو بصير يجود بأنفاسه الأخيرة . فأتى والكتاب على صدره ودفنه أبو جندل . أما أبو العاص بن الربيع فارحل ببضائع قريش حتى قدم مكة ، فأدى إلى الناس أموالهم . حتى إذا فرغ قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم اردّه عليه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، وقد وجدناك وفيّاً كريماً .

قال : والله ما منعتني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا أن تظنوا أني أسلمت لأذهب بأموالكم ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

(١) لا يصح . لابن عتبة رواه عن الزهري مرسل . كما في « الفتوح » (٣٦٩/٥) والاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة أبي بصير . غير أن ابن إسحاق أخرج القصة بسياق آخر ، ومن طريقه أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٨٢/٢ — ٨٣) مرسل ، وقد وصله الحاكم في « المستدرک » (٢٣٦/٣ — ٢٣٧) من حديث عائشة وإسناده جيد فالأولى الاعتماد على هذا السياق دون ما في الكتاب : وله شاهد من حديث أم سلمة عند البيهقي في سننه (٩٥/٩) .

وعاد إلى المدينة فرد عليه رسول الله ﷺ امرأته زينب^(١) ، وكان اختلاف الدين قد فرق بينهما ، ولم ينشئ في ذلك عقداً جديداً .

• • •

وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن ، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة ، وهن لا يستطعن مضطرباً في الأرض ورداً للكيد ، كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما .

وأيا كان الأمر . فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن ، وكلف المسلمون أن يدفعوا الأزواج من للشركهن عوضاً يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام والعودة به إلى أزواجهن الأوليات .

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ فَوَاقَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَأَمِنْ حَلِّ لِهْمٍ ، وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) .

والآية تشير — بجانب ما فيها من أحكام — إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم .

ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين : من الذي يمتحن ؟ أهو

رجل أم امرأة ، وإن رجلاً ، فهل يكون شاباً أو شيخاً ؟ وهل يمتحن المرأة مباشرة

أو من وراء حجاب ؟

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٢٥٠/١) والترمذي (١٩٦) والحاكم (٢٣٧/٢) وأحمد (رقم ١٨٧٦ ، ٢٣٦٦ ؛ وابن هشام في السيرة (٨٢/٢) من حديث (ابن عباس) . وإسناده جيد وقال الترمذي : « ليس به بأس » وصححه أحمد .

مع اليهود مرة أخرى

بقى أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء :

أعراب البادية الذين يسيحون فى عرض الصحراء كالإبل السائمة لا يفعلون شيئاً ، فإذا لاح منغم طاروا وراءه ، وقلما يلفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر وبنو إسرائيل الذين ظنوا النبوة حكراً عليهم ، فهم لا يفتأون بمجهون المسلمين ويكذبون محمداً ويحجدون رسالته ، وقد أغرهم القشور التى ورثوها من التوراة فجادلوا المسلمين جدالاً طويلاً ، وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم ثم ذهبوا إلى حد القاليل عليهم كما رأيت ، فسكانت سيرتهم مزيجاً غريباً من الحقد والكبر والدس ، ومع ما ألهب جلودهم من مياط كإوية فى صراعهم مع المسلمين ، فإنهم لم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أنملة .

وجمت عداوة الإسلام بين الأعراب البله ، وأهل السكتاب اليهود ، وعندما فشلت الأحزاب فى اقتحام يثرب ، وجنت قريظة عقبى غدرها ، لم يهدأ يهود خيبر ، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، كلا إنهم شرعوا يصلون حبالم بنظفان والأعراب الضاربين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى ، تأكيد من جديد لمحمد وصحبه ، لكن المسلمين كانوا أيقاظاً لهذه المؤامرات ، فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا فى المحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة بنى إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين ، قبل مسيرهم ، أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان فأوهوا غطفان أن الهجوم متجه إليهم ، وأن قوة المسلمين توشك أن تلتفت بهم ، قال ابن اسحاق : بلغنى أن غطفان لما سمعت بمزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعت له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا صاروا مرحلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهلهم حساً فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم

فرجعوا على أعقابهم ، وأقاموا في أهلهم وأموالهم ، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر ١١ .

وهكذا نجحت الخطة في عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين . .
فلما أشرف رسول الله على القرية المحصنة ، ونهياً لمنازلة أهلها ، قال لأصحابه :
قفوا . ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم ربّ السموات وما أظللن ، وربّ الأرضين وما أقلن ، وربّ الشياطين وما أضللن ، وربّ الرياح وما أذرين . فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » (١) .
ثم قال . أقدموا باسم الله ... (٢) .

ويظهر أن اليهود ظنوا - أول وهلة - أن زحف المسلمين صوب غطفان ، فلم يعيروا الأمر التفاتاً بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيقهم ومسكاتهم حتى فوجئوا بالمسلمين يسرون مخومهم ، فارتدوا إلى حصونهم فزعين ، وهم يقولون :
محمد والخليص !

(١) حديث حسن ؛ أخرجه ابن هشام (٢ / ٢٣٦) عن ابن إسحاق عن أبي معتب ابن عمرو . وفيه رجل لم يسم ؛ وسماه البيهقي في روايته « صالح بن كيسان » كما في « البداية » (٤ / ١٨٣) لكن الراوى عنه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ضعيف . ولذلك صرح البيهقي في السنن (٥ / ٢٥٢) بتضعيف هذا الطريق لكن يشهد له ما أخرجه هر والحاكم (١ / ٤٤٦ ؛ ٢ / ١٠١) وابن السني (رقم ٥١٨) من حديث صهيب رضى الله تعالى عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرق قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها فذكره . وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي . وفيه نظر لكن له شاهداً آخر من حديث أبي لبابة بن المنذر رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن كما قال الهيثمي في « المجمع » (١٠ / ١٣٤) .

(٢) ضعيف ؛ وهو تمام حديث أبي معتب المخرج آتفاً ، وقد عرفت علته ؛ ولم أجده لهذا المصدر منه شاهداً ؛ فبقى على ضعفه .

إن اليهود — على ما ألف المسلمون من حروبهم — لا يعتمدون على تسيير الجيوش في القضاء الحرب ، تصيب ويصاب منها ... إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميادين المكشوفة . وديدنهم الذي لا ينفكون عنه ، هو الكفاح من وراء الجدران .

أذلك بقية من حرصهم على الحياة وتوقيهم الموت ؟

قلما رآهم النبي عليه الصلاة والسلام ، يهرعون إلى حصونهم ، أراد أن يقذف في قلوبهم الرعب فصاح : الله أكبر ، هلكت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فسواء صباغ المنذرين (١) .

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الملاك إن عاجلا وإن آجلا ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا شاع الزنا والزنا في قرية فقد أهلك بنفسها غضب الله » (٢) .

واليهود يشجع فيهم هذا الفساد المزدوج ، فهم إلى اليوم دهاقين الربا في العالم وهم قادة التبرج والمهر ونسوتهم لا يرددن يد لاس ، ولا ينفي هذا أن تفهم فئة تعرف الخلق والعفة ، ولكنهم قليل . « وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَمٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » والكثرة — لا القلة — هي التي تحدد مصائر الشعوب .

. . .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٣٧٦/٧ — ٢٧٧) عن أنس .
(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم (٢/٣٧) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي . ورواه أبو يعلى عن ابن مسعود وإسناده جيد . كما في الترغيب ، (٣/٥١) .

وشن المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة ، فبدأت تقادح تحت وطأتهم .
حصنا بعد حصن ، ودافع اليهود عنها دفاع المستميت ، فإن خير أخصب أرضهم .
وأمنع بقاعهم .

ولما بدأ الحصار يمتد ، وبنو إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة تمسكوا بأخرى .
قال رسول الله : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله
ورسوله فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ؟

فلما أصبحوا غدوا إليه متطالعين إلى أخذها ، فنادى النبي صلى الله عليه وسلم
على بن أبي طالب فأعطاها إياه ، فقال على : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا
مثلنا ؟ قال أنفذ ، على رملك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام .
وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير
من أن يكون لك حمر النعم^(١) .

وإنما ساق رسول الله هذا النصح الرشيد حتى يقطع تطلع النفوس إلى المغانم
المعجلة ، فإن ثروة يهود — إذا هزموا — ضئيلة ، ولكن ثواب مقاتلتهم
— إذا هتدوا — أضخم .

ولو نزل القوم على أحكام الله ، وتركوا الخلال الدنيئة التي عاشوا بها وعاملوها
الناس بسوءها لأراحوا واستراحوا ، غير أنهم أبوا إلا الحرب : فهاجمهم على
وشدد النكير ، حتى سقط الحصن واحتله المسلمون .
وكان الشمار يوم خير : يا منصور أمت أمت .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣٨٤/٧ — ٣٨٥) ومسلم (١٢١/٧ — ١٢٢) عن سهل بن سعد .

وخرج من حصون اليهود فارس يدعى مرحبا فنادى فى المسلمين من يبارز ؟
وهو ينشد :

قد عامت خير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطمن أحيانا ، وحينما أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب

فقيل : فتك به على بن أبى طالب ، وقيل : بل قتله محمد بن مسلمة^(١) وكان
محمود بن مسلمة أخوه قد أقيمت عليه فى أثناء الحصار ربحى نصرته فنار محمد له
بقتل مرحب ، وبرز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير ، وكانت
صفية أم الزبير بين النسوة اللاتى خرجن مع الجيش معاونات فى قتال بنى إسرائيل
فخشيت على ابنها أن يقتل ، فقال لما النبى صلى الله عليه وسلم . بل ابنك يقتله
إن شاء الله ، فصارع الزبير ياسر^(٢) . . . وتشبت اليهود بما بقى من حصونهم
يكدودون عنها ذباد اليأس ، وشدد المسلمون عليهم الحصار ، يريدون الانتهاء من
هذا القتال مسرعين ، فقد أجهدهم الجوع وضاق بهم المقام ، وأصيب كثير منهم
بجمل شتى لرداءة الجو ووخامة المستنقعات ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم من
أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خفية ، يخرجون إليها
ليلا فيستقون ويعودون ، فأمر للنبى صلى الله عليه وسلم بقطع مشاربهم^(٣) ليكرههم
على القتال أو التسليم ، فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين فى صراع شديد استشهد فيه

(١) قلت : والصحيح الأول لأنه ثابت فى « صحيح مسلم » (٩٥/٥) والمستدرک
(٣٩/٤) من حديث سلة بن الأكوع وقد قال الحاكم (٤٣٧٦/٣) : إن الأخبار
كثيرة متواترة أن قاتل مرحب هو على .

(٢) ضعيف أخرجه ابن هشام (٢٣٩/٢) من طريق ابن اسحاق عن هشام بن
عروة معضلا .

(٣) لا يصح ، رواه الواقدى معضلا فى « البداية » (١٩٨/٤) ، ولواقدى متروك

عدد من المسلمين بعد أن مهدوا الطريق لسقوط الحصن ، ويسمى حصن الزبير ، وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى النظاة . استولى المسلمون عليها جميعاً بعد ما دخلوا حصون ناعم ، والصعب ، والوطيح ، والسلام .

وبقيت هناك سلسلة أخرى تسمى المسلمون لمهاجمتها ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلعة يقال لها : سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، وخرج منها رجل يسمى عزولا ، يبغي المبارزة ، فهجم عليه « الحباب بن المنذر » فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده وفر اليهودي راجعاً فأدركه الحباب فقطع عرقوبه أو رز آخر ، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي ، فلاحق به « أبو دجانة » فقتله وثار لصاحبه ثم كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن وأمامهم « أبو دجانة » فاقتحموه بعد لآي ، ووجدوا به أثاثاً وطعاماً وغنماً ومتاعاً .

وأقلت بعض المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحصن البزاة وزحف المسلمون إليهم . وتراشق الفريقان بالنبل فأصيب بنان النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة ، ولكن المسلمين استبسوا في الكر على العدو ، حتى افتتحوا هذا الحصن الآخر ، وأخذوا من فيه باليد . ثم هم المسلمون بنصب المنجنيقات لهدموا الحصن الباقية على من اعتصم فيها ، فأيقن اليهود بالهلكة ولم يروا مخلصاً من الاستسلام ، فنزل ابن أبي الحقيق . وعرض الصلح على أن يجلوا من أرض خيبر . ولهم ما حملت ركا بهم ، وللمسلمين سائر ما بقى . فقبل الصلح واشترط عليهم رسول الله ألا يكتموا ولا يضيئوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد^(١) . .
فلما ثبت على بعضهم العذر بما تمت عليه شرط الصلح قتل .

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقي في سننه (١٢٧ / ٩) عن ابن عمر بسند صحيح وكذلك رواه أبو داود (٢ / ٣٨) .

وخضعت سائر يهود، ثم جاءت تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض . فقبل ، ولم يجعل ذلك على الأبد ، مخافة عبثهم ، بل قال لهم : إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ^(١) .

• • •

وحدث في إبان المعركة أن عبداً حبشياً أسود كان يرعى لسيدته اليهودى غنمه فلما رأى أهل خيبر يحملون السلاح ويتأهبون للحرب سألمهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي . فوقع في نفس الرجل ذكر النبوة وصاحبها ، فأقبل بغنمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله . ماذا تقول ؟ وإلام تدعو الناس ؟ فأجابه : أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسوله . وأن لا تعبد غيره . قال العبد : فما لى إن شهدت وآمنت ؟ قال لك الجنة إن مت على ذلك ؟ فأسلم ثم قال : يا نبي الله إن هذه النعم عندى أمانة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجها من عندك وارمها بالحصباء فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ، ففعل ، فرجعت النعم إلى صاحبها ، فعلم اليهودى أن غلامه أسلم ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تهيأ الناس للقتال فوعظهم وحضهم على الجهاد . والتحم الفريقان ، فقتل العبد الأسود بين من قتل من المسلمين وحملت جنته إلى المعسكر . فروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع في القساطر الذى ضم جثمان الشهيد ، ثم أقبل على أصحابه يقول : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، رأيت عند رأسه ثلاثين من الحور العين ولم يصل لله سجدة قط ^(٢) .

• • •

(١) حديث صحيح . أخرجه للبغارى (١٧ / ٥) ومسلم (٢٧ / ٥) وأبو داود (٢٩ / ٢) وغيرهم من حديث ابن عمر رضيهما .
(٢) ضعيف . ذكره ابن كثير (٤ / ١٩٠ — ١٩١) عن عروة مرسل . وروى —

وفي هذه الغزاة أذن النبي صلى الله عليه وسلم لمن تطوع من النساء أن يخرجن معه .

قال ابن اسحاق : شهد خبير مع رسول الله نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لمن رسول الله من الفء — أعطاهن يسيراً — ولم يضرب لمن بسهم (١) .

وروى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع رسول الله في غزاة خبير ، وأنا سادسة ست نسوة . قالت فبلغ النبي أن معه نساء فأرسل إلينا فدعانا . قالت : فرأيانا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن وبأمر من خرجتن ؟ قلنا : نناول السهام ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، وننزل الشعر فتعين به في سبيل الله . قال فانصرفن .

قالت : فلما فتح الله عليه خبير أخرج لنا سهاماً كسهم الرجال . فقلت لها يا جدة ما الذي أخرج لكن ؟ قالت : تمر (٢) .

ويرى ابن كثير أن الرسول أعطاهن من ثمرات الأرض كالرجال فأما أنه أسهمهن في الأرض أنفسها كالرجال فلا . وهذا حق .

وفي حديث أبي داود . أن نسوة من بني غفار قلن : يا رسول الله ، قد أردنا أن

== البيهقي عن شرحبيل بن سعد عن جابر نحو هذه اللفظة . وشرحبيل كان اخلط . ومن طريقه أخرجه الحاكم (١٣٦ / ٢) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله : « بل كان شرحبيل متهماً » .

(١) ذكره ابن إسحاق بدون إسناد كما ذكره ابن هشام (٢ / ٢٤٢) عنه ؛ غير أنه استدل على ذلك بحديث النسوة من بني غفار الآتي ، وهو ضعيف كما سنبينه .

(٢) ضعيف وهو في السند (٣٧٩ / ٦) وكذا أبو داود (١ - ٤٢٩) ؛ وعلته حشرج هذا فإنه لا يعرف كما قال الذهبي وأشار لذلك الحافظ في التقریب . وسكت على الحديث في « الفتوح » (٦٠ / ٦٠ - ٦٠) .

فخرج معك في وجهك هذا — وهو يسير إلى خير — نداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله ^(١) .

* * *

وكانت صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود بين من أسرن من نساء خير وقعت في يد أحد الصحابة . فاستردها منه الرسول . ثم أعتقها وبني بها ، وجعل مهرها عتقها ^(٢) .

فلما اطمأن به المقام أهدت له امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها .

وقد تنال النبي مضغة منها ، فلا کہا ثم لفظها ، وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، وكان معه « بشر بن البراء » فأساع اللحم وازدردده .

وجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت ، وقالت للنبي : بلغت من قومي ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان ماسكا استرحمت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر ، فتجاوز عنها النبي ، ثم مات « بشر » بعدما سرى السم في جسمه ^(٣) ، فقيل : اقتص له منها ، وقيل : بل أسلمت وعفا عنها .

(١) ضعيف أخرجه أبو داود (٥١/١) وأحمد (٢٨٠/٦) وابن هشام (٢٤٢/٢) كلهم من طريق ابن إسحاق بإسناده عن امرأة من بني غفار ، وفيه أمية بنت أبي الصلت لا يعرف حالها كما قال الحافظ .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ومسلم عن أنس .

(٣) حديث صحيح ، رواه هكذا ابن هشام (٢٤١ — ٢٤/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناده . وقد رواه البخاري (١٧٦/٥) ومسلم (١٤/٧ — ١٥) من حديث أنس أن يهودية أتت النبي بشاة مسمومة فأكل كل منها ، فجئ بها فقيل : ألا تقتلها ؟ قال : لا . والبخاري (٢٨/٧ ، ٢٠٠/١٩ — ٢٠١) وغيره من حديث أبي هريرة نحوه وفيه إقرار اليهود بوضع السم في الشاة وقولهم : أردنا إن كنت كاذبا تستريح منك —

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من نتاجهم — ، إلا أن بغضاءهم للمسلمين حملتهم على اقتراح بعض الجرائم . فقد اغتيل رجل من الأنصار وفدعت يدا عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه ، فخطب عمر الناس قائلاً : إن رسول الله كان عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله ابن عمر ، فعدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله لانشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم . . فمن كان له مال بخيبر فليحق به ، فإني مخرج يهود . فاخرجهم (١) .

ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خيبر قضت على كياناتهم العسكرية في الجزيرة قضاء تاماً . فجاء يهود « فذك » يطلبون الأمان . وقاتل يهود وادى القرى بعد مادعوا إلى الإسلام ، وأخبرهم رسول الله أنهم إن أسلوا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماهم . وحسابهم على الله (٢) . فلما أبوا نشبت بين الفريقين معركة محدودة ، انتهت مع الصباح بسقوط الوادى اليهودى عنوة .

واستسلم يهود تباء .

ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود ، يعيشون عليها كما يشتهون .

— وإن كنت نبياً لم يضرك » . ومثله عند أحمد (رقم ٢٧٨٥) من حديث ابن عباس وسنده حسن كما قال ابن كثير (١٠٩/٤) وعمره الحافظ (١٠١/١٠) لابن سعد بسند صحيح . ومثله عند أنى داود (١٤٦/١) والدارمى (٢٣/١) عن جابر وهو منقطع لكن يقويه مرسل أنى سلمة عندهما . وفي حديثهما إخبار الذراع بأية الشاة مسمومة وفي الثانى منهما موت بشر مسموماً . وقد وصله الحاكم وصححه عن أبى هريرة . وسنده حسن ؛ وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قتلها .

(١) حديث صحيح . أخرجه الشيخان عن ابن عمر . وقد تقدم قريباً :

(٢) رواه « الواقدي » بدوت سند كما فى « إيداية » (٢١٨ / ٤) .

والعظة التي نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله يورثها من يشاء . وهو لا ينتزعها من قوم ، ويعطيها آخرين بحبابة . كلا . ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تسلبها . ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها ! والأمة التي تتكبر مع الحربة وتنبطر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ، وأسرها ، لتقع في إسار الآخرين فيصرفون شئونها كما يشتهون .

وقد طبق هذا القانون على بني إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة وتبعوا الهوى ! وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سدروا في الغواية وجحدوا مآلهم من هداية « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهُ البيم شديد » .

إن الحياة كره وفرة ، وإقبال وإدبار . والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحى بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تنهيا أمة أخرى لإنزاعها .

والدول التي مادت ، أشبه بلجج البحر التي ترتفع حينئذ لا تلبث أن تضمحل ووبداً رويداً حتى تنداح على الشاطئ ضميعة متطامنة ، ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد ، لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتبسط مستكينه من جديد . وقد ملك بنو إسرائيل وعزوا بقدر حكيم ، ثم صلبوا الملك والعزة بقدر كذلك لترسيما دولة الإسلام الفتى الفاهض ، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة .

لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام ؟ ولمصلحة من يقع هذا ؟ إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة ، وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بمنف . أما الفدر الأعلى ، فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع في العالم أجمع من مقاسد ، ولما عرا حضارته من تعفن وركرد . فإذا وقعت حفنة من الأعراب أو حفنة من اليهود ليعترض هذا

التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المطامع الدنيا ، فهي التي جنت على نفسها إذا غرقت في الطوفان .

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً ، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئاً ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التي يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من الفساد الذي يصدره بنو إسرائيل إلى العالم مع معاملات الربا وأخلاق العهر والتحلل . أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة يوم خرج ، رسالة إيمان وإصلاح .

ومما يحمله في طواياه من حق ونفع يستحق الانتصار والانتشار .

فلما جرى على أمته من أسباب البلى والتحول ماجرى على اليهود الأواين تعرضت للطرده من أوطانها ، والتشرد هنا وهناك ، كما تعرض غيرهم ، حذوك النعل بالنعل .

✓ عودة مهاجري الحبشة

ووافق فتح «خير» قدوم «جعفر بن أبي طالب» ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة . وقد سر رسول الله أيما سرور ، لحجء هؤلاء الصحابة الكرام .

إنهم خرجوا من مكة فارين بدينهم من الفتنان ، ولليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو ، وسلطانة يمتد شمالي الجزيرة وجنوبها ، فلا خوف من غشم أو ظلم .

وعندما حلّوا بالمدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبتهجاً « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر ^(١) ؟ » وجعفر وإخوانه مكثوا في الحبشة

(١) حديث حسن ، أخرجه الحاكم (٢١١ / ٤) والطبراني في الكبير عن الشعبي مرسلًا وسنده صحيح وقد وصله الحاكم من طريق أخرى عن الشعبي عن جابر .

بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآن كثير ، ودارت معارك شتى مع الكفار ، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أنزل قدراً من غيرهم . فعن أبي موسى الأشعري .. كان أناس يقول لنا سبقناكم بالهجرة ، ودخات أسماء بنت عميس - على حفصة زوج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها . فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء ابنة عميس . قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء نعم ! قال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ! فغضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم . وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ! وذلك في الله وفي رسول الله وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيع ولا أزبد عليه . فلما جاءت النبي قالت : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا ، قال : فما قلت له ! قالت : كذا وكذا .

قال : ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان ^(١) .. ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم القرآن والسنة . وانتظموا في مواكب الجهاد مع من سبقوهم بإحسان .

— وفي سنده ضعف ، ولذلك قال الذهبي في « التلخيص » . « الصواب مرسل » وله طريق آخر رواه البيهقي كما في « البداية » (٢٠٦/٤) من طريق أبي الزبير عن جابر وفي سنده من لا يعرف . وله شاهد من حديث أبي جعفر . أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير » (ص ٨) وسنده ضعيف ، لكن أخرجه في الكبير من طريق آخر كما يستفاد من « المعجم » (٢٧٢/٩١) . وبالجملة فالحديث قوى بهذه الطرق ، وقد صححه الحاكم . (١) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان في صحيحهما .

وقد أشركهم النبي في «فاتم خير»^(١) مع أهل الحديبية^(٢) ولم يقسم لأحد غيرهم معهم . فإن الله جعل خير مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة ، وباعوا على الموت تحت شجرة الرضوان .

تأديب الأعراب

أما عبدة الأصنام من البدو فإن المسلمين شرعوا يتعقبونهم مذ خاصوا من مشكلات اليهود . وأقد أشرنا إلى أن شمل هؤلاء الأعراب انتسكت بعدلوا دعة التي تمت في الحديبية بين قريش والمسلمين . كانوا أمس محاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة ، لكن الحال تبدلت اليوم . تمزق بنو إسرائيل وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن ينفردوا بأولئك القوم قبيلة إثر قبيلة . وإن يعجز المسلمون عن حسم شرورهم ووقف قوضهم . إن البدو جنس جاف غليظ ، وإن ننسى أنهم حتى القرن الأخير كانوا يستمرئون الفتك بقوافل الحجاج ، وقد يذبحون الحاج للدرهم معدودة .

وعلمهم بشئون الدنيا وحقوق الآخرة يعنى المدرسين ، وقد بذل الإسلام جهوداً جبارة في رفع مستواهم المادى والأدبى . إلا أن اغتيال الدعاة من القراء المرين جعل الإسلام يظهر رجاله هؤلاء بالقوة التي تمنع الشعب وتقطع دابر الفساد .

(١) حديث حسن ، أخرجه البخارى (٣٠٢/٨) من حديث أبى موسى .
(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود في سننه (٤٠/٢) والحاكم (١٣١/٢) والبيهقى (٢٢٥/٦) وأحمد (٤٢٠/٣) من حديث مجمع بن جارية أن خير قدمت على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد . . . وقال الحاكم «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي وله شاهد من حديث أبى هريرة أخرجه الطيالسى (١٠٥/٢) والبيهقى (٣٣٤/٦) وسنده حسن في الشواهد ؛ وقد قال ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (٣٤٦/٢) «وقسمت خير على أهل الحديبية من شهد خير ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها ، إلا جابر بن عبد الله . . .»

وكان بث السرايا في فيافي «نجد» من أهم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خيبر في صفر من السنة السابعة حتى شدوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كإنص على مواعدها في عهد الحديبية .

ولا يعنينا كثيراً أن تتبع هذه السرايا في مسيرها فهي — وإن وطدت هيبة المسلمين العسكرية — أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة .

والهدف الأكبر من بعثها توطيد الأمن ، ومنع الغارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة .

إن أحوال هذه القبائل قريبة الشبه بأحوال قرانا في عهد الاقطاع القريب ، كان العمدة يملك ألف صوت ناخب في قريته . فالحديت عن الحرية السياسية في هذا الجو ، حديث خرافة . كذلك كان رؤساء القبائل الأولون ، تلقف حولهم عشائهم وبطونهم ليتناصروا في الحرب والسلام على ما يهوى السادة .

فإذا كثر في أولئك الحاكمين من يوصف بالأحق المطاع ، وإذا اشتغل أولئك الحق بالسكر والفر على نحو ما قال دريد بن الصمة :

يغار علينا وائر ين فيشتقى بنا إن أربنا ، أو ننهى على وترا

قسمنا بذلك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطر !

أفترى أن الدعاة يسببون عزلا في هذه البيئة التي تخطف الأموال والعقائد ؟ إن العمل على توطيد الأمن شيء ، غير إكراه الناس على الإيمان ، هدف الأول إقصاء الضغطة والفتنة على المجتمع حتى إذا آمن فرد في قبيل ، لم يجد من يصب عليه سوط عذاب . أما الآخر فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة . والسرايا التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يسيرها إلى كل فج كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه .

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالتدين آمنوا وعملوا »

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) فالسعى لمعاجزة الآلات أمر خطير . ولو كانت معاجزة باللسان ، ما اكترت لها أحد ، فهميات أن تغلب المخرافة الحق في معرض جدل حر ، إنها معاجزة بالسطو والقهر .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّمُكْرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونِ بِالَّذِينَ يَتَسَلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ..) .

وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل ومنذ أمضوا عهد الحديبية ، وهم دائبون على البلاغ والتبصرة ، ولذلك نجحوا نجاحاً ملحوظاً في هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم على حين انصرف جموع الاعراب عن قريش فلم يدخل في عهدهم أحد ، وسير الأمور في هذا الاتجاه كان التمهيد الفعال لقلبة الإسلام ، ثم افتتح مكة نفسها فيما بعد .

والدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة لم تشغل النبي عن حق آخر من حقوق الله عليه ، وهو إعلام الناس كافة ، بما آتاه الله من بينات .

فليرفع السراج إلى أعلى لتصل أشعته الهادية إلى مواطن أبعد ، مواطن فرقت في الظلام دهرأ .

(وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . أَلَا إِنَّكُمْ لَعَنَشِدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ؟ قُلْ : لَا أَشْهَدُ أَقُلْ : إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ . وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) .

فليتجه إلى المجوس ، وإلى النصارى ، بدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه ...

مكاتبة الملوك والأمراء

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن العبث إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة ، وعلى أية حال فإن الجوسية سادت الأقاليم التابعة لفراس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان ، وكان أمراء هذه الأقاليم يعيّنون من قبل الدول الحاكمة وينصاعون لأوامرها .

وقد رأى النبي أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام .
روى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي — وهو غير الذي صلى عليه — وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل .

. . .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « دحية بن خليفة » بكتابه إلى قيصر الرومان ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامحة أمراً سهلاً ، فكيف وهي — في نظر الرومان — من أعرابي ماذج ينتمى إلى قوم تحت سلطانهم .

وتقديراً لهذه الأوضاع ، اختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيماناً واحتساباً غير مبال بعواقبها عليه ولا نتائجها عند من يدعوهم .

فمن ابن حبان أن رسول الله قال : من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : وإن لم يقبل ! فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم فوافقه هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انتصاره على الفرس ، قربى إلى الله .

وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين - الفلاحين - و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون (١)) .

وقد هاجت حاشية هرقل لإكتراث القيصر بهذه الرسالة ، وازدادوا واهياجاً عند ما عرض عليهم - لا تدرى جاداً أم هازلاً - أن يعتنقوا هذا الدين ! وهرقل - في نظرنا - رجل سياسى . وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم مملكته ويدعم قوته ، وقد تولى شئون الدولة في وقت كانت الخلاقات الكنسية - حول طبيعة المسيح تغلى غليان المرجل ، وتثير في الأمة انقسامات مخيفة وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد - فعجز . وتورد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام .

فالكلام في الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر - لمصلحة الدولة - دبده ، ولعله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعاً . وربما تألفت في نفسه ، لوقت محدود ، فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد ، ثم انطفت لما متجره على الدولة من خلاف أشق في وهمه ، وأسر المملكة - عنده - أهم من أى شأن آخر .

وشاءت لباقة قيصر السياسى أن يستدعى دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم !
نم أعطاه قدراً من الدنانير .. وصرفه !

(١) حديث صحيح من قوله « وتناول قيصر » إلى هنا أخرجه البخارى (٢١/١٣٣) .
ومسلم (١٦٥/٥ - ١٦٦) عن ابن عباس .

وعاد دحيه إلى رسول الله بالنبا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذب عدو الله ، ليس بمسلم ، وأمر بالدنانير ، فقسمت على المحتاجين ^(١) .

○ ○ ○

أما الولايات العربية التابعة الرومان فإن النبي أرسل إلى أمرائها يعرض عليهم الإسلام فكانت إجابتهم أخشن وأقسى من رد القيصر نفسه !

قرأ أمير دمشق خطاب الرسول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أهدوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى ملكك » ^(٢) .

فلما قرأه رمى به الأرض . وقال : من ينزع ملكي مني ؟ وأخذ يعد العدة لقتل المسلمين .

والحارث ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحو إنه ولي من قبل الرومان الغالبين ليعخدم أهواءهم ، وعمشى في وكابهم فهو كنفير من ملوك الشرق في عصرنا هذا . صدمهم المستعمرون ليسكونوا حبالا تنجرها الأمم المستضعفة هواء غاصبيها .

والهدية التي ردها ، هي الأمل الوحيد لجعله حاكماً شريفاً ، لو أنه قبلها وأشاعها . وبعث النبي إلى أمير بصرى - من ولايات الروم - مثل ما بعث به إلى أمير دمشق ، وحمل الكتاب الحارث بن عمير الأزدي فاعترضه في الطريق شرحبيل بن عمرو الفسائي ومأله : أنت من رسل محمد ؟ قال : نعم فأمر به شرحبيل فقتل

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ؛ (ص ٢٥٥) عن بكر بن عبد الله المزني وإسناده صحيح . لكنه سرسل ؛ بيد أن الزرقاني نقل في « نرح المواهب » (٣/٢٤٠) عن « الفتح » أنه في مسند أحمد أيضاً . فليُنظر فإنه لم يذكر صحابه .
(٢) ذكره الواقدي بدون إسناد كما في « البداية » (٤/١٦٨) .

وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين في المدينة فجرحت كرامتهم ، وأبانت لهم أن علاقتهم بالرومان لن تندفع في طريق المدل والاحترام إلا بعد جهود شاقة .

ورد « المقوقس » على النبي ردأً حسناً فلم يؤمن به ولم يتهجم عليه ولما قسّم كتابه من حاطب بن أبى بلتعة قال له : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى - وقد أخذه قوماً ليقتلوه - أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت . أنت حكيم جاء من عند حكيم .

وكتب إلى رسول الله يقول : « لحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط اسلام عليكم ، أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالاشام ، وقد أكرمت رسولاك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بئلة تركبها » وماذا يفعل محمد بهذا ؟ لقد قبل الهدية تقديراً للعاطفة التي أملت بها ، وإن كان يرى أن الإيمان بالله وحده ، أفضل ما يهتدى إليه ، وخير ما ينتظره ويهش له .

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب المقوقس . حتى يعرف القارىء أن هذه البعوث بلغت حداً من الفقه والخصافة يستحق الإعجاب البالغ .

قال حاطب : إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود . وأقربهم . أنه النصراني ولم يرمى بمباشرة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد . وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل .

وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته . فخق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولستنا نهاك عن دين المسيح ولستنا نأمرك به .

وكان أثر هذه الدعوة ، الحارة الخطاب الذى سقناه آنفاً .

تلك مثل رسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها . وقد ساق النبي كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله . ويحدثونهم عن الهدى الذى لو تبعوه نقلهم من النقى إلى الرشاد .

وقد تفاوتت ردودهم ، بين العنف واللاطف ، والإيمان والكفر . كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « كسرى أبرويزه » ملك فارس يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أذكوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن آيت فعليك إثم المجوس ^(١) .

ومزق كسرى الكتاب وهو محقق .

واعله حسب الجراحة على مكاتبه السامية بعض ما رماه به القدر من مصائب فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وها قد جاء العرب يعلمونه ما لم يكن يعلم . وأصدر كسرى أمره إلى والى اليمن - وكانت لما نزل في حكمه - يأمره أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء ، ليأتيا إليه بالرجل الذى نجرأ على مكاتبته . و « أبرويزه » هذا رجل أحق ، ومنصبه يضافى عليه ملك الملوك ، والوثنية السياسية إذا ظاهرتها وثنية دينية . أمست ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد غلب على الرجل السفه فى تصرفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء ، حتى ضاق قومه أنفسهم به . بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .

(١) حديث حسن ، رواه ابن جرير فى تاريخه (٢ / ٨٩٥ - ٢٩٦) عن يزيد ابن أبى حبيب مرسلأ ؛ وأبو عبيد فى « الأملال » (ص ٢٣) عن سعيد بن المسيب مرسلأ نحوه .

ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ما صنع كسرى أبرويزه بكتابه قال
مزق الله ملكه^(١) ..

والطريف أن والى اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه .

فأرسل اثنين من لدنه من المدينة ، يعرضان على النبي عليه الصلاة والسلام أن
ينطلق معهما ليسأل عما فعل .. ١١

ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذى تربيته
الملوك فى القصور كما تربي النسوة فى بلادنا الديكة الرومية ... مناظر فارهة ،
وبواطن تافهة .

فلما رأى شوار بهما مفتولة ، وخذردهما علوقة ، أشاح عنهما وقال^(٢) : ويحك
من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا ربنا ١١ يعنىان كسرى ..

إن تأليه الملوك ضلال قديم ، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ،

ثم عادت الآن آثاره وخصائصه ، فالملك يلقب صاحب جلالة ، ولا يسأل عما يفعل
ويبطل شرائع الله ليقيم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطانته ، لتتكش أمامهما أمته ..

(١) حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه (١٠٥/٩) وأبو عبيد عن سعيد بن
المسيب مرسل ومرفوعاً . وروى من وجوه أخر مرسل ، فيراجع لها من شاء « البداية
والنهاية » (٢٦٨/٤) .

(٢) حديث حسن ؛ أخرجه ابن جرير (٢٦٦/٢ - ٢٦٧) عن يزيد بن أبى حبيب
مرسل ، وابن سعد فى « الطبقات » (ج ١ ق ٢ ص ١٤٧) عن عبيد الله بن عبد الله
مرسل أيضاً وسنده صحيح ، ووصله ابن بشران فى الأمانى من حديث أبى هريرة بسندواه .
وفيه من الطرق الثلاث زيادة كان يحسن لإيرادها وهى « لكنى أمرنى ربى عز وجل أن
أعنى لحيتى ؛ وأن أحنى شاربى »

ولما سمع النبي عليه الصلاة والسلام كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى وإلى اليمن ، وقال : أخبروه أن ربى قد قتل ربه اليلة . وكان رسول الله قد علم قبلهما بمصرع كسرى ..

وقد وقع الإسلام في قلب وإلى اليمن ورجله بعد هذه القصة . وانتشر انتشاراً عظيماً في الجنوب بين الطائفتين جميعاً من نصارى ومجوس .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمير البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ونبذ المجوسية ، حمّله إليه العلاء بن الحضرمي ^(١) وكان «المنذر بن ساوى» أمير البحرين ، رشيداً موفقاً ، فرحب بالدعوة وانتشر صدره لقبولها . وقد أبان العلاء في ترغيبه وإراز محاسن الإسلام له .

فما قاله : « .. يا منذر إني عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين .. ليس فيها تكريم العرب ، ولا علم الكتاب ، ينكحون ما يستحي من نسكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله . ويعبدون في الدنيا تاراً نأكلهم يوم القيامة .. واست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر : هل يذنب لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ؟ ولئن لا يخون ألا تأمنه ؟ ، ولئن لا يخلف ألا تتق به ؟ هذا هو النبي الأمي الذي — والله — لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ! أوليته زاد في عقوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمانة أهل العقل ، وفكر أهل النظر .. » .

وقد أسلم «المنذر» وعرض على قومه الإسلام . فنهزم من أعجبه فدخل فيه ،

(١) رواه الواقدي في آخر كتاب « الردة » بسنده عن أبي حنيفة كما في « نصب الراية » للزيلعي (٤١٩/٤ - ٤٢٠) .

ومنهم من كرهه وبقى على مجوسيته ، أو على يهوديته . فلما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل بإزائهم كتب له : « . . من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » (١) .

° ° °

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه ججوداً وكنوداً !

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ؟ »
فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ! ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور فإن نفهم العميقة في سيادة فكرهم وامتداد نطاقها ، تصغر العقبات المفروضة في الطريق . ونجعلها — ولو كانت الشم الرواسي — هباء منثوراً .

ولو انحصر « كارل ماركس » في حدود مذهبه — وهو فكرة مطاردة تصل بذوبها إلى السجون — لأصابه الشلل وقضى عليه وعلى أفكاره ، لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى . فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار الضالة فلا جرم أن المرسلين للتوידن بالوحي يكاتبون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن مالدبهم من حق سيعلو ماعداء ، وذلك ما كان يحول في نفس الرسول الكريم وهو يعالج حداية الأعراب الشاردين في الصحراء طوراً باللين وطوراً بالشدة . ثم هو — في الوقت نفسه — ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد وأن يتتفوه وافرين .

(١) ضيف أخرجه الواقدي بإسناده عن عكرمة قال : وجدت في كتب ابن عباس . . فذكره .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى 'نترب' إهابه وثيابه رياح « نجد » هي
بعينها الخرافة التي تقصد فكرك كسرى ، أهل الفرس العظيم .

ما الفارق بين الحمى تصيب ملسكا أو تصيب صعلوكا ؟ إن الطبيب يصف لها
— على الحالين — دواء واحداً ، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة !

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم
وأن يناولهم جميعاً الدواء الذي يصحون به .

« وَنَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
إِلَّا خَسَاراً » .

فلا غرو إذا جمع في مصححه بين الأحمر والأسود ، والسادة والعبيد . أجل ،
قد يكون أولئك الملوك 'محبجين وراء أسوار مشيدة ، وحولهم من الأنباغ والجند
والأهبة والرياش ما يبهر العين ، لكن أى عين تنبهر لهذه المظاهر ؟ إن الطبيب المعالج
لا يعنيه من مريضه إلا جسده الشاحب العليل والأنبياء لا يرون في القوم إلا أنهم
جهال يجب أن يتعلموا . سفهاء يجب أن يسترشدوا ، وأن ماحولهم من الدنيا يعمل
تعبهم أخطر ، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .

على أن هذه القوى المسخرة في حماية الباطل لن يطول أمدها ، إلا كما يطول
الليل على المؤرق ، ثم تطلع الشمس ، ويمحو الله بالآية المبصرة سدول الظلام .
ولذلك قال النبي لرسل وإلى الذين حين جاءوه : « أخبراه أن ديني وسلطاني
سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى إلى الخلف والحافر وقولا له : إن أسلمت أعطيتك
ما تحت يديك وملكتك على قومك ^(١) » .

إنه - وهو في المدينة - يولى ويعزل ، عن حق لاعن غرور ، ليس موصولا
بمالك الملك ، مبعوثاً من رب السموات والأرض ؟

(١) ضعيف ، أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢٩٧/٢) عن يزيد بن أبي خبيب مرسل

ومن الطبيعي أن يعرف مشركوا العرب أنباء هذه البعوث النبوية، وأن يرقبوا نتائجها عن كثب، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنع كسرى بن هرمز وقال بعضهم لبعض: كفيتم الرجل، فقد نصب له كسرى ملك الملوك! وشاعت هذه القالة في مكة والطائف.

نم مرت الأيام، وطاح كسرى، وبقي الإسلام يغزو الأفئدة والبلاد. وجاءت الأنباء أن بعوث محمد صلى الله عليه وسلم في بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته، حتى دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين، فارتد استبشار للمشركين خذلانا، وفكرت قبائل شتى في الإتيان لحكمه، خصوصاً ورقة الكفر تنكشف يوماً بعد يوم أمام موجات الوحي الجارف، وإن بقيت أخرى مصرة على جاهليتها.

« بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » . قُلْ : إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّةُ الدَّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ .

عمرة القضاء

أرشكت السنة السابعة أن تنقضى، وحق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة التي حرموا من أدائها قبلاً، لقد تأخروا عاماً وهم كارهون، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأمانى، وهام أولاء بسوقون الهدى إلى الحرم مرة أخرى، ويمجرون وراءهم أذيان نصر عريض.

وأحب أهل مكة أن يعزوا أنفسهم وهم يحلون عنها - وفق الاتفاق المبرم - فبدخلها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته معتمرين، فأشاعوا أن المسلمين يعانون عسرة وجهداً!

قال ابن عباس : صفوا له عند « دار الندوة » لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد ؛ اضطجع برذائه ، وأخرج عضده اليماني ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ^(١) ، ثم استلم الركن وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتى واراها البيت عنهم .

والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف ، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

وروى ^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته وهو ينشد :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
بارب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله

(١) ضعيف . رواه ابن هشام (٢٥٤/٢) عن ابن إسحاق : حدثني من لا أنهم عن ابن عباس مرفوعاً . ورواه ابن جرير (٣٠٩/٢) عن ابن إسحاق فقال عن الحسن ابن عماره عن الحكم بن عيينة عن مقسم عن ابن عباس ؛ فإن صحت هذه الرواية فهي نقل عن الطريق الأولى لأن الحسن بن عماره منهم بالوضع ، وإن لم يصح في الطريق الأولى من لم يسم .

ويبقى عنه ما في المسند (رقم ٣٥٣٦) عن ابن عباس أن قريشاً قالت : إن محمداً وأصحابه وقد وهنتهم حتى يثرب ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعامة الذي اعتمر فيه قال لأصحابه : أرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم ؛ فلما رملوا قالت قريش ما وهنتهم وسنده صحيح ، علقه البخاري (٤١١/٨) .

(٢) عند ابن هشام (٢٥٥/٢) من ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلًا لكن رواه عبد الرازي من وجهين عن أنس ، والأول صحيح على شرط الشيخين ، والآخر على شرط مسلم كما قال الحافظ في الفتح (٤٠٣/٧ — ٤٠٤) ومن الوجه الثاني أخرجه الترمذي وحسنه ، والنسائي (٣٠/٢) .

وأقام المسلمون ثلاثة أيام ، جاء في نهايتها نفر من قريش يذكرونه بأقضاء الأجل المضروب ويقولون له : اخرج عنا ، فقال لهم الرسول : لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما ، فحضرتوه ؟ (١)

قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا .

وكان العباس عم رسول الله قد زوجه من ميمونة بنت الحارث ، خالة عبد الله بن عباس ، فعقد عليها في مكة ، وبني سها في يرف ، وفي هذه الممرة نزل قوله تعالى :

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا » .

غزوة مؤتة

عز على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصرى ، والطريقة الشائنة التي عومل بها ، فقد أوثق شر حبيب بن عمرو ورباطه ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل أحد غيره . من بعوث الرسول الكثيرة إلى الآفاق ، والرسول لا يقتلون ، لذلك كان وقع هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فمزموا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلزلة الوالى الأثيم الذي صنع ما صنع لحساب الرومان .

وتجهز المسلمون في جيش يعتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذا بلغت عدته ثلاثة آلاف .

(١) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢٥٥/٢) عن ابن اسحاق بغير إسناد ، والقصبة في البخارى (٤٣/٧ - ٤٥٧) من حديث البراء ، و (٤١٠/٧) عن ابن عمر ، وليس في روايتهما : « لو تركتموني . . . » وإنما فيها : فلما أن أقام بها ثلاثاً أمرهم أن يخرجوا .

وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وهم يقولون : صَبِّحَكُمُ اللهُ بِالسَّلامَةِ
ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة يردُّ على هذا الوداع :

لكني أسأل الرحمن مغفرة - وضربة ذات فرع تقذف الزبدا !

أو طعنة يبدى حرَّان مجهزة - بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا !

حتى يقال - إذا مروا على جدتي - يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا !

ورتب النبي فادة الجيش ، فجعل الأمير زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب جعفر
ابن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ^(١) .

واطلق الجيش إلى مشارف الشام .

إلا أن أخبره سبقته إلى الروم ، ولا بد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة
المسلمين وطاقتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف .

فلما وصل المسلمون إلى «معان» عرفوا أن في انتظارهم مائة ألف من الروم ،
ومائة ألف أخرى من نصارى العرب .

والمهجوم على جيش تلك عدته مجازفة مخوفة ، فأقام المسلمون ليلتين بـ : «معان»
يتدبرون أمرهم ، وقال نفر منهم : فكتب إلى رسول الله نخبه بعدد عدونا ، فإما
أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، ولم يرق ذلك لعبد الله بن
رواحه فشجع الناس قائلا : يا قوم ، والله إن التي تـكـرهن للتي خرجتم تطالبون .
- الشهادة ! - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين
أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسينيين : إما ظهور وإما شهادة .

(١) حديث صحيح أخرجه ، البخاري (٤١٢/٧) وغيره عن ابن عمر . وأحمد
(٢٩٩/٥ ، ٣٠٠ - ٣٠١) عن أبي قتادة ، وسنده صحيح .

وكان لهذه الكلمة المتهمة أثرها ، فاخفتت من صفوف المسلمين مشاعر التردد وقرروا القتال ، مهما كانت النتائج .

وإن راحة شاعر حاد العاطفة ، وقد أحس منذ خروجه أن الامتداد مقبل عليه ، فهو ينهأ له بقلبه ولسانه ، وقد تكون الحكمة العسكرية في تصرف غير ما أوحى به ، غير أن المسلمين ما إن سمعوا حديث القداء والموت في سبيل الله حتى جاشت بأنفسهم محبة الآخرة ، ثم ذكروا أنهم نصرروا في معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم ، فأقدموا مطمئنين .

عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة ، فلما دنا للمشركون رأينا ما لا قبل لأحديه من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرر والذهب ، فبرق بصرى ١١ فقال لي ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة ؟ قلت : نعم - وأبو هريرة ممن أسلموا بعد الحديبية - فقال له ثابت . إنك لم تشهد بدرأ معنا ، إنا لم ننصر ما لكثرة . .

* * *

والتقى الجمعان ، وعبث أن تنتظر من ثلاثة آلاف بطل أن يصادوا في ميدان
مكشوف فيألق تربو عليهم سبعين ضعفا .

قاتل زيد بن حارثة براءة رسول الله حتى شاط في رماح القوم .
وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فقبل على الروم بحالدم بعنف .
روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكانى أنظر إلى جعفر حين اقتحم على فرس له شقراء ثم مقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يانشد :
يا حبذا الجنة واقترابها | طيبة ، وباردا شرابها |
والروم قوم قد دنا عذابها | كفرة بعيده أنسابها |
على " إن لاقيتها ضرابها |

قيل أن رجلاً من الروم ضرب به ضربة قطعه نصفين ...

وقيل : أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بمضديه حتى

قتل ، وقد رزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فلما قُتِلَ حمل عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فلما أحس دقة الموقف وشدة الضغط عراه بعض التردد ، ثم أقنع نفسه بورود المصير الذي ذاق أصحابه على الساحة المصطربة وهو يقول :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى ! هذا حمام الموت قد صليت !

وما تمنيت فـ قد أعطيت ! إن تفعل فعلهم اهديت !

ثم أقدم وجاءه ابن عم له بقطعة لحم فناولها إياه وهو يقول : شد بها صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأكاد يقطع منها مضغة حتى سمع الخطمة في ناحية من الجبهة استعرت بها للحرب ، فقال لنفسه : وأنت في الدنيا ؟ ورمى بالطعام من يده .. ثم انتفض سيفه وتقدم حتى قتل ...

وأخذ الراية التي تداولتها أيدي الأمراء الثلاثة ثابت بن أقرد ، وصاح بامعشر المسلمين اصطلعوا على رجل منكم ! قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ! فاصطلح الناس على « خالد بن الوليد » ، وثابت أي القيادة . لا نكوصاعن الموت بل شعوراً

بوجود الأكفأ منه في الجماعة ، وحملانه الراية خشية أن تسقط ، من آيات الجرأة

في هذا الموقف العصيب . وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم

التي يستحقونها ، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته ..

وأخذ الراية « خالد » فشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا للأزق المتضايق .

وقتل الانسحاب شاق مرهق ، خصوصاً وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطمة . روى البخاري عن خالد : اندقت في يدي يوم « مؤنة » تسعة أسياف ،

وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية ، ودخل الليل على المتحاربين ، فكان هدنة مؤقتة ، فلما طلع الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، فجعل المقدمة ساقية والميمنة ميسرة .

وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش للإلحاح عام ، وقد أفلحت هذه الخطة في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه ، وإفاد سمعة المسلمين في أول معركة لهم مع الدولة الكبرى .

والعجيب أن الرومان أعيام هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة ؛ بل إن بعض فرقهم انكشف ، وولى مهزوماً . . . واكتفى خالد بهذه النتيجة ، وآثر الإنصراف بمن معه .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيداً فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - قال . ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم (١) .

وروى ابن إسحاق (٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد رفعوا إلى الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت : ثم هذا ؟ فقل لي : مضياً ، وتردد عبد الله بعض التردد . ثم مضى .

* * *

والدلالة التي تلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالهم باعنا

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤١٣/٧) وغيره .

(٢) رواء بلاغاً كما في سيرة ابن هشام (٢٥٨/١ - ٢٥٩) وغيرها فهو ضيف الإسناد .

حدًا لم تعرفه أمة معاصرة ، وقد أكرمهم هذا الروح العالى إقدامًا حقيرًا أمامهم
كبرياء الأمم التى عاشت مع التاريخ دهرًا ، تصول وتجول لا يقفها شئ .

إن الاستهتار بالطعّار والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال
المقاتلون وحدهم ، بل هى قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت
الأمة كلها أمة كفاح غالى عزيز . وحسبك أن جيش « مؤتة » لما عاد إلى المدينة
قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون : يا فرّار ، فررتم فى سبيل الله ؟ إن
أولئك الصغار الأحرار يرون انسحاب خالد ومن معه فرارًا يُقابل بمخو التراب .

أى جبل قوى نابه هذا الجليل الذى صممه الإيمان بالحق ؟ أى نجاح بلغته رسالة
الإسلام فى صياغة أولئك الأطفال المعظام ؟ من آباؤهم ؟ من أمهاتهم ؟ كيف
كان الآباء يربون ؟ وكيف كانت الأمهات يبدلن ؟

إن سلسلة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس ..

* * *

نحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن قادة الجيش الذين قتلوا ؛ فقال لأصحابه :
« ما يسرهم أنهم عندنا (١) » أجل ، إن الجوار الذى صاروا إليه أحب لنفوسهم
وأقرّ لعيونهم من الدنيا وما فيها . أما أسرهم ففى كفالة الله ، وهو نعم المولى
ونعم النصير .

عن عبد الله بن جعفر - ابن الشهيد - جاءنا النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد
ثلاث من موت جعفر - فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم وادهوا إلى
بنى أخى » ..

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه البخارى (١٢٥/٦) من حيث أنس المتقدم فى روايته
له ؛ لسكن بلفظ : « ما يسرنى » أو قال : ما يسرهم .. « على الشاك » .

قال عبد الله: فجيء بنا كأننا افراخ . فقال : ادعوا إلى الخلاق . فجيء بالخلاق فخلق رءوسنا ، ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام - مداعباً : أما محمد فشيء عنه أبى طالب . وأما عبد الله فشيء خلقه وخلقى . ثم أخذ يدي فأشالها وقال : اللهم اخلف جعفرأ في أهله . وبارك لعبد الله في صفقة يمينه - قالها ثلاث مرات .

قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجهلت تحزنه . فقال لها النبي « العيلة تخافين عايهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة »؟؟ (١) .

ولم ير المسلمون في نتائج « مؤنة » ما يسكن ثأرتهم ، فإن القبائل المنتصرة بالشمال استظهرت بالرومان على مقاتلتهم ، واستطاعت بذلك النجاة من عدوانها على الحارث ابن عمير ، ولا بد من قذف الرعب في قلوبهم ، وإشعارها بأن بعوث الإسلام لا تاتي هذا الهوان . وهكذا اتجه نشاط المسلمين العسكري إلى ميدان جديد بعيد .

ذات السلاسل

كانت « مؤنة » في جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ولم يلبث المسلمون طويلاً بعدها حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا ، فخرج « عمرو ابن العاص » ليؤدب القبائل الصاربة هناك إلا أنه خشي من كثرة عدوه ، فأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب مدداً ، وانحاز إلى ماء يسمى السلاسل حتى يجيئه العون .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً من المهاجرين الأولين - فيهم

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه أحمد (رقم ١٧٥٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم وبعضه عند أبي داود والنسائي والحاكم وصححه ؛ ووافقه الذهبي .
(٢٦ - فقه السيرة)

أبو بكر وعمر - يقوده أبو عبيدة بن الجراح . ووصاه رسول الله حين وجَّهه
للمجدة «عمر» فقال : لا تختلفا^(١) .

فلما وصل أبو عبيدة قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي فقال له أبو عبيدة :
«لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه» فقال عمرو : أنت مدد لي - !
وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً ، هيناً عليه أمر الدنيا - فقال : يا عمرو ، إن رسول
صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا . وإنك إن عصيتني أطعتك ! قال عمرو : فأني
أأمر عليك ، وإنما أنت مدد لي . قال : فدونك ! فصلى عمرو بالناس وتولى قيادهم
جميعاً . . .

وأخذ عمرو يطارد القبائل الموالية للروم . فتوغل في بلاد بلخ وعذرة وبلقين
سوطى . . وكما انتهى إلى موضع قيل له . كان هناك جمع فلما سمعوا بك تفرقوا !
وظفر مرة بواحد من هذه الجموع فاقتتلوا ، وحمل عليهم المسلمون فهزموا ، وأعجزوهم
هرباً في البلاد .

ومع أن عمرأدوخ أولئك الأعراب وشنت شملهم إلا أنه لم يلقهم في معركة
حاسمة وعلى أية حال فإن سمعة المسلمين انزاح عنها غبار كثير بهذه الغزوة .

وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة . وخشى على نفسه أن اغتسل
أن يعتل فتيمم وصلى بالناس وكان بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو ،
فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : إن عمرأدوخ صلى بنا وهو جُنُب فقال
الرسول : يا عمرو . صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبره بالفى منعه من

(١) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين
التميمي مرسلًا .

الاجتسال . لقد خاف على نفسه قسوة البرد ، والله يقول : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » .
فضحك الرسول ولم يقل شيئاً^(١) ..
وقفه عمرو في هذه المسألة صحيح ، فإن التيمم يجوز إذا كان استعمال الماء
مظنة الضرر .

الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل
ذى عقل . وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقررأ فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس
من ذلك الآيات البينات ..
لكن قريشاً ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها ، غير واعية للأحداث
الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في
العالم كله .

وقد جرها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لقوا .
وذلك أنها - مع حلفائها من بني بكر - هاجموا خزاعة - وهي مع المسلمين في حلف -
واحد - وقتلوا فأسأبوا منهم رجالا . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تسكن
مقابلة الحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش يمدُّهم بالسلاح وتعينهم على البغي .
وأحسن نفر من بني بكر أنهم دخلوا الحرم - حيث لا يجوز قتال - فقالوا :

(١) صحيح ، أخرجه أبو داود والدارقطني والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن
عمرو بن العاص ، وقد تكلمت على الحديث في « صحيح سنن أبي داود » (رقم
٣٦٠ ، ٣٦١) .

فرضهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله
إلا الله يا بني بكر . . أصيبوا ثأركم ١١٠٠

وفزعت خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله « عمرو بن سالم » يقص
عليه نبأها . فلما قدم المدينة ، وقف على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في
المسجد بين ظهراني الناس يقول :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| يا رب إني ناشد محمداً | حلف أئبنا وأبييه الأندلا |
| قد كنتم ولداً وكنا والداً | ثم أسلمنا فلم ننزع يدا |
| فنصر هداك الله نصراً أعتدا | وإدع عباد الله بأنوا مددا |
| فيهم رسول الله قد تجردا | أبيض مثل البدر يسمو صعدا |
| إن سم خسفا وجهه تربدا | في فيلق كالبحر يجري مزبدا |
| إن قريشاً أخلفوك الموعدا | ونقضوا ميثاقك المؤكدا |
| وجعلوا لي في كداء رعداً | وزعموا أن لست أدهوا أحدا |
| يوم أذل وأقل عدداً | هم يبتونا بالوتير هجدا |

وتقولونا ركعاً وسجداً

فقال له رسول الله . نصرت يا عمرو بن سالم . . (١)

* * *

وأحس قريش — بعد فوات الأوان — خطأها ، فخرج أبو صفيان إلى
المدينة يصلح ما أفسده قومه ، ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمة

(١) ضيف . رواه ابن هشام (٢ / ٢٦٥) وابن جرير (٢ / ٢٢٤ - ٢٢٥)
عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ووصله الطبراني في « المعجم الصغير » (ص ٢٠٧) وكذا
الكبير من حديث ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها بإسناد ضعيف .

وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش ، فطوته
دونه . فقال : يا بنية ما أدرى ، أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ .
فقلت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس !
قال : والله لقد أصابك بعدى شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فسلمه ، فلم يرد
عليه شيئاً (١) .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليحدث النبي في هذا الشأن فرفض . فتركه
إلى عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ! والله لو لم أجد إلا الذرَّ
لجاهدكم به .

فذكرهما إلى عليٍّ فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر
ما نستطيع أن نكلمه فيه ثم نصحه أن يعود من حيث جاء . . فقفل أبو سفيان
إلى قومه يخبرهم بما ألقى من صدود .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى
مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش
حتى نبغتها في بلادها ! (٢) .

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعبثون قواهم للقاء المنتظر ، وهم
مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

(١) ضعيف . رواه ابن إسحاق بدون إسناد . كما في سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)
وابن جرير (٢/٣٢٥ - ٣٢٦) .

(٢) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق بدون إسناد ؛ ومعناه في حديث ميمونة المخرج آتفاً .

ووقع في هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب . فإن رجلاً من أهل السابقة في
جهاد المشركين تطوَّع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً صائر إليهم
بجيشه ... ١١

وقد رأيت أن المسلمين حراس على إخفاء خطة الغزو . أليس مما يقرب نجاحهم
وبخفف خسائرهم ؟ ولعله يدفع قريشاً إلى التسليم دون أن تسفك الدماء عبثاً
وما معنى الكتابة إليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والاستكثار
من أسباب المقاومة ؟

عن علي بن أبي طالب : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد
فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظمينة معها كتاب ، فخذوه منها
فانطلقنا تسادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظمينة . فقلنا : أخرجني
الكتاب . فقالت : ما معي ! فقلنا : لتخرجين الكتاب أو لتأقين الثياب !
فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاذا فيه « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض
أمر رسول الله » فقال : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تعجل عليّ .
إني كنت امرأً ملصقاً في قريش - كنت حليفاً لها ولم أكن من صميمها - وكان
من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت ، إذ
فأنتي ذلك من النسب فيهم - أن آخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله
ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه قد صدقكم ! فقال عمر : يا رسول الله
دعني أضرب عنق هذا المنافق ! فقال : إنه قد شهد بذكرك . وما يدريك ! .. لعل
الله قد أطلع علي من شهد بذكرك ! فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .. ؟

ونزل قول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعل ذلك فقد ضلّ سواء السبيل) (١) .

إن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل .

وما كان له أن يوادّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان وصنعوا بالمسلمين ما « حاطب » أعلم به من غيره .

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها ، والله أبرّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التي تمر ونورهم فيخبو ، وسعهم فيكهو .

وقد استكشف النبي صلى الله عليه وسلم خبيثة حاطب ، فعرف أنه لم يكذب به في اعتذاره ، إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد ينهزمون فيها ، فتقوم العصبيات القديمة بحماية الأقارب الشاردين ، ويبقى حاطب لا حى له فليتخذ تلك اليد عند قریش ، حيلة للمستقبل .

ذلك ما فكر فيه حاطب ، وهو خطأ ، فإن المشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً ، وما ينبغي - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقى لهم ودّاً . وقد خاصمناهم في ذات الله ، وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا .. ولو جاز اتخاذ يد عندهم فكيف يتوسل بعمل يعدّ خيانة كبيرة فادحة الإضرار بالإسلام ، وأهله ؟ .

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه الشيخان وغيرهما .

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم ، فحبرت عثرته ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه ، وبهذا التقدير السمج علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلاً .

○ ○ ○

سرى القلق في ربوع مكة عقب أوبه أبي سفيان ، ورأى العباس بن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة ، فقابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطريق مقبلاً بجيشه على مكة ، وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية ، فلحقا النبي صلى الله عليه وسلم بالأبواء - وهما ابن عمه وابن عمته - وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة ، فأعرض عنهما لما ذكر من مساوئهما .

لكن علي بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يقرض بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له : ائته من قبل وجهه ، وقل ما قال إخوة يوسف « نال الله لقد آثر الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وأشده أبو سفيان أبياتا جاء فيها :

لعمرك إني حين أحمـل راية اتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالدلاج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ودنى على الله من طردته كل مطرد

فضرب الرسول على صدره وهو يقول له أنت طردتني كل مطرد (١) .

(١) حديث حسن ، أخرجه ابن جرير (٢٢٩/٢) والحاكم (٤٣/٣ - ٤٤) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وإنما هو حسن فقط .

وسار الجيش يطوى الوهاد والنجد ممرعاً إلى مكة ، حتى بلغ «صر الظهران» قريباً منها في العشاء ، فنزل الجيش ، ونصبت الخيام وأوقدت النيران في معسكر يضم عشرة آلاف حتى أضاء منها الوادى ، وأهل مكة في عماية من أسهم لا يدرون عن القضاء النازل شيئاً ... وعز على العباس أن تُجتاح مكة في أعقاب قتال تنفانى فيه ولا يفتيها فتيلاً .

فخرج يبحث عن وسيلة تنفع قريشاً بمسألة للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخلها في أمانه .

وصادف ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتعرفون الأخبار ، ويتسمعون ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادى راعهم ما به .

قال أبو سفيان زعيم مكة . مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً !!

فقال بديل بن ورقاء : هذه - والله - خزاعة حمشتها الحرب .

فرد أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . وكان المسلمون على خطتهم المرسومة يثنون العيون حولهم حتى يأخذوا قريشاً على غرة فلا ترى من التسليم بدءاً ، فغثرت خيالهم على رجال قريش أولئك ، ومعهم حكيم بن حزام فأخذتهم ، وعادت بهم مسرعة إلى رسول الله ، ولحق العباس بالأمرى وهو يعلن أنهم في جواره ، فلما دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم حادتهم عامة الليل ، فانشرح صدورهم بالإسلام ، وإن كان أبو سفيان قد تأخر حتى طلع الصبح ...

ثم سأله الأمان لقريش ، فقال رسول الله : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ^(١) .

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام (٢٦٨/٢) عن ابن إسحاق معضلاً ، لكن وصله عنه ابن جرير (٣٢٠/٢ — ٣٣٢) عن حسين بن عبد الله بن عبد الله بن =

وإنما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه ، وقد أرضاه بما لا يضر أحداً ولا يكلف جهداً ، ولا عليه أن يتعجب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة ، وهو سيد مكة المتبوع قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وميرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : حلیم . فيقول مالي وسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ! فيقول : مالي ولزينة حتى نفذت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا سألتني عنها ، فإذا أخبرته قال : مالي واجبي فلان ؟ .

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ .

قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .

== عباس عن عكرمة عن ابن عباس . وحسين هذا ضعيف ، لكن قال الهيثمي في « المجمع » ١٦٥/٦ - ١٦٧ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح « فالظاهر أنه عنده من غير هذا الطريق الضعيف ، ورواه أبو داود (٢ / ٤١) عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس . وفيه رجل لم يسم ، وله عنده إسناد ثالث ورجاله ثقات . لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع ثم أخرجه هو ومسلم (١٧٢/٥ - ١٧٣) من حديث أبي هريرة إلا أنه قال : « ومن أتى السلاح فهو آمن » بدل : « ومن دخل المسجد فهو آمن » .

قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاعة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . .

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن ^(١) .

. . .

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا انطلق اجتاح ما أمامه . فما يقف دونه شيء ، ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بعيد رويداً رويداً فاجتمعوا على مادتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا صوت أبي سفيان ينطلق عالياً واضحاً : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وشُدِّهت امرأته هند بنت عتبة وهي تسمع من زوجها هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحيت الدسم الأحش - أي هذا الزق المتنفخ - قبحت من طليعة قوم ..

ولم يكثر أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ويلكم لاتقرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ..

قالوا : فأنالك الله ؟ وما تقنى عنا دارز ؟ قال . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ففترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام (٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لكن رواه ابن جرير والطبراني موصولاً عن ابن عباس كما تقدم آنفاً . وبعضه في صحيح البخاري (٨ / ٤ - ٦) وابن جرير (١ / ٣٣٢ - ٣٣٣) عن عروة مرسل . فهو شاعداً قوي .

وأصبحت « أم القرى » وقد قيد الرعب حرركاتها ، واسترخت تجاه القدر
للمساق إليها . فاختنى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام
يرقبون وهم واجمون ...

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته
عمامة دسما ، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله ، لقد انحنى على رحله وبدأ عليه
التواضع الجمل حتى كاد عنقونه يمس واسطة الرحل (١) إن الموكب الفخم للمهيب
الذى ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيالق الدارع الذى يحف به ينتظر إشارة
منه فلا يبقى بمسكة شئ آمن ، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول
كيف خرج مطارداً ؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً . . . ! وأى كرامة عظمى
حفه الله به فى هذا الصباح الميسون ! وكلما استشعر هذه النماء ازداد الله على راحلته
خشوعاً وانحناءاً ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش فى بعض الصدور .

فإن « سعد بن عباد » زعيم الأوس ، ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا
فى جنب الله ، ثم شعر بزمأم القوة فى يده فصاح . اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل
الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : بل اليوم يوم

(١) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢٦٩/٢) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي
بكر مرسل . ووصله الحاكم (٤٧/٣) وكذا أبو يعلى من حديث أنس بن مالك . وقال
الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وأقره الذهبي ! وهو من أوهاهما ، فإن فى سنده
عبد الله بن بكر المقدي وهو ضعيف كما قال ابن عدى ثم ساق له هذا الحديث كما فى الميزان
وهذا المقدي غير عبد الله بن أبي بكر شيخ ابن إسحاق ؛ فإن هذا متأخر من طبقة
الإمام أحمد ، وذاك تابع صغير يروى عن أنس رضى الله عنه وهو ثقة .

تعظم فيه الكعبة^(١) . اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس .

ومار رسول الله فدخل مكة من أعلاها^(٢) . وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم^(٣) فدخلت صائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل «خالد بن الوليد» من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش ، غاظمهم هذا التسليم ، فجمعوا عند «الحندمة» يقودهم «عكرمة» بن أبي جهل و «سهيل» ابن عمرو ، و «صفوان» بن أمية ، إلا أن الحقيقة الكبيرة صدمت غرورهم فبددته ، فإن خالداً حصداً حصداً حتى لاذ القوم بالفرار . ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بنى بكر ، كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته إذا رآته يصلحه ويتمهد تسأله : لماذا تُعد ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه ، وقالت امرأته له يوماً : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء ، فقال إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ... ثم قال :

إن يقبلو اليوم فما لي علة — هذا سلاح كامل وألّة (٤)

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة .
ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته أغلقتي على الباب . . .

(١) ضعيف ، أخرجه البخاري وغيره في حديث عروة مرسلاً ، وقد سبق تخريجهم قريشاً ، وأما باقي الحديث فرواه يحيى بن سعيد الأموي كما في شرح اللواهب للزرقاني (٣٠٦/٣) ولم يتكلم على سنده ولا ساقه لينظر فيه ؛ وقد أشار ابن كثير في البداية (٢٩٥/٤) لضعفه .

(٢) صحيح ، أخرجه البخاري (١٤/٨ ، ١٥) عن ابن عمر وعائشة .

(٣) ذكره ابن هشام (٢٨٣/٣) عن ابن إسحاق بدون إسناد .

(٤) ألّة : حربة .

فقال المرأة لغارصها المعلم . فأين ما كنت تقول ؟ فقال - يعتذر - لها :
إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالوثمة (١) واستقبلتهم بالسيفوف السائمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا تسمع إلا غفمة
لهم نهيت خلفنا وهممة لم ننطقى بالأموم أدنى كلمة ! !

وسكنت مكة واستسلم سادتها وأتباعها . وعلت كلمة الله في جنباتها ، ثم نهض
رسول الله إلى البيت العتيق فطوّف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله .
ويضربها بقوسه ظهراً لبطن ، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة .

كانت هذه الحجارة - قبل ساعة - آلهة مقدسة . وهي - الآن - جص
وتراب وأنقاض ، يهدمها نبيّ التوحيد وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل
إن الباطل كان زهوقاً ... » (٢) .

ثم أمر بالكعبة ففتحت . فرأى الصورَ تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم
وإسماعيل يستقيمان بالأزلام ! فقال - ساخطاً على المشركين - قاتاهم الله ، والله
ما استقيما بهذا قط (٣) ، ومحا ذلك كله (٤) . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان
أقبل على قریش وهم صفوف صفوف ، يرقبون قضاءه فيهم ، فأمسك بمضادتي

(١) الاسطوانة ، وأبو يزيد : سهل بن عمر .

(٢) حديث صحيح ؛ أخرجه الشيخان في صحيحهما عن ابن مسعود . ومسلم من حديث
أبي هريرة .

(٣) حديث صحيح ؛ أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٤) حديث صحيح ؛ أخرجه أحمد (٣ / ٣٣٥ ؛ ٣٣٦ ؛ ٣٨٣ ؛ ٣٩٦) من حديث

جابر بسند صحيح ؛ والطيالسي (١ / ٣٥٩) من حديث أسامة بن زيد وسنده جيد
كما قال الحافظ في « الفتح » (٢٦٨ / ٣) .

الباب — باب الكعبة — وهم تحته ، فقال . لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم قال يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) .

وعندما كان رسول الله بالمسجد يُجسِّمُ على الوثنية في عاصمتها الكبرى ، اقترب منه (فضالة بن عير) يريد أن يجد له فرصة ليقنله .

فنظر إليه النبي نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غرة النصر الذي أكرمه الله به ، لم يجد في نفسه على الرجل . بل استدعاه ثم سأله . ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء . اكنت أذكر الله ! ! فضحك النبي ثم قال : أستهتفرك الله . وتلطَّف معه الرسول ، فوضع يده على صدره ، فانصرف الرجل وهو يقول :
مارفع يده عن صدرى حتى يماين خلق الله شيء أحبَّ إلى منه (٢) .
وكانت لفضالة في جاهليته هنات ، فر — وهو راجع إلى أهله — بامرأة لها معه شأن . فلما رآته قالت : هلم إلى الحديث ! فانبعث يقول :
قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت لا بأبي عليك الله والإسلام

(١) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق معضلاً كما في « ابن هشام » (٢٧٤/٢) ؛ وقد ذكره الفزالي في « الإحياء » (١٥٨/٣) من حديث أبي هريرة دون قوله : « اذهبوا » . وقال الحافظ المراق في تخريج « رواه ابن الخورى في « الوفاء » من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف » ثم ذكره الفزالي من حديث سهل بن عمرو . فقال المراق : « لم أجده » .
(٢) ضعيف ؛ رواه ابن هشام (٢٧٦/٢) بإسناد معضل .

لو رأيت محمداً وقييله بالفتح يوم تكسر الأصنام

رأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الإظلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد
على آذانهم كأنهم في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة
الشياطين فلا يمكن أن يكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين .
الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر .

هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالغاية الأولى من محيىام ، وبالرجع الحق
بعد مماتهم ، فكم ضلت البشر غايات صغيرة أرخصتهم على ظهر الأرض ركض
الوحوش في البرارى ، واجتذبت انتباههم كله فاستغرقوا في السعى وراء الخطام !
وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان ، والفرح يقتلهم بالامتلاء ،
ولم يسفه المرء ، نفسه بالغيوبة في هذه التوافه ؟

إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليلقى في روعه
ما كان ينسأ ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين ، سيده ومولاه ...
أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .

لقد سقط الشركاء جميعاً ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء ، وأملوا
الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة .
ولم الخطب في هذه التناهات ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلائقه ، أو
يؤلّونها دونه ؟ فالمسلمون لا يعرفون إلا الله رباً ، ولا يرون غيره مؤثلاً .

وانتوحيد المحض ، هو المنهج العنيد للغاية التي استهدفوها .
ولسكن من الأسوة ؟ من الإمام في هذه السبيل ؟ من الطليعة الهادية المؤنسة ؟
إن المؤذن يستتلى ليذكر الجواب .

أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل إنسان ينبغي الحياة الصحيحة،
إن محمداً إنساناً ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له .
وهو يهيبُ بكل ذى عقل أن يُقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاة ولى أمره ، وولى نعمته ، فيحث الناس أولاً على أداء عبادة ميسورة رقيقة .
حتى على الصلاة ، حتى على الصلاة .

هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي لحظات المساب كلما
انحرف الإنسان عن الجادة . هي لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء النزق ،
وطافت على فكره الأثرة فنظر إلى ماحوله ، وكأنه إله صغير . هي لحظات
الاستمداد والإلهام .

وما أفقر الإنسان - برغم غروره - إلى من يلهمه الرشد فلا يستحق ، ويمده بالقوة
فلا يعجز ويستكين . ثم يحث الناس - أخيراً - على تجنب الخيبة في شئونهم كلها .
والخيبة إنما تكون في الجهد الضائع سدى . في العمل الباطل لأنه خطأ ،
سواء كان الخطأ في الأداء ، أو المقصد ... وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو :
حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح .

وبوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح في صورته ونيته ، فقد أفلاح ،
ولو كان من أعمال الدنيا البهجة ، ألم يعلم الله نبيه أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه
وصلاته خالصة لله ؟ (قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

ولاسبيل إلى ذلك إلا بإصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبداً ،
ومن ثم يعود إلى تقرير الغاية والمنهج ، مرة أخرى .

الله أكبر الله أكبر ...

لا إله إلا الله ...

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة في الإصلاح ، ولذلك جا .
في السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :

« اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة
وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد ^(١) » .

• • •

وفي يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ،
ولم يسمعوا صوت بلال يرنّ فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا
الأصنام مكبوبة على وجوهها مسواة بالرغام ، ولم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا
السلم واتجهوا إلى الإسلام ..
لهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة ، التي نشبت بين الإيمان والكفر .

ولكن النصر الذي يحني الأحياء ثماره اليوم لم فيه نصيب كبير ، وحزائهم
عليه مكفول عند من لا يظلم منقال ذرة .

لأنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق
والباطل ، فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه ، وقد يصرع في هزيمة عارضة -
كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه .

والقرآن الكريم بنبه أصحاب الحق إلى أن العول في الحساب الكامل على الدار
الآخرة ، لاعلى الدار الدنيا ، فمناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً ،
(فاصبر إن وعد الله حق ، فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك
فإلينا يرجعون) .

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه البخاري في « صحيحه » وفي « أفعال العباد » وأصحاب
السنن الأربعة والطبراني في « المعجم » وابن السني في « عمل اليوم والليلة » وأحمد
والبيهقي من حديث جابر مرفوعاً به ؛ دون قوله : « إنك لا تخلف الميعاد » فتفرد بها
البيهقي وهي شاذة لا تصح .

ودخل رسول الله مكة في رمضان ، وظل بها سائر الشهر بقصر ، ويفطر أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكان قد خرج من المدينة صائماً ثم أفطر هو وصحبه في الطريق^(١) .

فلما استقر الأمر ، شرع يبايع الناس على الإسلام^(٢) فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء ، فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا^(٣) . وسنة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهم الميثاق كلاماً لا مصافحة . فعن عائشة : « لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط »^(٤) .

° ° °

وهكذا دخل أهل مكة في الاسلام ، وإن كان بعضهم بقي على ريبته وجاهليته . يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ، وأولئك تركوا للأيام تشفى جهلهم ، ونحى مآلات من قلوبهم وألبابهم .

وما دامت الدولة التي تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت ، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطنة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تعمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا في عقر دارهم ، فلم يجدوا مناصحاً من الاستسلام ،

(١) أما قصره صلى الله عليه وسلم في مكة فثابت في « البخاري » (١٧/٨) عن ابن عباس قال : أقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين . وأما إفطاره فهو في « الصحيحين » من حديث ابن عباس أيضاً .
(٢) حديث حسن رواه أحمد (٤١٥/٣ ، ١٦٨/٤) من حديث الأسود بن خلف . وسنده حسن .

(٣) ضعيف ؛ رواه ابن جرير (٣٢٧/٢) بدون إسناد ، أو من حديث قتادة مرسل . والطريق إليه ضعيف .

(٤) صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما .

فما استطاعوا الجلاذ ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع ، حتى خُيِّل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فأبانتك عنها !

معركة حنين

بيد أن هذا الغاب كله كان له رد فعل مما كس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة ، وفي مقدمتها «هوزان» و «ثقيف» وتعتبر «الطائف» قصبتها وهي أكبر المدن في الجزيرة بعد مكة ويثرب

اجتمع رؤساء هذه القبائل على «مالك بن عوف» سيد «هوزان» ، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين ، قبل أن تتوطلد دعائم الفتح ، وقبل أن يتحور كوا لاستئصال ما بقي من معالم الوثنية المدبرة .

وكان «مالك بن عوف» شجاعاً مقداماً ، إلا أنه سقيم الرأي سيء المشورة .

فأمر قومه — وهم خارجون لغزو — أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذرايرهم ، ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمة وراثة فلا يفر عنها...

وقد اعترضه «دريد بن الصمة» ، وهو فارس مجرب محنك ، وقال له : هل يرد للمهزم شيء ! إن كانت الدائرة لك ، لم ينفعك إلا رجل رحيم وسيفه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

فسفه مالك رأيه ، وأصر على خطته .

وعلم المسلمون بخروج أعدائهم ، فأرسلوا عيونهم يتعرفون عدتهم وهيتهم . روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال له : إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا «هوزان» عن بكرة أبيهم بظعنهم ، وبنعمهم

وشأنهم ، اجتمعوا إلى «حنين» ... فقبض رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ^(١) .

إن السهولة التي تم بها فتح مكة ، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تذكر . وظنّ حدثاء العهد بالإسلام أن شيئاً ما لن يقف في طريقه ، كل ذلك جعل الجيش يزحف للقضاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجهه ، ولم يكترث ؟

إنهم — وهم قلة — كانوا يكسبون المعارك الطاحنة ، فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلاً ؟ قيل : إن أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن تغلب اليوم من قلة.. !

ذلك أن المسلمين بلغوا اثني عشر ألفاً ، بمن انضم إليهم من أهل مكة .

هزيمة

ومار الجيش الواصل حتى وصل إلى وادي «حنين» .

وكان «مالك بن عوف» ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضايقة ، وانبتوا في الشجيرات والأعشاب المنيرة ، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين .

وأقبلت الطلائع الغفيرة تتدافع نحو الوادي — وهي غافلة عما يمكن فيه — وكان وادياً أجوف منحدراً ، ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسبرون إلى هاوية .

فلما تكاثرت في دروبه الفرق الزاحفة ، لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المساكن العالية ، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياها في الجوف الغائم

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١ / ٢٩١ — ٢٩٢) عن سهل بن الحنظلية

فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة ، فهي في عماية من الليل ، وعماية من أمرها ، لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار ..

وانتشرت موجة الفزع ، فكسرت الصفوف المرصوفة وبعثتها .
واستغل رجال مالك بن عوف ، هذا الارتباك ، فهاجمت كتائبهم ، وحملت الخيل على ما أمامها ، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحد على أحد ..
ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشفٍّ وفرح .
وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله فقال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! ولا عجب فإن الأزلام التي يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنانته ..
وقال « كلدة بن الجعيد » : ألا بطل السحر اليوم .
فأجابه « صفوان بن أمية » — ولما يزل مشركا — : أسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يرثي رجل من « قريش » أحب إلى من أن يرثي رجل من « هوازن » .

* * *

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، وقد أغضبه هذا القرار ، فقال : أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .. فلا يردّ عليه شيء ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي مولية بأصحابها^(١) .
ولمح النبي وراءه رجلا من « هوازن » على جبل له أحر ، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل ، « وهوازن » خلقه ، إذا أدرك الفارين طعن برمح ، وإذا فاتوه رفع رمح لمن وراءه فاتبعوه .
إن الذي تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو .

(١) صحيح أخرجه ابن هشام (٢ / ٢٨٩) وابن جرير (٣ / ٣٤٧) كلاهما عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

ووقف النبي صلى الله عليه وسلم ما كن الجأش ، يدبر الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله ، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته .
فأمر العباس بن عبد المطلب - وكان جدير الصوت - أن ينادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية (١) ..

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال الفداء عند الصدام فهم - وحدهم - الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب .
أما هذا الغناء من العوام الحراص على الدنيا ، السعاة إلى المغام ، فما يقوم بهم أمر ، أو تثبت بهم قدم .

الشبّات والنصر

وفى ضجة الفزع الذى ساد المعركة أولاً ، علت صيحات العباس ، ووصلت إلى آذان الرجال المشدوهين لما وقع ، فأخذوا يكأخون ليبلغوا مصدر الصوت .
إذا أراد أحدهم أن يعطف بعيره ليعود به ، لا يقدر من ضغط الفارين ، فما يجد بداً من أن يقذف درعه من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت .

واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم ، وهم يصيحون : لبيك ، حتى قارب القوم مائة ، فاستقبل النبي بهم المشركين ، وقد ملك زمام الموقف وأعاد الكرة عليهم ، فاجتلد الفريقان اجتلاداً شديداً .

وقصد «على» وأحد الأنصار إلى حامل العلم فى طليعة هوازن ، فضرب «على» عرقوبى جملة فوقه على عجزه ، ثم استمكن منه الأنصارى فهوى به عن رحله .
وكان النبي على بغلته يقول :

(١) رواه ابن صحيح إسحاق بسند صحيح عن العباس وقد ساقه ابن جرير وابن هشام عنه ؛ وهو فى مسلم (١٦٦/٥ - ١٦٧) نحوه .

أنا النبي لا كَذِبُ أنا ابن عبد المطلب (١)

ويدعو : اللهم نزل نصرك (٢) .

والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال هوازن وثقيف .

قال « العباس » : ونظر رسول الله - وهو على بغلته كالمطاول عليها إلى قتالهم فقال : الآن حَمَى الوطيس ، ثم أخذ حصيات ، فرمى بهن في وجوه الكفار ، ثم قال . انهزموا ورب محمد .

قال « العباس » : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فهاهو إلا أن رماهم فما زلت أجد حدمهم قليلا . وأمرهم مدبراً (٣) .

ولم يطل وقت ، حتى كان رجال (ثقيف) ومن معهم يُسَوِّغُونَ مولئين الأدبار فإذا هم بِرَوْنِ الأسرى مكثفين !

وفي هذه للفرقة نزل قول الله عز وجل (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) .

• • •

واعتصم بعض المنهزمين بفاحية يقال لها : (أوطاس) .

(١) صحيح ؛ أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب .

(٢) صحيح ، يرد به مسلم (١٦٨ / ٥) عنه .

(٣) رواه مسلم عن العباس .

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في أعقابهم (أبا عامر الأشعري) فقاتلهم حتى قتل فأخذ الراية منه ابن عمه (أبو موسى الأشعري) فما زال يناوش القوم حتى بدد شملهم ، وهزموا شر هزيمة^(١) .

واضطر (مالك بن عوف) ومن معه من رجالات قومه أن يعضوا في القروى حتى يصلوا إلى (الطائف) فيمتنعوا بحصنها تاركين في — هذا الفرار — مقام مائلة .

فإن مالكا — كما علمت — خرج يغزو ، ومعه نساء القبيلة وما تملك .
خلف في الميدان أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأكثر من أربعين ألفاً من النعم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة هذا إلى جانب ستة آلاف من السبي .

الغنم

وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم على الناس هذه الغنائم ، وتأنى .
يتنهي أن يرجع القوم إليه تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا .
ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة فلم يجئهم أحد^(٢) .

فشرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشرف مكة ، وبدأ بقسمة المال فكان المؤلفه قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حظى بالأنصبة الجزلة .
أخذاً (أبو سفيان) مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة فقال : وابن معاوية ؟ ففتح مثلها لابنه معاوية . فقال وابن يزيد ؟ ففتح مثلها لابنه يزيد^(٣) .

(١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق بدون إسناد ، ومعناه في البخاري (٢٣/٨) — ٢٢٥ —
وابن جرير (٣٥١/٢) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٢٦/٨ — ٢٧) .

(٣) ذكره ابن هشام (٣٠٨/٢) نحوه عن ابن إسحاق بدون إسناد رواه ابن جرير (٢٥٨/٢) عنه عن عبد الله بن أبي بكر مرسلًا . وإعطاؤه صلى الله عليه وسلم هذه الفزوة للمؤلفة قزحهم ومنهم أبو سفيان ثابت في مسلم (١٠٨/٣) .

وأقبل رؤساء القبائل وأولو الأئمة ، يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه .
وشاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .
فازدحموا عليه يبيعون الزيد من المال ، وأكب عليه الأعراب يقولون :
« يا رسول الله ، اقسم علينا فيئتنا ، حتى اضطرره إلى شجرة فانزعت
رداءه ! فقال :

« أيها الناس ، ردوا عليّ ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد
شجر نهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما أفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » .
ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرّة ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها فقال
« أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه البرّة ، إلا الخمس ، والخمس
مردود عليكم » ^(١) .

إن أعين القوم تكاد تخرج من المهاجر تطلعا إلى الدنيا .
وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء ، ما أغنوا عن الإسلام شيئاً في مآزق
الأولى بل كانوا هم العقاب الصلدة التي اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت معاول
المؤمنين الراغبين في ثواب الآخرة . المؤثرين ما عند الله .

ولسكنهم اليوم — بعد ما أعلنوا إسلامهم — يبيعون من الرسول أن يفتح
عليهم خزائن الدنيا ؛ فحلف لهم أنه ما يستبقى منها شيئاً لشخصه ، ولو أمتلك ملء
مهنه الأودية مالا لوزّعه عليهم .

والحق أن الرسول وضع بحلمه وكرمه مسالك بينة للطيش والجشع في سبيل
« تألف هؤلاء الناس وتحييمهم في الإسلام » .
ولو عافهم على جبنهم في « حنين » لثال منهم أى منال .

(١) صحيح ؛ رواه أحمد (رقم ٦٧٧٩) والبيهقي (٣٣٦/٦ - ٣٣٧) بسند حسن
عن عبد الله بن عمرو ؛ والبخارى (١٩٣/٦ - ١٩٤) عن جبير بن مطعم إلى قوله
« كذاباً » والباقي عند الحاكم (٤٩/٣) من حديث عبادة بن الصامت ؛ وعند البيهقي
(٣٣٩/٦) من حديث عمرو بن عبسة .

روى الإمام أحمد^(١) أن «أبا طاحنة» — وهو من فرسان المسلمين الملعودين —
لحق «أم سليم» ومعهما خنجر، فقال لها : ماهذا ؟ . قالت : إن دنا مني بعض
المشركين أبعج بطنه — وذلك في معركة حنين — فقال أبو طاحنة لرسول الله :
أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك النبي . فقالت أم سليم : يا رسول الله ، أقتل
من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك ! فقال : إن الله قد كفى وأحسن يأ أم سليم .
والمعجب أن هؤلاء الذين فرُّوا عند الفزع ، هم الذين كثروا عند الطعم :
وشاء النبي أن يلطف معهم ، وينسى ماضيهم تكرماً وتأليفاً .

وماذا يصنع ؟ إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ،
لامن عقولهم فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فيها
حتى تدخل حظيرتها آمنة ! فكذلك هذه الأصناف من البشر ، تحتاج إلى فنون
من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له .

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت
إلى صفحة عاتق رسول الله أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته قال : مر لي
من مال الله الذي عندك ! فالتفت إليه ، فضحك : ثم أمر له بعباءة^(٢) ... إن
هذا الأعرابي لا يعجبه المنطق الدقيق ، ولا الطابع الرقيق ، قدر ما يعجبه عطاء
بملاّ جيوبه ، ويسكن مطامعه .

ومن هنا قال صفوان بن أمية : ما زال رسول الله يعطيني من غنائم «حنين»
وهو أبغض الخلق إليّ ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه^(٣) .

(١) في المسند (١٩٠/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم .

(٢) صحيح ، أخرجه مسلم (١٠٣/٣) وكذا البخاري .

(٣) رواه مسلم (٧٥/٧) والترمذي (٢٤/٢) وأحمد (٤٠١/٣) عن سعيد —

حكمة هذا التقسيم

وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر ، بل أطلقت السنة شتى بالاعتراض ، فقال مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأسرهم . روى البخارى عن (عمرو بن تغلب) قال : أعطى رسول الله قوما ومنع الآخرين ، فكأنهم عتبوا عليه فقال : إني أعطى قوما ، أخاف منهم وجزعهم وأكل قوما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم (عمرو بن تغلب) قال عمرو : فما أحب أن لى بكلمة رسول الله حمر النعم . .

فمكانت هذه التزكية تطيبها لخاطر الرجل . أرجع لديه من أئمن الأموال . وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة .

لقد حرموا جميعاً أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تبدل القرار انتصاراً ، وهام أولاء ، يرون أيدي الغارين تعود ملأى .

أما هم . . فلم يمنحوا شيئاً قط ؟

عن أبي سعيد الخدرى : لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين ، وقسم للثألفين من قریش وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن فى الأنصار شيء منها ، قليل ولا كثير ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه . فشئى (سعد بن عباد) إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك فى أنفسهم ؟ قال : فيم ؟ قال فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شيء . قال رسول الله : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

== ابن المصنف أن صفوان بن أمية قال : كذا هو عند مسلم وظاهره الانقطاع بين سعيد و صفوان ؛ وعند أحمد والترمذى عن صفوان « وظاهره الاتصال . ولكن الترمذى رجح الأول وأيده ابن العربى فى الممارسة فقال : « لأن سعيداً لم يسمع من صفوان شيئاً » .

فقال رسول الله : اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ، فإن اجتمعوا فأعلمنى !
 فخرج « سعد » فصرخ فيهم فجمعهم فى تلك الحظيرة ...
 حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أئامه ، فقال : يا رسول الله اجتمع
 لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم .
 فخرج رسول الله ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال
 يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله
 بين قلوبكم ؟؟ قالوا : بلى ! قال رسول الله : ألا تنجيون يا معشر الأنصار ؟
 قالوا : وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك ؟ لمن الله ورسوله .
 قال : والله لو شئتم لقامت فصدقم وصدقتم : جئناكم طريداً فأويناكم ، وعائلاً فأسبناكم
 وخائفاً فأمناكم ، ومخذولاً فنصرناك ...
 فقالوا : لمن الله ورسوله .

فقال : أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً
 أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام !! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن
 يذهب الناس إلى رحالم بأشاة والبيعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟
 فوالذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً ،
 لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .
 اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .
 فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم . وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله رسلاً .
 ثم انصرف ... وتفرقوا ... (١)

(١) حديث صحيح ؛ رواه أحمد (٣/٧٦ — ٧٧) وابن هشام (٢/٣١٠ —
 ٣١١) وابن جرير (٢/٣٦٠ — ٣٦١) كلهم عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن
 أمى سعيد الخدرى . وذكره ابن كثير فى «البداية» (٤/٣٥٨ — ٣٥٩) من رواية
 يونس بن بكير عن ابن إسحاق والسياق له ثم قاله ابن كثير : « وهو صحيح . والقصة
 فى البخارى (٨/٢٨ — ٢٩) بنحوها مختصراً .

والأنصار - في تاريخ الدعوات - مثل فريدة الرجال الذين تقوم بهم الرسائل العظمى حتى إذا امتوت على سوقها ، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها ، وتدلّت ثمارها وحلا جناها ، جاءت أيد غير أيديهم فقطعت ما تشهى ، ولم تكثف بذلك ! بل لعامت أيدي الفارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة قليلا ولا كثير ! !

ولا نقول ذلك تعليقا على توزيع الغنائم في هذا المقام ، فقد اتضح وجه الرشدي هذه القسمة الحصينة ...

ولكننا نذكر في مناقب الأنصار ، وافتراض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه ، أن شئون الحكم ابتعدت عنهم ، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاء . فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء .

ولا ريبه في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى ، وأن شأن

الدنيا أنزل قدرا من أن يأمن عليه رجل العقيدة :

غير أننا نتساءل : أكان من مصلحة الرسائل نفسها أن تقع هذه الأثرة ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكم ، فيقصي أصحاب السبق وأولو النصرة ، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرأ به ؟

عودة وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردهم سيبهم وثروتهم ! فقال لهم : إن معي من ترون ، وإن أحب الخديث إلى أصدقاه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا .

فقام رسول الله في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سيبهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول

مال بقاء الله علينا فليقبل ، فقال الناس : قد طيبتنا ذلك يا رسول الله ، فقال لهم إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .
فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ، ثم عادوا إلى رسول الله يخبرونه أنهم قد طيبتوا وأذنوا^(١) .

حصار الطائف

أما تنقيف فإنها — بعد أن تراجعت منهزمة في «حنين» و «أوطاس» — دخلت حصونها وتهايت فيها لحصار طويل . وعرف المسلمون أن القوم لا يزالون على إصرارهم والبقاء على جاهليتهم ، وأن الحسائر التي لحقت بهم لم تنكسر شوكتهم ولم ترهق عزيمتهم ، فقرروا السير إليهم ومناجرتهم ، وللمسلمين خبرة قديمة بهذا الأسلوب من القتال ، فقد حاصروا وحوصروا ، وعرفوا أنجح طرائق الهجوم والدفاع ونهض رسول الله يبحثه حتى اقترب من الطائف فمسكر حوها وأخذت تنقيف من حصونها تقذف بالنبال فأصيب نفر من المسلمين ، واضطر الجيش أن يؤخر مواقفه حتى لا يستهدف لقتلهم .

ويظهر أن النبي لم يحرض على اقتحام الحصون واستنزال أهلها قسراً كما فعل بني إسرائيل . لقد أمل فيهم خيراً . وأدار المعركة حولهم من حدود ضيقة وبضحايا يسيرة وظل يحاصرهم خمس عشرة ليلة . ثم بدا له أن يدعمهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين بذلك . فرغبوا أولاً في إطالة حصارها حتى تنفج عليهم ثم نزلوا — أخيراً على رأيهم .
وروى : أن رسول الله استشار نوفل بن معاوية فقال : يا نوفل . ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال . يا رسول الله . ثعالب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته

(١) صحيح أخرجه البخاري (٢٦/٨ — ٢٨) عن مروان والسور بن مخرمة معا

لم يضر ك^(١) ! فأمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل^(٢) .
فلما قفلت بهم المطايا ، قالوا : يا رسول الله ، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم .
فقال : اللهم اهد ثقيفاً^(٣) ! ..

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها . فاهى الأشهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم
إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الاسلام وانفساح قلوبهم له .

إلى دار الهجرة

عاد المسلمون من الطائف إلى مكة ، لاليعاودوا المقام فيها بعد أن فتحها الله عليهم
بل لينظموا أمور هاتم يرنحلوا إلى مهجرهم الخالد ...

إن صلتهم بالمدينة أمنت من العمق والقوة ، بحيث لا يرجحها وطن قديم
ولاذكريات عزيزة

روى أن النبي لما فتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو ، وقد أحذقت به
الأنصار فتهامسوا فيما بينهم : أنزول رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم
بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ! فلم يزل بهم
حتى أخبروه فقال . معاذ الله ، الهيا محياكم ، والمات مماتكم^(٤) !

(١) ضعيف جداً ، رواه الواقدي كما في « البداية » (٤٠٠/٤) وهو منهم بالكذب .
(٢) ضعيف ذكره ابن هشام (٣٠٣/٢) عن ابن إسحاق بلاغاً ، ورواه ابن لهيعة
عن أبي الأسود عروة . وهو مع إرساله ضيف .

(٣) ضعيف ، أخرجه الترمذي (٣٧٩/٣) عن أبي الزبير عن جابر وقال : « حديث
حسن صحيح » قلت أبو الزبير مدلس وقد عنفنه ، وقد تابعه عبد الرحمن بن سابط عند
أحمد (٣٤٣/٣) ولكنه لم يسمع من جابر ، كما قال ابن معين .

(٤) حديث صحيح رواه بهذا السياق ابن هشام بلاغاً ، ووصله مسلم (١٧٠/٥) —
(١٧١) وغيره من حديث أبي هريرة نحوه . فتصديقه بلفظ . « روى » غير جائز .

ولما كان أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام وفقههم في أحكامه ومراميه قليل ،
فإن النبي خلف فيهم (معاذ بن جبل) يعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ^(١) .
وجعل (عتاب بن أسيد) أميراً على مكة ^(٢) وهرمه يومئذ عشرون سنة .

وكان (عتاب) شاب زكياً ، قنوعاً شجاعاً ، وقد تقرر له من مال المسلمين
درهم كل يوم ، هو مرتب الإمارة ، فقرت بذلك عينه ، بل إنه خطب الناس فقال :
أيها الناس ، أجاع الله كبدي من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله درهماً كل
يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد ..

. . .

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة
لله ما أفسح للمدى بين هذه الأوبة للظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين وبين
مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام !

لقد جاءه مطارداً ، يميني الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الایلاف والایناس
فأكرم أهله مثواه ، وآووه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا

(١) ضعيف ، ذكره ابن هشام (٢ / ٣١١) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ورواه
الحاكم (٣ / ٢٧٠) عن عروة مرسلاً ، وإسناده — على إرساله — ضعيف . وقد روى
ابن عبد البر في ترجمة معاذ من « الاستيعاب » بإسناد صحيح عن عبد الله ابن كعب بن
مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذاً إلى اليمن عام فتح مكة . وهذا مرسل أيضاً
فإذا صح فيكون إرساله بعد استخلافه في مكة والله أعلم .

(٢) إلى هنا حديث حسن ذكره ابن هشام وابن جرير (٢ / ٣٦١ — ٣٦٢) عن
ابن إسحاق بدون سند ، ورواه الحاكم (٣ / ٥٩٤ — ٥٩٥) عن مصعب بن عبد الله
الزبيري معضلاً . وعمر بن شبة في كتب مكة عن عمر مولى عفرة معضلاً أيضاً والمحاملي
في الجزء الخامس من « الأمل » عن أنس بن مالك بسند ضعيف ، ولكنه يتقوى بما قبله
إن شاء الله ، وأما باقي الحديث ، فلم أجده مستنداً وإن كان مشهوراً .

بعداوة الناس جميعاً من أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجراً خائفاً للمستقبل مرة أخرى . وقد دانت له مكة ، وأقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها ، فأنهضها ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئتها الأولى .
(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) ..

موقف المنافقين

وكان حقيقاً بالذين خالفهم الربة في رسالة محمد أن يتوسموا في هذه الآيات البينات ما يقربهم من دينه . ويفرهم بالتصديق ونبذ الجفوة والعناد .
إلا أن النفوس الخسيسة تزداد شراً وجحوداً كلما ازداد خصومها نجاحاً ووصوداً .

فا تظنه سبب إقبالها ، قد يكون سبب انتكاسها .
لذلك لا يستغرب أن يرجع رسول الله إلى المدينة ، فيجد قلوب المنافقين لا تزال مطوية على دخلها تهتم للفاتح العائد ، وهي تود لو لم تر شبحه . يستوى في ذلك رؤساء العشائر الذين وهمى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ، وسواد الأعراب الذين يمرحون في البادية كالسوائم الغفل ، لا يكادون يفقهون حديثاً .
وتم أمر آخر زاد في غواية المنافقين وتربصهم الشر بالإسلام ونبي الإسلام ، ذلك هو عرفانهم بالخصومة التي نشبت بين المسلمين والرومان ، وإدراكهم لما تحمله في أطوائها من خطورة وعنف .

فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل أفريقيا اليوم إلى أوروبا وأمر يكا ،
لأنها قوة لا تنال ولا تناوش .

ولئن كان الرومان بهذه المثابة المرهوبة إن محمداً — كما عرف القوم من سيرته — لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، وقد مضى برسالاته يذيب ما اعترضه من عوائق ، فحيا الوثنية ، وأجلى اليهودية ، وقاوم بطش الروم مقاومة الواثق المعتد .

والمناققون مسرورون بهذه الخصومة الجديدة ، يحسبون أن مقبرة الإسلام ،
ستحفر فيها ..

لذلك لما أعلن النبي في المدينة أنه منطلق إلى « تبوك » تجمع رهط من المناققين
فقال بعضهم لبعض - مشيرين إلى المسلمين - اتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال
العرب بعضهم بعضاً ؟

والله لكانا بكم غداً مقرنين في الجبال ... إرجافاً وترهيباً للمؤمنين !!

تبوك

عزم النبي أن يرسي العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة .
وهو لا يقبل مساومة في ترك دعاته أحراراً يعرضون دينهم على الناس ، فإن
راقهم دخوله وإن ساءم تركوه .

يجب أن تتاح الفرص الموقولة لإفهام الجماهير ما تدعى إليه .
أما أن تقطع أعناق الدعاة وتقام الأسوار السكتيفة في وجوههم ، فهذا
ما يقاومه الإسلام بالقوة .

ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة
لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلات القهر المادى والأدبى .

فالقذى يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك : لم
سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التى يباشرون بها حكم
هذه الأقطار المغلوبة على أمرها ؟

والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبي شيئاً لا غبار عليه .

دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها ، وتجذب الشعوب إليها ، أو تصرفهم
عنها .. لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح .

فلادولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن القرائن التى تضطرب داخل جدرانها .

ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .

قلنا في كتابنا : « التمسب والتسامح بين المسيحية والإسلام » في صدد غزوة تبوك :

« ... والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع الثافمة ، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر ساطة رجالها ؟ لأنه - لا يرى بين العباد نور بهم ومائط - وينكر عقيدة الفداء التي ترتكز عليها - لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده - .

فليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم هو ينكر مبدأ الشراكة في الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد ، يخضع له عيسى وأمه ..

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء ، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها . وتضمن الكنيسة بعدئذ انفرادها بالضمير البشري ، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الساكر ، وتاريخ الصراية - منذ تولت الحكم - يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت ..

فلم ير النبي بدأ من استنفار المسلمين ، لملاقاة هذا العدوان المبيت .

والتهيب للملاقاة الروم ، جاء في أيام قيظ وقحط .
والسير إليهم يتطلب جهداً مضنياً ونفقة كبيرة .

وقتل الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة ، بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط ساطانها على جملة قارات ، وتملك موارد ثرة من الرجال والأموال . على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب ، والسكوت عن إحدى النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه يعتبران انتحاراً وبواراً فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذا وليوا جهوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وقديات .

والظروف العصيبة التي اكتنفت لإعداد هذا الجيش سعى جيش العسرة .
والآيات التي أنزلها الله في كتابه — متعلقة بغزوة العسرة — هي أطول ما نزل
في قتال بين المسلمين وخصومهم .

وقد بدأت باستنهاض المم لمرد هجوم المسيحية على الإسلام ، وإفهام المسلمين
مغبة تقصيرهم في أداء هذه الفريضة ، وإشـارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تقريط
في حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصنونات الحائلة — دون قتال
الروم — يعتبر مزلة إلى الردة والنفاق .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ، إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا ۚ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنف ، ففضحت المنافقين ، وكشفت
عن المترددين . وأهانت طلاب الدعة والراحة ، الذين آثروا ظل القعود في
بيوتهم وحقولهم ، على حر الصحراء ، ووعناء السفر ، ومتاعب الجلال .
(فَرِحَ الْخَلَفَاءُ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالُوا : لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ : نَارُ
جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) .

وأنبأ جيش العسرة تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة .
ولعل من الذين في أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد ، أنه لم تأخذ هـوادة
في التنويه بمن اشتركوا فيه ، والتنديد بمن تخلفوا عنه ، ولا عجب ، فتجديد موقف
الإسلام من النصرانية ، هو بت في مستقبل الدين كله إلى الأبد .
فإنما ثبت المسلمون أمام لد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نارها ، فلم يبق
لدينهم أثر .

وكان لهذا الحزم أطيّب التثج ، فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها ، وانطلقوا صوب الشمال ، حيث تربض جيوش الروم

* * *

وتجلت - في هذا الإعداد - طوايا النفوس ، ومقدار ما استودعت من قبل إخلاص وسماحة ونشاط ، فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته ، من الرواحل والسلاح والخيل ، منهم « عثمان بن عفان » الذي سبق في بذله سبقا بعيداً ، حتى أن الرسول عجب من كثرة ما أنفق ، وقال : « اللهم ارض عن عثمان فأني عنه راض »^(١) .

ومنهم الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم في سبيل الله ثم أعجزتهم الوسائل التي تبلعهم الميدان فسحّت أعينهم الدمع لهذا الحرمان .

روى عن علي بن يزيد أنه قام من الليل يصلي ، فتهجد ما شاء الله ثم بكى وقال : اللهم إنك أسرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ... وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلة أصابني فيها في مال ، أو جسد ، أو عرض ...

وأصبح الرجل - على عادته - مع الناس فقال رسول الله : أين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يرق أحد ، ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم ، فقام إليه فأخبره .

(١) ضعيف بهذا اللفظ ؛ رواه ابن هشام (٣١٦ / ٢) بإسناد معضل ، وقد رواه ابن شاهين في كتابه « شرح مذاهب أهل السنة » (ج ١٨ رقم ٢٣ من نسختي) من حديث عائشة لکن فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بهذا في مناسبة أخرى . وسنده ضعيف جدا ، بل موضوع ولما قال صلى الله عليه وسلم بمناسبة جيش العسرة : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » رواه ابن شاهين رقم ٣ والخامس (٣ / ١٠٢) وغيرها من حديث عبد الرحمن بن سمرة ، وصححه الحاكم . ووافقه الذهبي ! وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير في تاريخه (٦ / ٥) ، وآخر عند ابن شاهين (رقم ٦١) .

فقال رسول الله : « أبشر ، فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة (١) » .
وهناك أهل الريبة الذين يلتمسون للفرار الأعذار ، وتقعدهم بهم وكرامتهم
الإسلام عن إصداً أي عون له ، فمهمات أن يُعدوا للخروج عدة ، أو يقيموا
للخارجين عوداً .

ومن أسخف الأعذار التي تحملها أولئك القاعدون المنافقون ما قال الجد بن
قيس للنبي — وقد عرض عليه الجهاد — يا رسول الله أو تأذن لي ولا تقتني ؟
فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني ، وإنني أخشى إن
رأيت نساء بني الأصفر « الروم » ألا أصبر .
فأعرض عنه رسول الله (٢) وفيه نزلت الآية .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَقْتْنِي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنْ
جَهَنَّمَ لَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) .

وهناك الذين فترت — أول الأمر — همهم ، فلما جدَّ الرحيل وانطلق
الجيش ، أحسوا خطر التخلف على إيمانهم ، فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم
منهم « أبو خيثمة » عاد يوماً إلى أهله — بعد مسير النبي وصحبه — وكان اليوم
قائظاً ، فوجد امرأته كاتمتها ، قد أعدت له الطعام الشهى والماء البارد الروي ،
ووجد مسكنه مبللاً رطباً ، وسط بستانه الذي أخذ بُسرهُ الأحمر ينضج ويسودُّ .
فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله في الشمس والريح والحر ،
وأبو خيثمة في ظل بارد ؟ وطعام مهيباً ؟ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ والله ما هذا
بالنصف . !

(١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق في « المفاري » بدون إسناد . وقد ورد مسنداً موصولاً
من حديث مجمع ابن حارثة وعمر بن عوف وأبي عيسى . وعليه بن زيد نفسه وفتية كما
بينه الحافظ في « الإصابة » فليراجعها من شاء .

(٢) ضعفه رواه ابن هشام (٣١٦/٢) عن ابن إسحاق بسند مرسل . وكذلك
رواه عنه ابن جرير (٣٦٦/٢ - ٣٦٧) .

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فمينا إلى زادا ففعلنا ، ثم قدم ناضحه فارتحل .
واسرع الرجل المؤمن ، يطلب رسول الله ، حتى أدركه حين نزل تبوك .

* * *

وعانى الجيش الذهاب إلى تبوك مصاعب ثقيلة ، روى الإمام أحمد في تفسير قول الله عز وجل (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) . قال خرجوا في غزوة « تبوك » الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وخرجوا في حر شديد ، وأصابهم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفصوا أكراشها ، ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة في الماء ، وعسرة في النفقة ، وعسرة في الظهر .

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع . حتى إن الرجل لينحز بعيره فيعتمر فرثه فيشربه . ثم يجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع رسول الله يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أى آذنت تمطر - فأطلت ، ثم سكبت فلأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجد لها جاوزت العسكر ^(١) .

(١) ذكره ابن كثير في التاريخ (٩/٥) من رواية عبد الله بن وهب بسنده عن ابن عباس ، ثم قال : « إسناده جيد » وهو عذى غير جيد لأنه من رواية عتبة بن أبي عتبة . وقد ذكره الحافظ في « اللسان » (١٢٩/٤) وذكر أن العقيلي أوردته في « الضعفاء » ثم ساق له حديثين ثم قال : « ولا يتابع على الحديثين جميعاً » . ثم قد أورد الحديث المهيمن في « المجمع » (٦١ / ١٩٤ - ١٩٥) ثم قال : رواه البزار والطبراني في الأوسط : و « رجال البزار ثقات » فإذا صح هذا - فالحديث حسن إن شاء الله أو صحيح .

قال ابن اسحاق : وكان في الجيش رجل منافق فقالوا : ويحك هل بعد هذا من شيء ؟ فقال : صحابة مارة !

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت تمود تسكنها وهي أطلسال هامة وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا رسله وتعبجوا عقابه فقال رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تسكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم » .

والظاهر أن النبي يريد ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات فإن المرء لو قبض الله له أن يزور السجون ، ويشهد مثلاً غرفة الإعدام — فليس يليق أن ينظر إلى حبل المشنقة وهو شارد أو ضاحك لا أقل من بعض الأمي لأحوال المجرمين ومصارعهم !

وروى أحمد عن جابر لما مر النبي بالحجر قال : لا تسألوا الآيات — خوارق العادات — فقد صالها قوم صالح ، فبعث الله لهم ناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، ففتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهد الله بها من تحت أديم السماء منهم ... » (٢)

(١) صحيح أخرجه أحمد (رقم ٥٢٢٥ ، ٥٢٤٣ ، ٥٤٠٤ ، ٥٤٤١ ، ٥٦٤٥ ، ٥٧٠٥ ، ٥٩٣١ ، ٥٦١) من حديث ابن عمر وهذا أحد الألفاظ ! وأخرجه البخاري (١٠٢/٧) ومسلم (٢٢١/٨) نحوه .

(٢) في المسند (٤ / ٢٩٦) من طريق عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر . وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه (١١/٥) : « إسناده صحيح » وكذلك صححه الحاكم من هذا الوجه (٢ / ٣٤٠ — ٣٤١) ووافقه الذهبي . واقتصر الحافظ في « الفتح » (٦ / ٢٩٤) على تحسينه وهذا أقرب . وفي كل ذلك عندي نظر ! فقد تملنا منهم أن أما الزبير مدلس وأنه لا تقبل روايته المعتمدة إلا إذا كانت من رواية الليث بن سعد عنه وهذه ليست منها ! وقد قال الذهبي : « وفي صحيح مسلم عدة أحاديث لم يوضح فيها أبو الزبير السماع عن جابر ولا هي من طريق الليث منه . ففي القاب منها شيء » قلت : فكيف يصح إذن ما ليس منها في صحيح مسلم كهذا ؟ !

والنهي عن سؤال الآيات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة، إذ لا جدوى
في الخروج عليها وخير للسائلين أن يبذلوا طاقتهم في أداء وما يكلفون به، وأن
يرققوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله .
فإن من قبلهم شهد العجائب، ثم أغرتهم قسوة القلب بازدرائها، فحقت بهم
العنة .

وبلغ المسلمون «تبوك» فلم يجدوا بها كيداً . أو يواجهوا عدواً
ولا بد أن الروم آثروا الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقات هذه القوة الفتية
وصالح النبي متفصرة العرب الضاربين في هذه الأرجاء .
تدخل في عهده أهل «أيله» و «أذرع» و «تباء» و «دومة الجندل» وأيقنت
القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على ماداتها الأقدمين قدفأت أوانه .
وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب، فإن بلاء المسلمين أولها كان شديداً . ثم
جاء ختامها طمأنينة وعزة ومكث الرسول هنالك بضعة عشر يوماً، يمد بصره
وراء الصحراء حيث اختفى الرومان، يرقب منهم أي حركة، فلما رأى القوم قابعين
مستكينين، قرر أن يقفل عائداً إلى المدينة، موفوراً منصوراً .
وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ولاحت له معالمها من بعيد . فقال :
هذه طابة ! وهذا «أحد» جبل يحبنا ونحبه^(١) ! وتسامع الناس بقدمه فخرج
النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

لقد قوبل جيش العسرة في مرجعه هذا بمحاوثة بالغة . إنه أكبر جيش خرج مع
رسول الله، إذ وصل تعدادُه نحو الثلاثين ألفاً ولم ينس النبي في ذهابه وإيابه أصحاب
القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغبين والعبرات غملاً
(١) صحيح . أخرجه الشيخان وغيرهما .

عيونهم عن أنس بن مالك : أن رسول الله رجع من غزوة تبوك ، فدنا من المدينة فقال : إن في المدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، فقالوا يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ . قال : وهم بالمدينة ، حسبهم العذر ^(١) .

بهذه المواساة الرقيقة كرم النبي الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاح همّاً ثقيلاً عن أفئدتهم .

أما المناقون من مؤملى الشر ودعاة الهزيمة ، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نسكة حلت بهم ، فهم يتربصون الدوائر بأهله أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل .

المخلفون ^(٢)

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فجاء المخلفون ، فطفقوا يمتدرون إليه ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم . ووكل سرائرهم إلى الله .

وجاءه « كعب بن مالك » فلما سلم عليه ، تبسّم تبسّم الغضب ؛ ثم قال له : تعال . قال : فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلقت ؟ ألم تكن قد ابتمت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله ، إن لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً . ولكني والله ، لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علي ، ليوشكن الله أن يسخطك علي . وأن حدثتك حديث صدق مجد علي ، فإني لأرجو فيه عفو الله عني .

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٠٣/٨)

(٢) هذه الرواية من خلاصة زاد الماعاد .

والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله
فيك . فقامت .

وثار رجال من بني سلمة ، فاتبعوني يؤنبوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت
أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بما اعتذر إليه المخافون ، فقد كان كافيك ذنبك ، استغفار رسول الله صلى الله
عليه وسلم لك قال : فوالله ما زالوا يؤنبوني ، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .
ثم قلت لهم : هل لقي هذا معنى أحد ؟ قالوا . نعم رجلان ، فالأمثل ما قلت فليل
الهما مثل الذي قيل لك ، فقلت . من هما ؟ قالوا « مرارة بن الربيع العامري » و « هلال
بن أمية الواقفي » فذكروا رجلين صالحين شهدا بدرأ ، فيهما أسوة !! .

فمضيت حين ذكر وهما لي .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا - نحن الثلاثة - من بين
من تخلف عنه .

فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي الأرض ، فما هي باتي أعرف ا
فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان .
وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلهم ، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين
وأطوف في الأرواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم
عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة . فأقول في نفسي ، هل حرك شفيعي برد السلام أم لا ؟
ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلى ، وإذا التفت
نحوه ، أعرض عني .

حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط

أبي قتادة - وهو ابن عمی وأحب الناس إلی - فسألت علیه ، فوالله ما رد علی السلام !!
فقلت : یا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلمنی أحب الله ورسوله ؟ فسكت .
فعدت له ، فنشدته فسكت فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم !

ففاضت عینای ، وتولیت حتی تسورت الجدار .
فبینما أنا أمشی بسوق المدينة . وإذا نبطی من أنباط الشام من قدم بالطعام بیعته
بالمدينة یقول : من یدل علی « كعب بن مالك » ؟ فطلق الناس یشیرون له حتی
إذا جاءنی دفع إلی کتاباً من ملك غسان ، فإذا فیہ : أما بعد فإنه بلغنی أن
صاحبك قد جفك ، ولم یجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك » .
فقلت لما قرأتها - : وهذا أيضاً من البلاء ، فقیمت بها التئور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسین إذا رسول الله صلى الله علیه وسلم
یأتینی فقال : إن رسول الله صلى الله علیه وسلم یأمرک أن تعزل امرأتک ، فقلت :
أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، ولكن اعزلها ولا تقر بها .

وأرسل إلی صاحبی مثل ذلك . فقلت لامرأتی : الحق بأهلك . فکونی
عندهم حتی یقضی الله فی هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمیة ، فقالت یارسول الله : إن هلال بن أمیة شیخ
ضائع لیس له خادم ، فهل تکره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا یقر بک قالت :
إنه - والله - مابه حركة إلی شیء . والله ، ما زال یبکی ، منذ کان من أمره
ما کان ، إلی یومه هذا .

قال « كعب » : قال لی بعض أهلی : لو استأذنت رسول الله صلى الله علیه وسلم
فی امرأتک كما أذن لامرأة هلال بن أمیة أن تخدمه ؟ فقلت : والله لا استأذنت فیها
رسول الله صلى الله علیه وسلم ، وما یدرینی ما یقول رسول الله صلى الله علیه وسلم إذا
استأذنته فیها وأنا رجل شاب ؟ ولیت بعد ذلك عشر لیال ، حتی کلمت لنا خمسون
ليلة من حین نهی رسول الله صلى الله علیه وسلم عن کلامنا .

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، على سطح بيت من بيوتنا ، وبيننا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى ، قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر !

فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله عليهم فصرخوا ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون . وأركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على ذروة الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزلت له ثوباً فكسوته إياهما يبشراه ، والله ما أملك غيرهما ، واستمرت ثوبين فلبستهما ، فأنطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقاني الناس فوجافوا ، يهتفون بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، وحوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولست أنساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : — وهو يبرق وجهه من السرور — : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أهو من عندك يا رسول الله ، أم من عندك الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

قال جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال أمسك عليك بعض مالك ، فمرو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير .

قلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق . وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ما أبلاني ، والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومى هذا كذبا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، فأنزل الله تعالى على رسوله (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) إلى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) فو الله ما أنعم الله على نعمة قط — بعد أن هداني للإسلام — أعظم في نفسى من صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال : (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ) إلى قوله (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) .

قال كعب : وكان تخلفنا — أيها الثلاثة — عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) . وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمورنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .^(١)

مسجد الضرار

سلك النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعذارهم — وهى مختلفة — ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلقون من قيود السمع والطاعة . فإذا تلبس أحدهم بخيانه تهدر دمه ، رغب

(١) صحيح أخرجه البخارى (٩٢/٨ - ١٠٠) بطوله وكذا مسلم (١٠٦/٨ - ١١٣)

في التجاوز عنه حتى لا يقال : إن محمداً يقتل أصحابه وما هم في صحبته من شيء .
ولكن هكذا يقول الناس .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير ، لأسرهم هذا الحلم وانخلعوا
من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين بيد أن هذا الأسلوب
العالى في معاملتهم لم يزدحم على الله ورسوله إلا جرأة فزاد افتياتهم وربت
شرورهم ، ولم يبق بد من كشف خبيثهم ، وإشهار جمهور الأمة بما تنطوى عليه
نفوسهم وأعمالهم .

وقد نزلت الآيات أخيراً تندد بما فعل أولئك المنافقون ، وتمزق الأستار
التي يقوارون خلفها ، وكانت الأعيهم قبل « تبوك » وبعدها هي النهاية
الحاسمة للسماحة التي مرحوا في سعتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها . فأمر النبي
صلى الله عليه وسلم أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم وكسّف الأيقبل
منهم وألا يصلى عليهم ، بل عرّف أن استغفاره لهم أن يجاب ، ثم طوبى المسلمون
كافة أن يقطعوهم .

ومن أعجب ما تفتت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً يأتقون فيه وحدهم ،
ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار النجم على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول قبل
رحيله إلى تبوك يقولون له بنيينا مسجداً لذى العلة والحاجة واليلة المطيرة ومحب أن
تأتينا فتصلى لنا فيه ؟ فاعتذر لهم بأنه على جناح سفر وحال شغل . وقال لو قدمنا
— إن شاء الله — أتيناكم ؛ فصلينا لكم فيه ^(١)

فلما آب النبي صلى الله عليه وسلم بحيشه ، وتخرج موقف المنافقين وانكشفت
خباياهم ، أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد وأمرهم أن يحرقوه ويهدموه ،

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٣٣٢/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لا كثر ذكره
ابن كثير في التفسير (٣٨٨/٢) من ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله
ابن أبي بكر وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم مرسل . والله أعلم .

وجاء الأصحابان إلى المسجد يحملان الشعل الحارقة وأخذا يأتیان عليه ، وفيه أهله الذين فروا مذعورين لمرأى اللهب ، يدمر آخر ماشاء النفاق من حيل .
ونزل قوله تعالى : (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وإيجلُنَّ إنَّ أردنا إلا الحسنى . والله يشهد إسمهم الكاذبون ه لا تقم فيه أبداً * لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ...)

طلیعة الوفود

استغرق المسير إلى تبوك والمآب منها أياماً طويلاً ، فقد خرج المسلمون إليها في رجب ، وعادوا في رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام ، ولم يلبثوا طويلاً حتى جاءت البشريات بأن وفد ثقيف قدم إلى المدينة ليغـاوض رسول الله على الدخول في الإسلام ، لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلس قيادهم للحق فيأتوا طائعين ، وكان أهل الطائف — بعد أن انقض الحصار المضروب عليهم — قد أخذوا يترؤن في شأنهم ومصيرهم ، إلا أن جمهورهم لما يزل على ولائه للأصنام وصدوده عن الاسلام .

وحاول رئيسهم « عروة بن مسعود » أن يتحدث إليهم في نبذ هذه الجاهلية ، وعروة فيهم سيد مطاع محبوب ، غير أن نحوه الامتناع استبدت بهم ، فلما أظهر الرجل دخوله في الإسلام ودعاهم إلى ذلك ، رموه بالنبل فقتلوه .. ولم يئأس العقلاء من رشد قومهم ، ولم تستطع ثقيف كذلك تجاهل ماحولها ، فإن دولة الأصنام تدبر في كل مكان . وأمر الإسلام يعلو يوماً بعد يوم .

فاجتمع عمرو بن أمية بـ « عبد ياليل بن عمر » وقال له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبعث وفدًا إلى رسول الله ليصل إلى وضع تفرق به ،
وتألف الوفد من ممثلين لعشائر ثقيف كلها ، حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط .
وجادل الوفد رسول الله جدالًا طويلًا ينبغي أن يظفر منه بإقرار لبعض مآثر
الجاهلية ، ورسول الله يأبى أشد الإباء . وطلبوا منه أن يدع « اللات » ثلاث سنين
ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر واحد بعد مقدمهم ، والنبي
يأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين .

فلما يتسوا سألوه ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، أجابهم إلى ذلك بإرسال من
يكسرها لهم ! .

وسألوه أن يضع عنهم الصلاة ! فقال رسول الله : لا خير في دين
بلا صلاة^(١)

• • •

وعاد الوفد إلى الطائف ، ومعه المغيرة بن شعبه وأبو سفيان بن حرب ليهدما
« اللات » وكان هدم « اللات » يومًا مشهودًا ، فان نسوة ثقيف خرجن حاسرات
الردوس يبيكين ويصرخن وهن يرين الفئوس تهدم المهن ، وطالما خشعن له وذبحن
حوله وسقن له النذور ، وبروى أن المغيرة كلما هوى بالقأس على بنيان الصنم قال
أبو سفيان واهالك ! آهالك ! تأسفًا ولعله كان يسخر أو يواسي نساء ثقيف . .
ولامراء في أن استسلام ثقيف ثم دخولها الاسلام يُعدُّ كسبًا كبيرًا ،
وفتحًا جديدًا فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .
أما القبائل التي لم تنزل على جاهليتها . فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق
وتستريح له . إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل تبشير الفجر قد خالطته
هنا وهناك حتى لم يبق لظلمته مكان تتشبث به .

(١) ضعيف ، ذكره ابن هشام (٢/ ٢٢٥-٣٢٦) عن ابن إسحاق معضلا ، والجملة
الآخيرة وصلها أبو داود (٤٢/ ٢) وأحمد (٥/ ٢١٨) عن الحسن بن عثمان بن أبي العاص
مرذوعا نحوه . ورجاله ثقات لكن الحسن وهو البصري مدلس وقد عتقته .

قال ابن إسحاق : لما انتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبليعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإذ كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهادبهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل - وقادة العرب لا ينكرون ذلك - وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله وخلافه .

فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه .

يقول سبحانه وتعالى لنبىه (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ه وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ه فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

بعدكم من السنين بلغ النبىُّ هذه المرحلة ؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة ، والتذكير الدائم ، وتحمل الأذى ، وكفاج العدوان ... فإن كانت هناك بقايا من العاقلين لاتزال تضرع الأصنام وتحيا على القوضى ، فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذواب امرأة ، ومن ثم اتجه الإسلام إلى ضرورة تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان ، وإشعار المشركين بأن أمامهم مهلة محدودة للتخلص من أدرانها .. ثم تعرفهم كذلك بأن الأصنام التى كانوا يقصدونها حول الكعبة قد أزيلت فأصبحت الكعبة قبلة مسجد يؤمه الموحدون ، وليست مطاف جهال يتبركون بالحجارة ، وأن تقاليد العُرى التى شاعت فى الجاهلية جعلت المطاف يزدحم بالسوءات المكشوفة قد نبذها الإسلام ، فإن يسمح فى عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج فى السنة الثامنة ، والمشركون على ما أفوا ، منهم يؤمنون بالبيت العتيق ، ولا يتعطلون من مصير الأصنام التى تكسرت ! أين الآلهة التى

قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ! لقد هُشمت ودبست ! ومع ذلك فإن عبادها لبثوا مشركين . . . وقد تكون في نفوسهم حسرات لخلو الكعبة منها إن من حق المسلمين أن يعضوا حداً لهذه الممازلة ، وأن يزيحوا عن كرامة البشر هذا الموان .

حج أبي بكر

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحج ليقم بالمسلمين المناسك ، فخرج من المدينة يسوق البدن أمامه ، موايا وجهه شطر المسجد الحرام ، ونزل الوحي بسورة براءة بعد انصراف أبي بكر ووفد الحبيج ، فأشير على رسول الله أن يبعث بالآيات إليه ليقراها على أهل الموسم كافة . . .

ورأى رسول الله أن يرسل بها على بن أبي طالب قائلاً : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتي ^(١) ، وذلك من رسول الله تمسُّ مع عادة العرب في عهد الدماء والأموال .

الأتري أنه قبل هجرته وكل إلى على ردّ الأمانات إلى أهل مكة ؟ إن أواصر القربي تقتضى التكافل التام في هذه الشؤون ، فكان الرسول أدنى بيده ما دامه على عنه ، وكأنه ، قال بلسانه في الموسم ماسية قرؤه على بين الناس .

ورعاية هذا الإلزام ليست فريضة بل هي من التي زيادة حيطة وإعذار . قال ابن إسحاق : ثم دعا على بن أبي طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأدِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بـ « منى » : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

فخرج على يمتطى العضباء - ذقة رسول الله - حتى أدرك أبا بكر بالطريق .

(١) حديث حسن رواه ابن هشام (٣٢٨/٢) عن ابن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي مرسل ، لكن له شواهد يتقوى بها ذكرها ابن كثير في تاريخه (٣٨-٣٧/٥) .

فلما رآه أبو بكر عدله : أمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور ، ثم مضى ^(١) .
أبو بكر - كما كلفه رسول الله - يقيم للناس المناسك ، وعلى يؤذن في الناس
بما أمر به ، ويقرأ على العرب صدر الصورة التي فصلت في أمرهم وأجهزت على
الوثنية في بلادهم .

وكان هناك مؤذنون آخرون بشهم أبو بكر في الجامع الكبيرة يعينون علياً على
إبلاغ رسالته ويصيحون هنا وهناك . لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت
عريان ، وعن زبد بن يفيغ سألنا علياً . بأي شيء بعثت في الحجة ؟ قال : بعثت
بأربع ؟ لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع
مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا ، ومن كان بينه وبين الذي عهد فعده
إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر ^(٢) .



وقد تكلمنا في موضع آخر عن مكانة المعاهدات ^(٣) في الإسلام ، وشرحنها
ما تضمنه صدر سورة التوبة من أحكام .
وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ، عمل
إنساني نبيل . وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتقنى لها
الاسمو والكرامة !

وبحسب الإسلام أنه ظلل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية
كما أتاحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتل كما وقف
في طريقه الجهل والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه .

(١) حديث حسن . وهو تمام حديث أبي جعفر المتقدم .

(٢) صحيح . أخرجه أحمد (رقم ٥٩٤) والترمذي (١١٦ / ٤) وصححه .

(٣) كتابنا « تأملات في الدين والحياة » .

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء ، ولم يفعل ذلك إعزازاً لها ، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضيمره

فقل من يسهون أنفسهم ، ويتركون الله العظيم ، إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام .

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء ، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ... لم يبق لتركهم من حكمة .

إن الكلاب العمور لا يترك طليقاً ، فإذا أملت من قيده فأهدر دمه ، فمن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل .

والذين يظنون ، أو يحلو لهم الظن بأن الاملام عندما طارد الوثنية ، خنق حرية الرأي . هم أشخاص واهمون أو مُتَرَضُّون .

وعلى هدى التجارب والمصائب التي عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاماً تعرف سر الغضب الذي اشتعل آخر الأمر ، ولم نزل الوحي يعالين المشركين بالقطيعة ، ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم ، ولم ينفكوا عنها يوماً ، ولا ينفكوا عنها أبداً .

ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهمة المفروبة لهم (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين * وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله يرى من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم) ...

ومن قبل هذا النذير الخوف ومن بعده كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تباع رسول الله على أن تخلع رداء الجاهلية ، وتدخل في الدين الحق .

وهذه الوفود للقبلة ، عرفت — خلال السنين السابقة — طرفاً يسيراً عن الإسلام . . .

فقد شاع في أرجاء الجزيرة كلها نبأ الرسالة الجديدة ، وما تضمنته من عقائد ، وما تقرضه على أتباعهم من تعاليم .

وتتبع المحبون والمبغضون كفاحها للوصول في طلب الحياة ، ومبلغ ما بذات وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

ونحن نعلم أن الحزب الذي يبدأ نشاطه بأنصار قلائل يتضاعف الإقبال عليه عندما تلعب له وقفات مشرقة ، ويتاح له نصر كبير .

فكيف إذا اختفى خصومه ، وتألقت بحجومه ؟ .

فلا جرم أن المدينة تتدفق عليهم اسدبول الراغبين في اعتناق هذا الدين ، وألتر اغبين في مسألمته ، ورسم سياسته تقوم على التعاون معه .

ولسنا بسبيل إحصاء هذه الوفود القادمة من المشرق والمغرب .

لكننا نسوق مثلين لوفدين : أحدهما وثني ، أقبل يبغى الإسلام ، والآخر نصراني ، جاء يستطلع النبأ ويفاوض ويعاهد بعد جدال ولجاجة .

وفد للأميين ووفد لأهل الكتاب

أرسلت قبيلة سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وفداً إلى رسول الله .

فامطى « ضمام » بعيره ، حتى دخل المدينة فأناخه على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه .

وكان « ضمام » رجلاً جليلاً . أشعر ، ذا هديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول

الله في أصحابه . فقال : أيكم عبد المطلب ؟

فقال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب ! قال : أحمد ؟ قال : نعم !

قال : يا ابن عبد المطلب ! إنى سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تجدن في نفسك .

قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدالك .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك
الله بعثك إلينا رسولا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك
الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه
الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه . ؟

قال : اللهم نعم .

وفي رواية أنه قال : يا محمد أنا رسولك ، فزعم لنا أنك زعم أن الله أرسلك ؟
قال . صدق ! قال : فمن خلق السماء ؟ قال الله ! قال : فمن خلق الأرض ؟
قال : الله ! قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله
قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟
قال : نعم . . .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا قال :
صدق ! قال : فبالذي أرسلك : الله أمرك بهذا ؟ قال ، نعم !

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال :
فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض
وأجتنب ما نهيتني عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بيته راجعاً .

فقال رسول الله : إن صدق ذو العقيبتين دخل الجنة ^(١) .

فأتى ضمام بغيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه .
فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام !

(١) قال الحافظ ابن كثير (٦٩/٥) : « هذا يدل على أنه (يعني ضماما) رجع إلى قومه قبل الفتح لأن « العزى » خربها خالد بن الوليد أيام الفتح :

أَتَّقِ الْبَرَصَ ، أَتَّقِ الْجَذَامَ ، أَتَّقِ الْجُنُونَ .. قال : ويلكم ، إنهما - والله -
لا يضران ولا ينفعان .

إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتمكم
من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ...

قال : فوالله ما أمسى في الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلماً^(١) .

* * *

ذاك وقد يمثل بساطة الأيمن في منطقهم ، وسلامة طويتهم في جدلهم وتساؤلهم
وخلو أذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السمع .
ولا نكران في أن جهاد الدعوة القديم ، له أثره في الوصول إلى هذه النتائج
السريعة .

وهذا طبيعي فإن تغيير دين ليس كتجديد زى ، و « ضام بن ثعلبة » كان
يستحضر في ذهنه وهو يسأل النبي^ﷺ ثم وهو يخاطب قومه أن هذه الرسالة الجديدة
مرت بأطوار شتى من الحن والفتن ، كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس
إيمانه وإيمان قومه ، وليد مداعة من كلام .

ذاك وقد الأيمن ، وهو مثل لوفود أخرى كبرت أو صغرت ، أمت المدينة ،
لترى هذا النبي^ﷺ وتبايعه ، ثم تؤوب إلى قومها ، حاملة الهدى والخير .

* * *

أما أهل الكتاب فإن قلة منهم شرحت صدرأ بالحق ، وسارعت إلى اعتناقه
ومؤازرته ، والكتلة الباقية ، اختلفت عداوتها له ، شدة وفقورا .

(١) حديث حسن . بهذا التمام ، رواه أبو داود (٧٩/١) والهاكم (٣/ ٥٤- ٥٥) وأحمد (رقم ٢٣٨٠) من حديث ابن عباس ، وقال الهاكم : « صحيح » ووافقه الذهبي ورواه (مسلم ٣٧/١) وغيره مختصراً ، والرواية الأخرى له .

أبى اليهود إلا إبادة الإسلام ، فوقعوا في شرور نيتهم ، وباد سلطانهم العسكري والسياسي ، قبل أن يدركوا هذه الغاية .

وقبلهم الإسلام في دولته القائمة أفراداً يبقون على ديانتهم ما أحبوا ، ولا يملكون من تجمع على عدوان ودس .

وذلك حقه لا ريب !!

ولم تصدر الحقوق الشخصية ليهودي تحت سلطان الإسلام ، وحسبك أن النبي^(١) نفسه — لكي يقترض من يهودي — ارتنه درعه^(١) ... وما فكر قط في إخراج ما يملك من سلطان بعيد ...

وكان النصراني أخف خصومة ، حيث ابتعدوا عن سلطان الكنيسة ... فأسلم بعضهم عن طوعية وإعجاب بما في الإسلام من سهولة واستقامة ... وبقي الآخرون على ما ورثوا ...

وسارت العلاقة بين الدينين في مجراها الذي أبنا عنه آناً ، حتى تحولت إلى حرب طاحنة بين المسلمين والرومان ...

وكانت النصرانية — مع تفوق الرومان السياسي والعسكري — تعود شمل الجزيرة وجنوبها ...

فرأى المسلمون — وهم في حرب مع دولة الروم — أن يحددوا موقفهم مع نصارى الجنوب ، خصوصاً وأن الروم كانوا يقدقون العطايا على مبشرهم هناك ، ويبنون لهم الكنائس ، ويسيطون عليهم الكرامات ، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة بهذه الأرجاء .

فأرسل النبي^(١) صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران كتاباً جاء فيه « باسم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ..

(١) صحيح أخرجه البخاري وغيره .

وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ...

فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام^(١) :

فأرسلت نجران — وهي كعبة النصرانية جنوبا — وفدّها إلى المدينة ليقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقام معه ، ووافى الوفد المدينة بعد العصر ، ودخل المسجد :

فكان أول ما صنع أن أتجه إلى بيت للقدس يصلى فيه على ما تقضى به طقوس المسيحية ، وأراد الناس منعهم ، فقل رسول الله . دعوهم^(٢) ... حتى انتهوا من عبادتهم ...

ورآهم النبي صلى الله عليه وسلم قد لبسوا المملقاته أردية السكهنوت الفاخرة ، وتحلوا بنحواتم الذهب ، وجاءوا يخبئون في الحرير ، وتبدو لهم — بين القلائس والطيلالس — صباء التكلف الشديد .

فأبى أن يتحدث معهم ، حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ، ويدعوا هذه الزينة^(٣) ...

والغريب أن بعضهم سأل النبي ، أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما يعبد عيسى ابن مريم ؟ وإلى ذلك تدعوننا ؟

(١) ضعيف ، رواه البيهقي عن يونس بن بكير عن مسلمة بن يسوع عن أبيه عن جده . وهذا سند مجهول . سلة هذا ، ومن فوقه ، لم أجد من ترجمهم ، وأبو يسوع لم يورده الحافظ في « الكنى » من الصحابة . فإله أعلم . ثم رأيت ابن كثير قد ذكره في التفسير (٣٦٩/١) ووقع فيه : « سلة بن عبد يسوع » ولعله الصواب .

(٢) ضعيف ، أخرجه ابن هشام (٤٦/٢) عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر ابن الزبير قال : فذكره . وهذا مرسل أو معضل .

(٣) هذا من حديث عبد يسوع السابق !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ولا أمرني ^(١) .

وأنزل الله عز وجل في ذلك : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ نَحْمَ يَقُولَ الْإِنْسَانُ : كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟) .

وعرض النبي صلى الله عليه وسلم على أحبار « نجران » وسائر الوفود أن يسلموا فقالوا له . أسلمنا قبلك ، قال : كذبتُم ، يمنعكم من الإسلام ادعائكم لله ولداً ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى ، وقالوا ، مَنْ أبوه ؟ ^(٢) فروى أن النبي ردَّ عليهم قائلاً : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَأَنَّ عِيسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْغَنَاءُ ؟ قالوا : بلى ، قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَكْلُوهُ وَيَحْفَظُهُ وَبِرِزْقِهِ ؟ قالوا : بلى . قال : فَمَهْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ؟ قالوا : لا .

قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ؟ قالوا بلى قال : فَمَهْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً إِلَّا مَا عُلِمَ ؟ قالوا : لا .. !

(١) ضعيف ، رواه محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير ، وفيه محمد بن أبي محمد وهر الأنصاري ؛ قال الذهبي : « لا يرف » وأما ابن حبان فوثقه !
(٢) إلى هنا رواه ابن إسحاق في مرسل محمد بن جعفر بن الزبير السابق . وأما الرواية الأخرى فلم أجدها الآن مسندة بهذا التمام وإنما جاء بعضها في حديث عبد يسوع المتقدم .

قال : ألسنم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى !

قال : ألسنم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع ولدها . ثم غذى كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

قالوا : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

فقالوا : ألسنم تقول في عيسى : إنه كلمة الله ألقيها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى .

فلما رأى النبي أن الجدل يتجاذى بالقوم . وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إما أو ندأ للاله قال لهم : أقيموا غداً حتى أخبركم .

فنزلت آيات المباهلة (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ هـ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) .

فأصبح رسول الله من الغد ، وقد أقبل بنفسه ، وحفيديه : الحسن ، والحسين ، وابنته فاطمة .

واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة تستنزل فيها لعنة الله على المفترين .

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح ، فأوجسوا خيفة من قبوله ! من يدرى ؟ قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى بشر مثله ويكونون - هم - واهين في انتحال الألوهية له .

فلماذا يبتهلون إلى الله أن يحققهم ؟

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته ، فشعروا أن الكاذب منهما لن يهلك وحده .
بل ستهلك معه أسرته ، فخشوا على أولادهم وأهليهم البوار ، إن هم قبلوا هذه
المباهلة ثم خلصوا نجياً .

قال بعضهم للآخر : إن كان هذا الرجل ملكا ، فلن نأمن طعننا عليه وخصامنا
له . فإن دولته مقبلة ، وربما أصابنا قومه بجائحة .

وإن كان نبياً مرسلًا فلا عناء ، فلن يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر
إلا هلك . فما الرأي ؟

فجاء متحدث القوم شرحبيل بن وداعة ، وقال له : رأيت خيراً من ملاعتك
فقال للنبي : ما هو ؟ قال : أدعُك الحكم فينا فهما قضيت فهو جاز !

فقال رسول الله : لعل وراءك أحداً يثرّب عليك ؟ فقال شرحبيل : صل عني
فلما سأل الرسول عنه خبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه ،
فقال : جاحد موفق .

ورجع رسول الله ولم يلاغهم ، وعقد معهم صلحا أصبحوا - بمقتضاه - من
رعايا الدولة الإسلامية .

وجاء في شروط هذا الصلح « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي ،
على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم .
وأن لا يغيروا عما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف
من أسقفيتهم ، ولا راهب من رهبانيتهم ، ولا ماتحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم ربيعة ولادم جاهلية ولا يحشرون - يكلفون بجهاد - ولا يعشرون
- يكلفون بركاة - ولا يبطأ أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فيبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل
رباً فذمى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى باتى الله بأمره
ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم » .

وشهد على هذه المعاهدة أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن
عوف ، والأفرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة .

فماذا كاف به نصارى نجران بإزاء هذه الحقوق ؟ أن يدفعوا للدولة ألفى حلة
فى السنة ! وهى بدل تافه عن الزكاة التى يدفعها المسلمون وحدهم ، والجهاد الذى
يحملونه وحدهم .

وتلك هى الجزية التى ضربت على نجران ، بعد المفاوضات التى رأيت .
وبذلك قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المتنصرين وبين دولة الروم التى
يشتبك معها فى الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سألوه وكفوا عنه .
ونحن نسأل — على وجه التحدى — هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها
بعضاً بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مساساً بضياء به الإسلام وحده ظلمات
القرون الأولى ؟

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترم أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل
أنصفوا الدين الذى رعى ذمامهم ؟

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية
المتقلصة فإذا بعض القبائل فى الجنوب تنور ضده تحسب أن رجلاً من قریش ملك
العرب بادعاء النبوة ، فليس يعجزها أن تقدم من مغاليلكمها من يزعم النبوة
كذلك ! ! لعله يملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات ،
وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم — وهو أحد المتنبئين —
ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فملكها حتى قتلته امرأته هناك وأراحت الأرض منه .

أكانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال فى حربهم ضد الإسلام ؛ أم كانت
شغباً يمليه السكره المجرّد فحسب ؟

وما فعله نصارى نجران فى تأييد الأسود العنسى ؛ فعل مثله نصارى تغلب فى
تأييد مسيلمة الكذاب حين ادعى — هو الآخر — أنه نبيّ !

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول فى الإسلام ، وأن
يؤثروا البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة ، لكننا لم نفهم بته أن يكذب
رجل بصحف الوحي العالى وأن يؤمن — مثلاً — بالبعكوكه (١) .

ذلك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة ..

أما إذا كان الأمر لا يعدوا الإعانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى
حليف ، فهذه مسألة (٢) أخرى يحتمل فى علاجها أطباء القلوب .

(١) صحيفة هزاية .

(٢) راجع كتابنا « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » .

(٨)

أَعْمَالُ الْمُؤْمِنِينَ

أثار بعض الكاتبين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات ، وحاولوا نقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه ، محتجين - تارة - بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة ، وتارة أخرى ، بأن تطور الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة لا يعبدها . وحسبه أن يوفق في رعايتها وكفالة أولاده منها ... !

ولاشك أن هذه الأفكار تولدت في بيئتنا نتيجة عوامل شتى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد ، ومنذ سنين حاول خصوم التعدد أن يستصдروا قانوناً بذلك ، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء ، وهياج الجماعات المشتغلة بالشئون الإسلامية . وقد كتبت آنذككة في طبيعة التعدد أرى إثباتها هنا بين يدي الموضوع الذي نتحدث فيه ، لما لها من صلة ظاهرة به .

« للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة ، تقرر نفسها على الناس حتماً ، عرفها فاستعدوا لمواجهتها ، أم جهلوا فظهرت بينهم آثارها .

وصلة الرجل الفردي بعدد من النساء ، من الأمور التي تثبت فيها الأحوال الاجتماعية . ويعتبر تجاهلها مقاومة هائلة للأمر الواقع .

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء ، إما أن تكون متساوية ، وإما أن تكون راجعة في إحدى الناحيتين .

فإذا كانت متساوية ، أو كان عدد النساء أقل ، فإن تعدد الزوجات لا بد أن يحتفى من تلقاء نفسه ، ويستقرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً .

ويكتفى كل أمرى - طوعاً أو كرهاً - بما عنده .

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال ، فنحن بين واحد من ثلاثة :

١ - إما أن نقضى على بعضهم بالحرمان حتى الموت .

٢ - وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات ، ونقر جريمة الزنا .

٣ — وإما أن نسمح بتعدد الزوجات .

ونظن أن المرأة - قبل الرجل - تأتي حياة الحرمان ، وتأتي فراش الجريمة والعصيان . فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها وينتسب إليه أولادها . ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذي صرح به الإسلام .

ثم إن هناك اختلافاً كبيراً بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية ، فهناك رجال أتوا حظاً من كمال الصحة وبقظة الذريزة وفعومة العيش . لم يؤثّرته غيرهم . والمساواة بين رجل بارد للشاعر من نشأته ، وآخر قريب الاستثارة ، واسع الطاقة ، أمر بعيد عن العدالة ، أسفاً نبيح لذوى الشهية المتطلعة مقادير من الطعام ، لا نبيحها للمعوزين والضعفاء ؟

فهذه بتلك .

وتمّ حكمة أخرى . قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو العقم أو تأخر السن ، فلماذا تُترك لهذه الأعذار ؟

إن من حق العشرة القديمة أن تبقى في كنف الرجل ، وأن تأتي إلى جانبها امرأة أخرى تؤدي وظيفة الزوجة أداء كاملاً .

* * *

ومع المبررات الكثيرة للتعدد ، فإن الإسلام الذي أباحه ، رفض رفضاً باتاً أن يجعله امتداداً لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط .

فالغرم على قدر الغنم ، والمتع الميسرة تتبعهم حقوق ثقيلة .

ومن ثم فلا بد - عند التعدد - من تيقن العدالة التي تحرسه .

أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته ، فلا تعدد هناك .

الذي يعدّد يجب أن يكون قادراً على النفقة اللازمة .

وإذا كان الشارع يعتبر المعجز عن النفقة هذراً عن الافتراق بواحدة ، فهو —
من باب أولى — مانع من الزواج بما فوقها .

إن الشارع يوصى الشباب الأعزب بالصيام ، مادام لا يستطيع الزواج ، ويأمر
العاجز عن الواحدة بالاستعفاف .

(وَلَيْسَتَعَفُّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .
فكيف الحل بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق ، وبالأستعفاف أولى .. وكثرة
الأولاد تدفع — عادة — كثرة الزوجات ، والإسلام يوجب رعاية العدل مع الأولاد
في التربية ، والتكريم ، ووسائل المعيشة ، مهما اختلفت أمهاتهم ، وفي الأثر « لعن
الله من استعق أولاده » (١) فعلى الأب المكثّر أن يحذر هتقى الميل مع الهوى ..
وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات .

ولئن كان الميل القلبي أعصى من أن يتحكم فيه إنسان ، إن هناك من الأعمال
والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرضى الحدود المشروعة ، وأن يزن تصرفه
بالتقسط . وأن يحشى الله فيما استرعاه من أهل ومال .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل امرئ عما استرعاه ..
حفظ ذلك أم ضيعه » (٢) .

(١) لا أعرفه . ونحوه ما رواه الطبراني عن أبي هريرة صرفوعاً : « أعيثوا أولادكم
على البر ، من شاء استخرج المعقوق من ولده » . لكن في سنده من لا يعرفون .
(٢) عزاه في الجامع الصغير للنسائي وابن حبان في صحيحه عن أنس . وقد فتش عنه
في سنن النسائي الصغير في مظانه فلم أجده ، فلمعه في سننه الكبرى التي لم تطبع وقدم
وقفت في الوقوف على إسناده فأخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٣٥/٩) عن
النسائي بسنده عن قتادة عن أنس . وكذلك رواه أبو نعيم أيضاً (٢٨١/٦) من غير
طريق للنسائي . والسند صحيح إن كان قتادة سيمه من أنس فإنه موصوف بشيء من التدايس .

وقال : « بحسب امرئ من الإنم أن يضع من يعول » (١) .

تلك حدود العدل الذى قرنه الله بالتعدد ، فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج مثنى وثلاث ورباع ، وإلا فليكتف بقرينة الفذة (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) .

وقرأت لبعض الصحافيين يعترض على مبدأ التعدد ، لماذا يعدد الرجال الزوجات ولا تعدد النساء الأزواج ؟ ولقد نظرت إلى هؤلاء المتسائلين فوجدت جمهورهم بين داعر أو ديوث أو قواد ، وعجبت لأنهم يعيشون فى عالم من الزنا ويكرهون أشد الكره إقامة أمر الأسرة على العفاف . .

والجواب على هذا التساؤل المريض أن الهدف الأعلى من التواصل الجنسى هو إنشاء الأسرة وتربية الأولاد فى جوٍّ من الحضانة النظيفة وهذا إن يكون فى بيت امرأة يطرقها نفر من الناس ... يحتلدون للاستحواذ عليها ولا يعرف ، لأنهم ولد منها . . ثم إن دور المرأة فى هذه الناحية دور القابل من الفعل ، والمقود المحمول من القائد الحامل . وإنك لتتصور قاطرة تجر أربع عربات ، ولا تتصور عربة تشد أربع قاطرات ، ومن الكفر بطبائع الأشياء المماراة فى أن الرجال قوامون على النساء .

○ ○ ○

على أنه من المؤسف حقاً ، أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن يتجهوا إلى التعدد دون وعى لمعنى العدل المفروض ، بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الافتيات والجور الصارخ .

فأرجل قد يعجز عن نفقة نفسه ، ثم هو يسعى إلى الزواج .

وقد يعجز عن رعاية واحدة ، ثم هو يبحث عن غيرها ! !

(١) « كفى بالمرء إثماً أن يضع من يتقوت » أخرجه أبو داود (٢٦٨/١) وغيره حديث ابن عمر وصححه الحاكم (٤١٥/١) ووافقه الذهبي ورواه مسلم (٧٨/٣) من طريق أخرى عنه نحوه .

وقد يحيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة تشكياً مع هوام وقد يتزوج الأخرى ليهجر الأولى ويذرهما كالمعلقة .

وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع . والإنفاق على ما ينجبن من بنين وبنات . ومع ذلك الاقتدار ، فهو يحيا على التوسل الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات فما دواء هذه الفوضى ؟

هل منع التعدد يشفي الأمة من هذه الأدواء ؟

كلا . إن تقييد مباح ليس مما يعي سياسة التشريع في الإسلام . إلا أن مبدأ التعدد لو سكنت الدين عن إبداء الرأي فيه ، لوجب أن نبدي — نحن — الرأي فيه ونقول بإصلاحه ، صيانة للمصلحة العامة التي أوضحناها في صدر هذا الكلام .

واسكن إقرار القاعدة شيء ، وسوء تطبيقها شيء آخر . .

وعندما يحى دور التشريع في إصلاح مجتمعنا وإقامة عوجه — من هذه الناحية — فلتتجه همة الباحثين إلى ضبط وسائل العدل ومظاهره إن أرادوا . أما الخبط في مبدأ التعدد نفسه ، ومحاولة النيل منه فهو عبث .

وأستطيع القول بأنه أثر من آثار الفزو الصليبي الحديث لبلاد الإسلام . فان النصرانية — دون مآثر الأديان من عهد نوح — انقردت بتحريم^(١) التعدد ، وحبس الرجل — مهما كان شأنه — على امرأة واحدة ، وترك المجتمع بعد ذلك ، يعالج كثرة النساء ، وهياج النزائر بوسائله الأخرى . وفي طبقات كثيرة الآن ، ينظر إلى التعدد على أنه منكر ! وإلى الزنا على أنه مسلاة تافهة ! أى المشكلة الآن ، مشكلة الدين كله ، والأخلاق كلها . .

(١) نحن نعتقد أن التعدد هو حكم الله في الأديان كلها — ومن بينها النصرانية — ولا نقيم وزناً لما عداه من قوانين وضعية .

وتقييد التعدد - والحالة هذه - محاولة سمجة ، لتلويث المجتمع على حساب الإسلام وباسم القانون .

إن جمهوراً كبيراً من النبيين والصالحين تزوج بواحدة وبأكثر من واحدة ، ولم يندش ذلك تقواه ، وفي صحف العهد القديم الموجودة الآن ما يؤيد ذلك . والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة - كما يفعل الرهبان - ولا الزواج إلى أربع معصية ، كما ينسب إلى النصرانية .

إنما المعصية في ترك الغريزة الجنسية تنزهه كيف تشاء ، أو في كبتها لتتسرب وراء وراء ، كما تتسرب للمياه الجوفية تحت أديم الغبراء .

° ° °

والمحفوظ من سيرة نبي الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت - هي - في سن الأربعين ، وظل معها وحدها ، لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين .

وماتت ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - فوق الخمسين . ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لئداً ، أن ينسب إليه دنسا ، أو يتهمة بريبة . في هذه الفترة المخصية الرحبة من عمر الإنسان كان رونق العفاف والشرف يخالق في جبينه حيث سار .

ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة . فإن التعدد كان مألوفاً بين العرب ، معروفاً في ديانة أبي الأنبياء إبراهيم ، إلا أنه ظل مكتفياً بمن استراح إليها واطمأن بصحبتها ، ولو أنها طعنت في السن وبقي هو في كمال قوته وتمام رجواته . ولهذا المسلك دلالة القاطمة .

فلما انتقلت خديجة ، وأحب النبي أن يتزوج ، لم يكن البحث عن الجمال في مظانه هو الباعث له على تخيير شريكته في حياته ، أو شريكاته ، ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم .

بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزره في دعوته وعاونوه في رسالته .

فاختار « عائشة » بنت أبي بكر — على صغر سنها — واختار حفصة بنت عمر على قلة وسامتها ...

ثم اختار أم « سلمة » أرملة فائده الذي استشهد في سبيل الله ، وعانت معه امرأته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة ، وفي الهجرة إلى المدينة .

ومن قبل هؤلاء كانت معه « سودة » وهي امرأة نزلت عن حظها من الرجال لكبرها وعزوفها .

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة .

ولو قد قامت على ذلك ما كان على رسول الله من حرج ، فلاى مؤمن أن يستمتع بأربع نسوة ، وتحقيق العدل متيقن في سيرة رسول الله .

قد تقول : لكن الرسول مات عن تسع نسوة فكيف وقع هذا ، ولم نال ما لم ينال غيره ؟؟

أليس هذا فتحاً لباب التشهى ، وإجابة لدواعى الملمدة ؟

ونقول : أين مكان المتعة في حياة رجل لم يسترح يوماً من عناء الكفاح للوصول والجهاد المضنى ؟

إن حملة الرسائل الإنسانية المحدودة تعيهم هموم العيش ومشكلات الشعوب فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً .. ثم ينهضوا لاستئناف اللقوب ! فكيف بضاحب الرسالة العظمى ؟ ولقد لقي من العرب ما رأيت !

ونسأل أيضاً : ما مكان المتعة في حياة رجل عزف عنها وهو شاب ، فكيف يفرق فيها وهو شيخ ؟

إن الظروف التى أحاطت بالزوجات الخمس الأخرى ، تجعل البناء بهن بعض

ما كلف الرسول بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير ومحو الضرر .

خذ مثلاً زواجه بزینب بنت جحش ، كان هذا الزواج امتحاناً قاسياً لرسول الله ، أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه الرسول وهو شديد التحرج والحياء والأذى .

و « زينب » هذه من قريبات الرسول ، فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها ، وقد رغب في أن يزوجه من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك ورفض أخوها ، اهتزازاً بما لأسرة زينب من مكانة ، فهي من ذؤابة قريش ، وما زيد ؟ إنه كان عبداً ، ولو أن الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى زيد بن محمد !!

إلا أن زينب لم تجد بداً من الإنصياع لأمر النبي ، فقد أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب وأن ينكح زيدا زينب ! فرضبت وفي نفسها غصاصة ، وقبل أخوها وهو يؤدي حق السمع والطاعة فحسب ، بعد ما نزل قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَضَّلْنَا صَلَاحًا مَبِينًا)

ودخل زيد زينب . فوجد امرأة مصروفة القواد عنه ، تسلمه جسدها ، وتحرمه العطف والتقدير ، ثارت رجواته وقرر ألا يبقى معها ، وتدخّل النبي بين الحين والحين لإصلاح ذات البين دون حدوى .

في هذه الحال أوحى الله لنبيه أن يدع زيدا يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بعد إنتهاؤها منه ..

فاعترى الرسول ثمّ مقاق لهذا الأمر الغريب ، وساوره التوجس من الإقدام عليه بل أخفاه في نفسه خوفاً من معيته ، فسيقول الناس : تزوج امرأة ابنه . . .

وهي لا تحل !!

ولكن هذا الذى سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه ، ويجب على النبى أن
ينفذه دون تهيب .

وقد تريت النبى فى إنفاذ أمر الله ، وامله ارتقب من الله — لفرط تخرجه —
أن يعفيه منه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعندما جاء زيد يشكو امرأته
ويعرض نيته فى تطليقها ، قال له النبى : أمسك عليك زوجك واتق الله .

عند ذلك نزل الوحي يلوم الرسول على توقفه ، ويعتب عليه تصرفه ، ويحضه
على إضفاء رغبة زيد فى فراق امرأته ويكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس : تزوج
امرأة ابنه ، فإن إعدام البتوة لون من التزوير ، تواضع عليه العرب مراغبة للحق ،
وينبغى أن يقلعوا عنه ، وأن يهدروا نتائجه ، وإيكن عمل الرسول بنفسه ، وبمن
التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية فى العرف الشائع ..

هذه هى القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها .

(وَإِذْ يَقُولُ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتَحْشَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذْ اقْتَضُوا مِنْهُمْ وَطَرًا) .

على أن الغريب فى هذه القصة ما أدخله المفسرون عليها من دسائس الشهوة
ومظاهر الحب الرخيص ، فقد زعموا أن الرسول أحب زينب ، ثم كتم هذا
الحب ، ثم ظهر ، فتزوجها بعد ما طلقت !

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكتوبة .
ونحن نقعجب أشد العجب لهذا الخبط الهائل ، ومحاولة تلبيس الحق بالباطل .
من كان يمنع محمداً من الزواج بزينب وهى من أسرته — بنت عمته — وهو
الذى ساقها إلى رجل لم تسكن فيه رغبة ، وطيب خاطرها لترضى به .

أبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها ؟

ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب .

إنهم يقولون : الذى كان يحقّيه النبى فى نفسه ، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب ، أى أن الله — بزعمهم — يعتب عليه عدم التصريح بهذا الميل !
ونقول : هل الأصل الخلق أن الرجل إذا أحب امرأة لفظ بين الناس مشهراً بنفسه وبمن أحب ؟ وخصوصاً إذا كان ذا عاطفة منحرفة ، جعلته يحب امرأة رجل آخر ؟

هل يلوم الله رجلاً ، لأنه أحب امرأة آخر ، فكأن هذا الحب فى نفسه أكان يرفع درجته ، لو أنه صاغ فيها قصائد غزل ؟
هذا والله هو السفه ١ .

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن !!
إن الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش ، وإعما سباق الواقعة هو كما قصصنا عليك .
فالذى أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم فى نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض ، وترأخيه فى إنقاذ أمر الله به ، وخوفه من لفظ الناس عندما يجدون نظام التبني . — كما أنفوه — قد أنهار .

وقد أفهم الله نبيه ، أن أمره لا يجوز أن يقفه توهم شىء ما . وأنه — بإزاء التكليف الأعلى — لا مفر له من السمع والطاعة ، شأن من سبقه من المرسلين .

وإذا عدت إلى الآية التى تتضمن القصة ، وجدتها ختمت بقوله تعالى :

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) أى من حقه أن يقع حملاً .

ثم أعقها ما يؤكد هذا المعنى :

(مَا كَانَ عَلَى الْبِئْسَى مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، وَسُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) .

إنك عندما تثبت في قلب رجل تقول له : لا تحش إلا الله .
إنك لا تقول ذلك له وهو بصدد ارتكاب معصية ، إنما تقول ذلك له ، وهو
يبدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر في هذه الآيات كلها إن الله لا يجريء نبيه على التذلل بحب امرأة « إنما
يجرئته على إبطال عادة مائة يتمسك الناس بها ، ويراد منه كذلك ، أن ينزل على
حكمها ، ولذلك يقول الله — بعد ذلك بمشرة — وهو يهدم نظام التبنى .
(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ
النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) .

أما السيدات الأخريات التي بنى بهن الرسول . فهن نساء تنميهن أصول عريقة
حتى ليعتبرن بنات ملوك !

وقد أطاحت بهن — عند دخول الإسلام — ملابسات ، لا يليق أن يجملها
قائد دعوة .

فأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قریش وقائدها عشرين سنة في حرب
الإسلام أو يزيد ، أئذا أسلمت وراغمت أباهما وقومها في ذات الله ، ثم هاجرت
إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته ؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها تترك لمن يخذل مكانها ؟
لقد ضمها النبي إلى زوجاته ، إعزازاً لشأنها ، وتقديراً لصنيعها .

و « صفية » بنت يحيى ، كان أبوها ملك اليهود .

وفي الصراع بين بني إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ،
ووقعت في سهم جندي ، لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب ، من حقه ، بملك اليمين ،
أن يسلك . معها كيف يشاء .

فإذا رُق النبي لحالها ، ووهبها حريتها ، ثم جبر كسرهما وقدر ماضيها ، فتزوجها
ليستطيع — بإحسانه وإكرامه — تطيب خاطرهما ، فهل ذلك مما يلام عليه ؟

و «جويرية» بنت الحارث ، إن أباه زعيم بنى المصطلق ، وقد انتهت حربها مع المسلمين هزيمة نكراء ، وكادت قبيلته تهون وتذلعقب هذه المزيمة ، فوامى النبي صلى الله عليه وسلم القائد المهزوم ، ثم أسهر إليه حتى يشعر المسلمين بما ينبغي لأنبأه من كرامة ومعونة ، رقد وقع ما أحبه النبي ، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساء ، إذ تخرج المسلمون أن يسيثوا إلى قوم تزوج النبي ابنهم .

* * *

وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة ، أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة ، قامت على التوسع في المطاعم والمشارب .. والمتع الأخرى . والصورة التي قد ترسم بادي الأمر لرجل عنده عدة نساء ، أنه مغرور بالسعادة المادية يقوم بيته على الموائد الحافلة باللحوم والفواكه ، ويرتوى من الأنثربة التي تسرى في أوصاله بالنشوة . ثم يتقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالي البال . !!

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور في قصور الملوك .
اسكن حذار أن تسفه نفسك فتحسب شيئاً من هذا العيش الرخي في بيوت محمد بن عبد الله .

إنقل على عجل إلى لون آخر من الحياة الخشنة لترى فيه رجلاً تعلقت همته بالحق وحده ، فهو ينتمش بمعرفته . ويحتشد لجمع الناس عليه ، وقرة عينه في خطوة تقربه من غايته شبراً ، أما أهواء الدنيا فهي تحت قدميه ودبر أذنيه .

إذا استطاعت قذائف المدافع على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة ، استطاعت مغربات الحياة أن تقترب من قلب محمد الزكي النقي .

ذاك إنسان اصطفته العناية ، فهو يخلق في مدى آخر ، يقول فيه : « مالى
والدنيا إنما أنا كرجل قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها » (١) .

يربط همم البشر بالمثل العليا ، وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع سوط
في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولقد وُتِّع في سبيل الله أوروحة خير من
الدنيا وما فيها » (٢) .

وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد .
روى البخارى عن أنس بن مالك قال ما أعلم النبي رأى رغباً مرققاً حتى
لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط !

وعن عائشة قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت
في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار !

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء .
وقالت عائشة أيضاً : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في رقى شيء .
يا كله ذو كبد إلا شطر شعير في رقى لى . .

أما الفراش الذى يأوى إليه هذا النبي فهو آدم — جلد — حشوه ليف (٣)
يثوى فيه قليلا ، فما إن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ — الديك — فينهض
متأهباً لصلاة الفجر ..

ولانعى بهذا الوصف أن الإسلام يعاف الطبيبات أو أن نبيه يسئ للناس تركها .

(١) صحيح ، أخرجه الترمذى (٢٧٨ / ٣) وصححه وابن ماجه (٢ / ٥٢٥ —
٢٥٦) والحاكم (٤ / ٣١٠) وأحمد (رقم ٩ / ٣٧ ، ٤٢٠٨) عن ابن مسعود ، وله
شاهد عن ابن عباس رواه أحمد (٢٨٤٤) وإسناده حسن وصححه الحاكم على شرط
البخارى ومسلم ! ووافقه الذهبي :

(٢) صحيح أخرجه البخارى (١١ / ١٩٤) بإسناده ومسلم (٦ / ٣٥) بالشرط الثانى
عن سهل بن سعد .

(٣) صحيح أخرجه البخارى (١١ / ٢٤٥) عن عائشة أيضاً .

كلا ، فشرية الإسلام في هذا بينه نيرة ، وإنما نسرد الواقع من حياة رجل
حدفت نفسه عما يقتل الناس عليه ، إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة
يفرحون بها ويختصمون عليها ، لأن طبيعة رجولته في شغل عن عبث الصبية .
إن بعض الخنزعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيا لهم ، لا ازدراء له ،
ولكن استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم .

وكأنى أنجيل هذا النبي . وهو يرى سواد الناس يتفانون على الحطام الذاهب
فيهز رأسه أسفاً ، ويقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قاهلاً ولبكيتم كثيراً (١) .
ثم يضرع إلى الله : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٢) .

إن من الزاوية بالعقل والجور الفاحش على التاريخ أن يجيء رجل من معرض
الطريق ، فيرى أو يقال له : إن محمداً كان لديه نسوة عديدات . فيظن المسكين
أن ذلك دلالة استكثار من الشهوات وتشبع من الدنيا .

* * *

ولا يحسبن أحد هذا الاخشيان فعل من لا يجد ! وأنه لو فتحت إلى بيوت
هذا النبي صلى الله عليه وسلم نافذة تطل على مجبوحة ألحمة الرعدة ، لاستمتع
واكتنز ، واستمتع نسوته وابتهجن .

لا ، كان قادراً أن يحجز من المال الذي يمر به ويحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء ،
لمسكن هذا النبي السمع كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان
هدفاً أسى ولوسمقت إليه خزائن الأرض لفكر — قبل كل شيء — في إشباع
همة الناس منها .

(١) صحيح ، أخرجه البخاري (١١ / ٧٦٨) من حديث أبي هريرة وأنس .
(٢) صحيح ، أخرجه البخاري (١١ / ٢٤٦) ومسلم (٨ / ٢١٧) واللفظ له من
حديث أبي هريرة ، وليس هو تمام الحديث الذي قبله كما قد يتبادر من عبارة المؤلف ، بل
كل من الحديثين مستقل عن الآخر ، ولا يدري المتقدم منهما من المتأخر .

عن أنى ذر : كنت أمسى مع النبي في حرّة المدينة ، فاستقبلنا أحدٌ ، فقال :
يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : ما يسرني أن عندى مثل أحد هذا
ذهباً ، تمضى على ثلاثة وعندى منه دينسارٌ — إلا شيئاً أرصده لدينٍ — إلا أن
أقول به في عباد الله هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

ثم مشى فقال : إن الأَكْثَرين هم الأفلون يوم القيامة ، إلا من قال ، هكذا
وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل مأمم^(١) . . .

إن أشهى الطعام في فم الرجل الشبعان الممتلئ لا مذاقه ، وقد كان هذا النبيُّ
شبعان القلب ، فسا يخفُّ إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو
إذا يمشى ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين ، أما هو فغناه في قلبه .

ذاك أدبٌ أخذَه الله به من قديم ، منذ قال له :

(ولا تتمدنَ حينئذٍ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا
لنفتنهم فيه وِرْزُقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى : وأمرُك بالصلاة واصطبرْ عليها
لأنسألك رزقاً نحنُ نَرْزُقُكَ ، والعاقبةُ للتعوى) .

غاية ما يبغيه هذا النبي أن ينجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر ، فلا يستذله ، أو
تستذل أهله فاقه !

إنه يعيش على قاعده « مائلٌ وكفى خير مما كثر وألجى »^(٢) ، وفي حدود هذا
القليل السكافي ، يود أن يخلص من عقابيل الخلق ، لاله ولا عليه ، ولذلك كان
يدعو الله :

(١) صحيح أخرجه البخارى (٢٢٠/١١ — ٢٢٢) ومسلم (٧٥/٣) عن أبي ذر .
(٢) هــ١ حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسند صحيح ، فكان ينبغي
التصريح بذلك أخرجه أحمد (٥ / ٢٩٧) وكذا الطيالسى (رقم ٩٧٩) في حديث لأبي
الدرداء . وسنده صحيح على شرط مسلم وعزاه المنذرى (٣٩/٢) لأبن حبان في صحيحه
والحائى ؛ ورواه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى وكذا الضياء المقدسى في « الأحاديث
المختارة » والطبرانى من حديث أبي أمامة .

وحزن رسول الله لهذه المظاهرة ، إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار المؤمنين والمؤمنات تنو إلىه من كل ناحية ، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين .

فإذا لم يعش بيته عيشة المجاهد المحصور ، فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمة أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟
لذلك رفض النبي الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة . وكره منهن هذا التطلع فقرر مقاطعتهم ، حتى شاع بين الناس أن النبي طاق نساءه جملة ١١١
وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة فابنة كليهما عند رسول الله . فذهبا يستأذنان ليدخلا عليه ، وابتعرا فاجلية الخبر . فلما دخلا وجدا النبي صامتا ، وحوله نساؤه واجبات ١١ وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا .
إلا أن جو الحزن كان يخيم على المكان . فقال عمر : لأكلمن رسول الله لعله يضحك !

فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد — يعني زوجته — سألتني النفقة آفقا فوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا نأجه . وقال : هن حولي يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدبها ، وقام عمر إلى حفصة .

كلاهما يقول : نسألن النبي ما ليس عنده ؟
فهى النبي الأيوين أن يصنعا بينتيمها شيئا . وكانت نساؤه — ناديات — :
يقلن والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

وهجرهن النبي شهرا لا يتصل بهن حتى يشعرن بما فعلن ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب إليهن جميعا إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته في حياته ! وإما اللحاق بأهلن حيث الملابس الحسنة والمساكل الدسمة .

وكان هذا الدرس كافيا ليحو آخر ما في أنفسهم من رغبة لم تتجاوز المباحات للشبهة ! فاخترن — جميعا — البقاء مع النبي على قاعدته العتيدة « ما قل وكفى

خير مما كثر وألمى» ^(١) وعشّن معه للجهاد والتهجد ، والبذل والمواساة ، والتواضع والخدمة .

(يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتسألين أمتعنكن وأمرنكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً .) ^(٢) فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة ... وعشّن مع النبي ، معينات على الحق ، راغبات في الثواب .

* * *

وبهذا التغاى في خدمة الرسالة ، والإهمال لمطالب النفس ، رفع الله درجاتهن فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن في ظله المتاع . بل صرن شريكات في حياة فاضلة غاية ، واستحققن قول الله عز وجل : « النبي أولى بالؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ... »

وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقى بهن ولو مع محرم . وسؤالهن في شئون الدين والدنيا ، إنما يكون من وراء الحجاب . كما لا يجوز لأحد — بعد وفاة الرسول — أن يتزوج بإحداهن .

وبهذا التشريع الصارم ، قطع دابر الفضوليين والنقلاء الذين يكثرن التردد على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم الذين ينشدون الرفعة من وراء الافتتان بأولئك النساء ، ولا نستغرب مثل هذا التشريع ! فقد تأدت الجرأة بيمض الناس أن يقول أحدهم : لو قبض النبي تزوجت عائشة . ومن حق النبي أن يصفى شعوره ، وأن يصد عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء .

(١) سبق تخريجه ص ٤٨٠ .

(٢) رواه مسلم (١٨٧/٤) من حديث جابر ، وهو في البخارى (٤٢٢/٨) عن عائشة مختصراً .

ولم يعقب الرسول من زوجاته أولئك ولدا .
أما بناته الثلاث أعقبن من خديجة فقد متن وهو حي ، عدا فاطمة ، فإنها
بقيت بعده شهوراً ثم كانت أول أهله لحوقاً به ..

° ° °

ودخل رسول الله بريم التي بعث بها المقوقس إليه بعد أن أسلمت ، وحملت
منه ، ثم وضعت له ابناً أسماه إبراهيم ، باسم جده أبي الأنبياء ، ولم يعمر طويلاً بل
مات وهو رضيع .

قال أنس : لقد رأيته وهو يحود بنفسه بين يدي رسول الله ..
فدمعت عليه عيننا النبي ثم قال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا
ما يرضى ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لحزونون . (١)

واتفق أن الشمس كسفت في ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت -
لموت ابن النبي ، فقام النبي مصلياً بالناس ثم قال : يا أيها الناس إن الشمس والقمر
آيتان من آيات الله عز وجل ، لا ينسكفان لموت بشر ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك -
فصلوا حتى تنجلي .. (٢)

استقرار

زالت غيرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما نزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق
وصحت العقول العليلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً
جامدة ، وسمع الأذان للصلاة بشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيها

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٣٥/٣) عن أنس .

(٢) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث للغيرة بن شعبة وصح عن جماعة من
الصحابة ذكرت ألفاظهم والطرق إليهم في كتابي «صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم»
لصلاة الكسوف وما رأى فيها من الآيات .

الإيمان الجديد . ولنطلق القراء شمالاً وجنوباً يتلون آيات الكتاب ، وقيمون أحكام الله ، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم .

إن هذه الجزيرة - منذ نشأ فوقها عمران - لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

وكان النبي في المدينة يستقبل الوفود ويشيعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير ويزودها بمحكمة الباهرة فتعود من حيث أنت لتنشىء في مواطنها القصية معادل للإسلام ، وصحائف بيضاء في تاريخ أمة .

ولم يكتف النبي بترقب الوفود المقبلة . بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رقعة الإسلام هناك انسلا .

فإن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد ولأهل الكتاب السابقة نشاط قديم وقد نشأ الإسلام هناك حقاً ، وتقلص ظل الفرس لغير عودة .

إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتقصد .

ومن ثم بعث النبي خالد بن الوليد . ثم معاذ بن جبل وأباموسى الأشعري . ثم علياً بن أبي طالب^(١) .

وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله يشعره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية ! فإنه بعد أن علم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاهم . وكيف يعرفهم دينهم خرج معه إلى ظاهر المدينة يوصيه . ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشي تحت راحلته !

فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ! ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى ! فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله .

ثم التفت النبي بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا .^(٢)

(١) بعث هؤلاء الأربعة في صحيح البخارى (٤٩/٨ - ٥٧) .

(٢) صحيح أخرجه أحمد (٢٣٥/٥) بسند صحيح عن معاذ .

وقد وقع ما أودى إليه الرسول ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع
ثم كانت وفاة النبي بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوماً ، ومعاذ باليمن ...
وقد كان العناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفي بنى حنيفة دجلاً لأن
يزعمان النبوة .

ولم يكن لسكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حقة
من الرجال .

ولسكن داء العصبية العمياء ، جعل قبيلة كبيراً من الرعاع يقول :
نحن نعلم أن مسيلة كذاب ، ولسكن كذاب ربيعة ، خير من صادق مضر !!
وقد اشتملت فتن المتنبيين حيناً ، ثم داسها أقدام المجاهدين بعد ، فأخذت
جذونها ، وذهبت نبوة مسيلة وغيره . كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى ..

حجة الوداع

أعلن رسول الله نيته بالحج ، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء .
فترك المدينة أواخر ذى القعدة ، بعد أن أمر عليها في غيابه « بأباجانة »^(١)
والحج هذه المرة ، جاء مغابراً لما ألفسته العرب أيام جاهليتها .
انتهت العهود المعطاة للمشركين ، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .
فأصبح أهل الموسم — قاطبة — من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئاً
وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق ، وهي تعلم أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم !!
ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الألوف المؤلفة وهي تلبي وتهرع إلى
طاعة الله . فشرح صدره انقيادها للحق ، واهتدأها إلى الإسلام وعزم أن يرس
في قلوبهم لباب الدين ، وأن ينتهز — هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد

(١) لم أجده من أسند هذا ؛ وإنما ذكره ابن هشام (٢ / ٣٥٠) معضلاً ولم يبرز به
فإنه قال : « فاستحل على المدينة أباً دجانه الساعدي ويقال : سباع بن عرفة الغفاري » .

آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس وتؤكد ما يحرص الإسلام على
إشاعته من آداب وعلائق وأحكام .

فألقى هذه الخطبة الجامعة ^(١) :

«أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعدعائ هذا ، بهذا
الموقف أبداً . . .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة
يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ،
وقد بلغت . . .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ،
ولكن لكم ردوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون .

قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضاع دم ربيعة
ابن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل — فهو
أول ما أبدا به من دماء الجاهلية . . .

أما بعد — أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً ،
ولكنه إن يطع فيأصوي ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه
على دينكم !!

أيها الناس : (إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ،

(١) رواها ابن هشام عن إسحاق بدون إسناد وقد جاء سندها في أحاديث متفرقة
يطول الكلام في بيانها . وتفصيل ذلك في كتابي الكبير « حجة الوداع » أرجو الله أن
يوفقني لإتمامه . وقسم كبير منها في حديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه وقد جئت
طرقه وألفاظه في رسالة لطيفة طبعت في للطبعة السلفية بمصر .

يُحِلُّونَهُ عَامًا، وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا، لِيُؤَاظِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ (وَيَحْرُمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ).

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله، اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب — الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً. لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان^(١)، لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت..

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به. فلن تضلوا أبداً، أسراً بيننا، كتاب الله وسنة نبيه..

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لأمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت ؟

قالوا : اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد * * *

قال ابن اسحاق : كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو بعرفة — ربيعة بن أمية بن خلف.

يقول لرسول الله : قل : يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أي شهر

هذا ؟ فيقول لهم .. فيقولون : الشهر الحرام ..!! فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلتقوا بكم كحرمة شهركم هذا ...
ثم يقول : قل يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل تدرون أى بلد هذا ؟ فيصرخ به ! فيقولون : البلد الحرام ، فيقول : قل : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلتقوا بكم كحرمة بلدكم هذا !

ثم يقول : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقول لهم .. فيقولون : يوم الحج الأكبر ! فيقول قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلتقوا بكم كحرمة يومكم هذا ...

o o o

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد — بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة — أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح .
كان يُحسُّ أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده ، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذى انطلق به القطار ، يوصيه بالرشد ، ويذكره بما ينفعه أبداً .
وكان هذا النبي الطيب ، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس ، عاود صيحات الإنذار ، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه ، ثم شاق الهدى والعالم ... وقطع المعاذير المتحلة ، وانزعج — بعد ذلك — شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلغ ...

لقد ظل ثلاثاً وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ويتلو على القاصى والدانى آتى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه ، ويفسل أدران الجاهلية التى التاث بها كل شئ ، ويربى من هؤلاء العرب ، الجيل الذى يفقه الحقائق ويفقه العالم فيها ..

وها هو ذا يقود الحجاج في أول موسم يخلص فيه من الشرك ، ويتمحض فيه لله الواحد القهار ..

وها هو ذا ، على ناقته العضباء ، يستنصت الجماهير المائجة ، ليؤكد المعاني التي بعث بها . والتي عرفهم عليها ، ويخلى ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه .

• • •

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم ، حين هتف وهو يبني البيت العتيق :
(رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُوا لَهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

إن العزيز الحكيم تجلى باسمه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة أو قل : القوة والسياسة ، لمحمد بن عبد الله ، فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر الأرض ، فما استعصى على الأناة والحلم ، استكان للتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع ، بين العدل والرحمة ، أخذت رقعة الباطل ، تنكش رويداً رويداً حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها ، وثبت الإسلام . ثم أصاح العرب بعد ما لان قيادهم — إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع .

• • •

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل :
(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ..) .

وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان . وكأنه استشعر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه .

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تنضج بها بعض العبارات التي ترد على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، منها ما سبق ذكره في خطبته باليوم . ومنها ما يقع في أثناء تعليمه الوفود المحتشدة حوله ، كقوله عند جرة العقبة : خذوا عني مناسككم ، فلعل لا أحج بعد عامي هذا ^(١) .

(١) صحيح رواه مسلم وغيره من حديث جابر للشار إليه آنفاً .

إلى المدينة

فلما قضى الرسول صلى الله عليه وسلم مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة
لا ليأخذ حظاً من الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .

إن المبطلين لا يدعون لأهل الحق مهلة يستجمعون فيها .

وأصحاب الرسالات أنفسهم ، لا يستعبدون نشاطهم في القعود عن العمل ، بل
يستمدون الطاقة على العمل من الشعور بالواجب .

وراحتهم السكاملة ، يوم يرون بواكير نجاحه دانية القطاف !

فقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليعبىء جيشاً آخر يقاتل به الروم .
فإن كهرياء هذه الدولة على الإسلام ، جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن
تقتل من أتباعها من يدخل فيه .

كان « فروة بن عمر الجذامي » والياً من قبل الروم على « معان » وما حولها
من أرض الشام « فاعتنق الإسلام » وبعث إلى النبي يخبره بذلك .

وغضب الرومان فجردوا على « فروة » حملة جاءت به وأتت في السجج حتى
صدر الحكم بقتله ، فضرب عنقه على ماء لهم يقال له : « عفراء » بفلسطين وترك
مصلوباً ، ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ! وقيل : إنه لما قدم للقتل قال :

بلغ سراًة المسلمين بأننى مسلم لربى ، أعظمى ودمائى

فأعد رسول الله جيشاً كبيراً وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة .

وأمره أن يوطئ الخيل تحوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبنى بذلك
إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود . حتى لا يحسبن
أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه
الختوف فحسب .

ولما كان « أسامة » شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر . فإن بعض الجهال ساءتهم
هذه الإمارة ، واعتضوا أن يقود الرجال الكبار شاباً حدث .
ولا شك أن الذي لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة .
فمن استحق منصباً بكفايته ، قدمه له ، غير مكترث بحداثة سنه .
فإن كبر السن لا يهب للأغبياء عقلاً ، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً .
فما الحداثة عن حلم بمناعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رداً على انتقاد الفاقدين — « لن
نطعنكم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل ، وأيم الله إن كان
خلقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخلقاً بها ، وإن كان لمن أحب الناس إلى »^(١) .
وانتدب الناس يلتفون حول « أسامة » وينتظمون في جيشه .
إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرهتهم على
التريث حتى يعرفوا ما يقضى به الله ...

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٢٤/٨) عن عبد الله بن عمر وصححه الترمذي
(٢٥٠/٤) .

(٩)

الرفيق الأعلى

شعر رسول الله بوعسكة المرض الذي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة . وبدأت آلامه مُصدّاعاً حاداً ، عاناه في سكون ، حتى ثقل عليه الوجع ، وهو في بيت زوجته ميمونة . . فلم يستطع الخروج .
وأذن له نساؤه أن يُمرّض في بيت عائشة ، لما رأين من ارتياحه إلى خدمتها .
فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس ، وعلى بن أبي طالب .
وكان الألم قد أوهى قواه . فلم يستطع مسيراً .
فانتقل بينهما معصوب الرأس ، تخطّط قدماه على الأرض . . . حتى انتهى إلى بيتها^(١) .

وأشدّت وطأة المرض على رسول الله ، واتّقدت حرارة العلة في بدنه .
فطلب أن يأتوه بماء يقبرد به . . . ماء كثير !! أهريقوا على سبع قرب من
آبار شقي . .

قالت عائشة : فأقعدناه في مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء . حتى طفق
يقول . حسبكم ، حسبكم^(٢) . .

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر تخلصت عن بدنه ، استدعى الفضل
ابن عمه العباس . فقال : خذ يدي يا فضل — وهو موعوك معصوب الرأس —
قال الفضل : فأخذت يده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال :
نادِ في الناس . فاجتمعوا إليه .

وكانت ظهيرة تظللها السكابة وتقمرها الرقة . اشترأبت فيها الأعناق إلى
الرجل الذي أحيا موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم ، من الظلمات
إلى النور تطلعت إلية الأهلين الحائرة ، فرأته متعباً .

(١) صحيح : رواه ابن هشام (٣٦٦/٢ ، ٣٦٨) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح
عن عائشة ، ورواه الحاكم (٥٦/٣) من طريق أخرى عنها وصحهما .
(٢) صحيح ؛ أخرجه ابن إسحاق عن عائشة بسنده السابق . وهو في البغاري
(١١٥/٨ — ١١٦) ومسلم (٢١/٢ — ٢٢) نحوه .

انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام سطوة المرض العاتى .
إلا أنه أخذ يحدسهم ويربهم ، على عهدهم به دائماً . وأنصتوا ، فإذا هم يسمعون
منه عجباً .. إنه لما أحس بدنو أجله ، أحب أن يلقي الله وإيس هناك بشر يطلبه بتبعة .
إنه تحرر في العدالة في شئونه كلها لكن من يدري ؟ ربما عرض له مهنو مما
يعرض لبني آدم ، أو خطأ ، فجار ، وهو الذى بهرأ من الجور وذويه !!

إذن يخُطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. قال :
« أما بعد أيها الناس : فإني أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو
فمن كنت جللت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتت
له عرضاً ، فهذا عرضي فليستقد منه ! .

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إلى من
أخذ مني حقاً ! إن كان له ، أحلى منه فلقيت الله وأنا طيب النفس .
وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مراراً .

قال الفضل : ثم نزل فصلي الظهر . ثم وجع مجلس على المنبر . فعاد لمقاتله الأولى
في الشحناء وغيرها .

فقام رجل فقال : يا رسول الله : إن لي عندك ثلاثة دراهم ؟ فقال : أعطه يا فضل .
ثم قال النبي : أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده . ولا يقل : فضوح الدنيا .
ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة !

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غلّتها في سبيل الله .
قال : ولم غلّتها ؟ قال : كنت إليها محتاجاً .. قال : خذها منه يا فضل !
ثم قال : أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئاً فليقيم أدع له .

فقام رجل فقال : يا رسول الله . إني لكذاب . إني لفاحش ، إني لنؤوم !
فقال النبي : اللهم ارزقه صدقاً ، وإيماناً ، وأذهب عنه النوم .

ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إني لكذاب ، وإني لمناق ، وما من شيء إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك . فقال النبي : يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقاً . وإيماناً ، وصيراً أمره إني خير^(١) .

• • •

وعاد النبي^ﷺ إلى بيته اللاصق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو الذي لم يتعود أن يركن إليه أو يهدأ فيه .

كانت هناك مهام كثيرة ، ترتقب صحوه ليُبْتَّ فيها ولكن أعباء الأمة حبسته في قيودها ، فلم يستطع منها فسكا .

وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تخف فيها حدة المرض . فإلى المسجد ليلقي نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها ، والرجال الذين أحبهم :

هن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً على المنبر فقال :

إن عبداً خيرته الله بين أن يؤتية من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله ..

فبكى أبو بكر ثم قال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ..

(١) ضعيف جداً أخرجه المعقيلي في « الضعفاء » والبيهقي في الدلائل من طريق القاسم ابن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس عن أخيه الفضل قال ابن الدبى : عطاء هذا هو عدى عطاء بن يسار ، وليس له أصل من حديث عطاء ابن أبي رباح ، ولا عطاء بن يسار ، وأخاف أن يكون عطاء الخراساني لأنه يرسل عن ابن عباس . قال الذهبي : قلت : « أخاف أن يكون كذباً مختلقاً » وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ (٢٣١/٥) « وفي إسناده ومثله غرابة شديدة » .

قال أبو سعيد : فتمجبناه ، وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد يخير ويقول : فدينك بأبائنا وأمهاتنا !

قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أمنَّ الناس على في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام .

وفي رواية : ولكن صحبة ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده .. (١)

وحدث في أثناء المرض أن مرت أوقات هادئة ، خيلت لمحبي الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمانهم في عافيته نجحت ، وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله ، وليظل يجهوم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته .

فمن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه الذي توفي فيه .

فقال الناس : يا أبا حسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أصبح بمحمد الله بارئاً .

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ إنك بعد ثلاث عبد العصا وإني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفي في وجهه هذا ، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ..

(١) صحيح ، أخرجه البخاري (٩ / ٧ — ١٠ : ١٨٢) والسياق له ، ومسلم (١٠٨ / ٧) عن أبي سعيد ، والرواية الأخرى عند ابن هشام (٢ / ٣٦٩) عن ابن إسحاق بسنده عن بعض آل أبي سعيد بن العلى . وهو ضعيف لجهالة هذا البعض وقد رواه أحمد (٤ / ٢١١ — ٢١٢) من طريق ابن أبي العلى عن أبيه . ورجله ثقات غير الابن المذكور فلم أعرفه وقد قال ابن كثير (٥ / ٢٣٠) . وقالوا : صوابه . « أبو سعيد بن العلى » .

فأذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمه فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً ، قال علي : والله لئن سألتها رسول الله ففنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، والله لا أسأله رسول الله أبداً^(١) .

وظاهر أن العباس يعني الخلافة ! فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت ، وخبرته بأقاربه حين يحضرون جعلته صادق الحدس في تبين مصايرهم .

ولما كان عميد بني هاشم ، فقد أهمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد اتجه إلى علي بيته مكثون نفسه لأن علياً — بسابقته وكفايته ومنزلته في الناس ، وموضعه من الرسول — يعد أول بني هاشم ترشيحاً لهذا الأمر .

بيد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك ، وآثر ترك الأمر للجمهور المسلمين . وكان النبي نفسه قد هم بكثابة عهد يمنع شغب الطامعين في الحكم ، ثم بداه فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم ، ينتخبون لقيادتهم من يحبون^(٢) .

* * *

وزادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعانى من برحائه ألماً مضاعفاً ، حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة مايلقي ، فقالت : وا كرب أبتاه ! فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ..^(٣)

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة ، فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله ، هبطت وهبط

(١) صحيح ، أخرجه البخاري (١١٦/٨ — ١١٧) .
(٢) يشير إلى حديث ابن عباس مرفوعاً : هلموا أكتب لكم كتاباً ... أخرجه البخاري (١١٠/٨) .
(٣) صحيح ، رواه البخاري (١٢١/٨) وغيره عن أنس .

الناس معي إلى المدينة ، فدخلنا على رسول الله وقد أصبحت لاية-كلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، فعرفت أنه يدعوني (١) .

وأغنى عليه مرة فله أهلك ، فلما أفاق كره ذلك منهم (٢) .

وكان إلى جواره قدس فيه ماء ، يعمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول اللهم أغنى على سكرة الموت (٣) .

وحين عجز النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بالناس ، استقدم أبا بكر ليؤمهم .

فخشيت عائشة أن يكره الناس أباها ويتشاءمون من طلعه .

فقلت : إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقم مقامك لا يطيق !

فقال : مرو أبا بكر فليصل بالناس .

فكررت عائشة اعتراضها . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

إنكن صواحب يوسف . مرو أبا بكر فليصل بالناس (٤) .

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .

وهذه الأيام التي تخلف فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يؤم المسلمين ،

كانت من أشد الأيام ثقلا عليه . وصح عنه أنه قال : إني أوعك كما يوعك الرجلان منك (٥) .

(١) صحيح : رواه الترمذى (٤٠٠/٤) وحسنه وابن هشام (٣٧٠/٢) .

(٢) صحيح رواه البخارى (١٠٢/٨) عن عائشة .

(٣) ضعيف أخرجه الترمذى (١٢٨/٢) وغيره من طريق موسى بن سرجس عن القاسم بن محمد عن عائشة . وقال : «حديث غريب» يعنى ضعيف لأن موسى هذا لم يوثقه أحد فهو مجهول .

(٤) صحيح أخرجه البخارى (١٢٠/٢) ومسلم (٢٠/٢ - ٢٤) عن عائشة .

(٥) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود .

ومع فيح الحلى وحدة مسها لبدنه ، فقد ظل يفظ الذهن ، مهموماً بتعاليم
الرسالة ، حريصاً على تذكير الناس بها .

وكان يخشى أن ترتكس أمته ، فتتعلق بالأشخاص و « الأخرجة » كما
ارتكس أهل الكتاب الأولون .

وشدته في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته ، وهو يعالج سكرات الموت ،
برهب المسلمين من هذا المزلق .

عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح
خميصة له على وجهه فإذا اغتم ، كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك - « لعنة الله
على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا (١) - » .
وكان يخشى أن تغلب شهوات النفي والكبر على أمته .

فإن الذين يتبعون شهوات النفي ، ينسون الصلاة ، والذين يتبعون شهوات
الكبر ، يطفون على ما تحت أيديهم من خدم ومرءوسين ورقيق .

والأمة التي تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ، ولا تصلح بها حياة .
ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع ، وهو خزي الدنيا ، وعذاب
الآخرة .

هذه الخشية ، حملت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن
ينبه المسلمين إلى معاهد الخير ليمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قال : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

حضره الموت - الصلاة وما ملكت أيمانكم . حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرغ بها صدره ، وما يكاد يفيض بها لسانه ^(١) .

• • •

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب في أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه المهوك ، وانسل إلى المسجد من حجرة عائشة ، فصلى بالناس وهو قاعد .

قال ابن عباس : لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ثم وجد خفة فخرج . —

فلما أحس به أبو بكر ، أراد أن ينكص ، فأومأ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر فكان أبو بكر يأتى بالنبي ، والناس يأتون بأبي بكر ^(٢) .

على أن أبا بكر ظل يصلى بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله صلى

(١) صحيح ؛ أخرجه ابن ماجه (١٥٥/٢) . واحمد (١١٧/٣) وغيرهما عن قتادة عن انس ، وفيه خلاف على قتادة بينه الحافظ ابن كثير في « البداية » (٢٣٨/٥ — ٢٣٩) وذكر عن البيهقي انه قال : « والصحيح ما رواه عقاب عن ممام عن قتادة عن أبي الخليل عن سفيانة عن أم سلمة به » قلت : وهذا سند متصل صحيح . وله شاهد من حديث علي نحوه رواه ابن ماجه واحمد (رقم ٥٨٥) وإسناده صحيح .

(٢) صحيح ؛ أخرجه احمد (٢٠٥٥ ؛ ٢٣٣٠ ؛ ٣٣٥٥) وابن ماجه (١ / ٤٨٣) عن طريق ابى إسحاق عن الأرقم بن شرحبيل عن ابن عباس ، ورجاله ثقات لكن اعلم البوصيري بأن أبا إسحاق — وهو السبيعي — اختلط بآخره عمره وكان مدلساً وقد رواه بالضعف ، قلت . لم يكن تابعه عبد الله بن ابى الشعر إلا انه قال : عن ابن عباس عن العباس ؛ فله من سند العباس وهذا اختلاف يسير لا يضر في صحة الحديث إن شاء الله ؛ وقد رواه عن هذا الوجه احمد أيضاً (١٧٨٤ ؛ ١٧٨٥) .

صلى الله عليه وسلم حتى صبيحة اليوم الذى قبض فيه وكان الرسول معلق القلب بشئون أمته .

وكان الله أراد أن يطمئنه على كمال انتيادها وحسن اتباعها ، فأشهدته آخر وقت حضره وهو فى الدنيا ، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الاثنين الذى قبض فيه ، واصطفوا لصلاتهم خشعاً مخجبتين ، وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص ، ورفع النبي صلى الله عليه وسلم الستر المضروب على منزل عائشة ، وفتح الباب وبرز للناس .

فكاد المسلمون يفتنون فى صلاتهم ابتهاجاً برويته ، وتفرجوا يفسحون له مكاناً فأشار بيده : أن اثبتوا على صلاتكم ، وتبسم فرحاً من هيئتهم فى صلاتهم . قال أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه فى تلك الساعة ^(١) .

ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجهه . واطمأن أبو بكر لهذا الظن ، فرجع إلى أهله بالسجدة فى ضواحي المدينة ^(٢) .

قالت عائشة : وعاد رسول الله من المسجد ، فاضطجع فى حجرى . ودخل علينا رجل من آل أبى بكر فى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله إلى يده نظراً عرفت منه أنه بريده .

فأخذته فآلنته له ثم أعطيته إياه .

فاستن به كأشد ما رأيت به يستن بسواك قبله ، ثم وضعه .

ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى .

(١) صحيح أخرجه البخارى (١٠/٢ — ١٣١ : ٨ / ١١٧) ومسلم (٢ / ٢٤

— ٢٥) وغيرهما عن أنس بن مالك ؛ ورواه ابن هشام (٣ / ٣٧٠ — ٣٧١) عن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس بلفظ الكتاب . وفيه انتقطاع .

(٢) هو من تمام حديث أنس عن ابن إسحاق .

فذهبت أنظر في وجهه .

فإذا نظره قد شخص وهو يقول : بل للرفيق الأعلى من الجنة .

قلت : خبرت فاخترت ، والذي بعثك بالحق ..

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

* * *

وتسرب النبا الفادح من البيت المحزون ، وله طنين في الأذان . وثقل ترزح
تحمته النفوس ، وتدور به البصائر والأبصار .

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركهم لوعة الشكلى حيارى ،
لا يدرون ما يفعلون .

ووقف عمر بن الخطاب — وقد أخرجه الخبر عن وهبه — يقول : إن رجالا
من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ، وإن رسول الله مامات
ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فتاب عن قومه أربعين ليلة .
ثم رجع بعد أن قيل قد مات ..

والله ليرجمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم
يزعمون أنه مات !

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس .
فلم يلتفت إلى شئ . حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة
وهو مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة .

(١) صحيح ؛ رواه ابن هشام (٢/٣٧١) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح - عنها
وهو في البخارى (٨/١٠٧ ، ١١١ - ١١٢ ؛ ١١٣ ؛ ١١٧ ؛ ١١٨) نحوه مفرقا ..
وهذا آخر حديث في الكتاب . وبه يأنهى التخريج والحمد لله على توفيقه وسبعاك اللهم
وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ؛ استغفرك واتوب إليك .

فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي
أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً .
ورد الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يسلم الناس ، فقال : على رمالك
يا عمر فأنصت .

لكن عمر ظل محتاجاً مندفعاً في كلامه .
فلما رآه أبو بكر كذلك ، أقبل على الناس وشرع يتكلم ، فلما سمعه الناس
انصرفوا عن عمر وأقبلوا عليه .
وحد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً ، فإن
محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ • أَفَأَنْ مَاتَ
أَوْ قُتِلَ أَلْقَلْبَتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَانِ يَضُرَّ اللَّهُ
شَيْئًا • وَسَيُجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

خاتمة

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع الوثنية التي عاودتها الحياة فجأة ، والصليبية الرابضة في شمال الجزيرة تمنع الدخول في الإسلام ونحبط دعايته بالقوة .

ولم تشهد الصحراء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مثيلاً لهذه المعارك الطاحنة .

فقد اتسعت ميادينها ، وتتابعت أمدادها ، وفدحت مغارمها ، وكثرت ضحاياها . إلا أن الرجال القدين رباهم محمد صلى الله عليه وسلم على معرفة الحق والقضاء فيه ، صدقوا الله في عملهم ، ونمضوا كأعنى الأبطال بالاثقال الباهظة التي رُموا بها . ضربوا الوثنية في الجزيرة ضربة كسرت فقارها ، واعتصرت روحها ، فهمدت إلى الأبد .

وطردوا الرومان عن الحدود التي تمردوا بها ، وتجهروا فيها . ثم عادوا إلى المدينة لا يستجمعوا ، بل لينتشروا خلال المعمور من أرض الله يؤمذ ، في نظام رتيب ، وبوحى شريعة محكمة . وما هي إلا سنوات قلائل ، حتى كان الاسلام ملء البر والبحر ، ملء السمع والبصر .

والآن وقد مرت قرون أربعة عشر على هذه الحقبة الزاهرة . إن الإسلام — بعد مجد كبير — لا يحكم أمته فضلاً عن أن يوجه العالم إلى برٍّ يذكر أو خير يشكر .

والأديان الأخرى تعيش على هامش الحياة .
فالحضارات القائمة أو المتربصة ، لا تمكن الدين من زمامها .
والوثنية في الهند وفي الشرق الأقصى وفي بقاع أخرى لا تزال تظلل الجوانب
الداكنة من حياة العامة ومسالك الجماهير .

واليهودية تنحاز بأبنائها جانبا ، تنغرس في قلوبهم الحقد على البشر ، والنفاذ
من خلل الصفوف المتناحرة بأكبر غنم لإسرائيل .
أما الصايبية ، فهي كالنبات المتسلق في خط الإستواء .
تعتمد في بقائها على الالتحاق بالفلسفات السائدة والنظم النالبة ، كي تضمن
حياة أى حياة ، لدعائمها الأولى من تراث وثايلث وقرابين .

والمسلمون سرت لإيهم لوثات الاحتراف والتعلق بالقشور والمراسم .
ورذنتهم رذائل الضعف والجهالة ، إلى أحوال أشبه بما كافى يسود اليهود
والنصارى على عصر النبوة والخلافة الراشدة .

وقلة سيرة منهم ، هي التي بقيت إلى يوم الناس هذا ، تغالب الجاهلية
وتتشبث بالحق .

وإذا كان مما يعين على الأمل أن الإسلام ظل من الناحية العلمية محفوظا في
مصدره الخطينين : الكتاب والسنة ، فإن هذا العلم المصون لا يغنى أبدا عن العمل .
على أن الذين يعملون للإسلام عملا صحيحا ، يلقون مقاومة عنيفة من شتى
الجبهات الأخرى ، أغنى الجبهات التي قاومت امتداده من أربعة عشر قرنا ، ولم
تبرد هداوتها له يوما ١١٠٠

* * *

قد يسأل سائل : هل العالم اليوم بحاجة إلى هذا الإسلام ؟
ونقول : إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله ويستعد للاقائه ويقدم حسابا
على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام .

إن الارتقاء المادى ، لا يغنى قليلا عن التقيد بهذه الحقائق الكبيرة .

قد يقال : لكن من الناس من لا يؤمن بإله قائم أو يوم آخر .

ومنهم من يؤمن بذلك على نحو غير ما جاء به الإسلام .

فدعوا الناس وما يرون ..

ونقول : لير الناس ما يشاءون ، ولكن ليس من حق العميان أن يخلعوا عيني

المبصر ، أو يضيقوا عليه الخناق ، لأنه يرى ما لا يرون !

فليدعوه يمشى بهدى بصره ، وليدعوه كذلك ، يصف ما يرى في طريقه

وما يتوقع .

فمن تبعه من غير استكراه ، فليطلق معه ، وإلا فليدعه ، وليرفع من أمامه

العوائق ، وذلك ما يبغيه الإسلام فحسب ..

إن المبطلين يكرهون الإسلام لأنه حق ناطق ، يجادل عن نفسه ، ويستعلن

بما فيه ، ويرفض أن يتوارى أو يصمت .

هذه الخاصة في الإسلام ، خاصة إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أزعجت أعداءه

وجعلتهم يختلفون له التهم .

فإذا رفض المهادنة ، فهو مهاجم ، وإذا أبى أن يموت أمام كيد الخصوم ، فهو

ينتشر بالإكراه !

وذاك سر الخرافة التي راجت ، أن الإسلام ساد بالسيف .

والإسلام إنما امتشق الحسام لينجو به من غوائل الرعاع والقطاع .

ولو ترك من غير ترويع ، ما أثقل عاتقه برمح ، ولا كفى من اللسان باللسان

نعم ، إنه كان في هذه السبيل صارماً ..

وهل ينتظر منه إلا ذلك في ملاقاته خصوم يجرون وراءهم كبرياء القرون

الطوال وتعصبا ؟ وضلالات تحتوى وراء غابات متشابكة من الرجال والسلاح ؟

إذنه لولا هذه الصرامة ، ما بقيت أصوله العلمية والنفسيه سليمة إلى اليوم .
فإن الديانات التي ضعفت قبله ، أفلح أعداؤها في جرها عن أصولها جراً شنيعاً
فلم تعد إلى قواعدها سالمة .. ؟

أما الإسلام ، فإنك واجده اليوم ، ولو في كتابه ، إن لم يكن في أصحابه .

* * *

قد تظن أنك درست حياة محمد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من
المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأ بالغ ، إنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن
بالحكيم والسنة المطهرة .

وبقدر ما تنال من ذلك ، تكون صلتك بنبي الإسلام ...

فهرست

| صفحة | الموضوع | صفحة | الموضوع |
|------|----------------------------------|------|-------------------------------|
| ١٠٧ | عمار بن ياسر | ٣ | مقدمة |
| ١٠٨ | بلال | ٩ | حول احاديث هذا الكتاب |
| ١٠٩ | خبيب | ١٥ | رسالة وإمام |
| ١١١ | مفاوضات | ١٦ | الوثنية تسود الحضارات القديمة |
| ١١٥ | الهجرة إلى الحبشة | ٢٠ | طبيعة الرسالة الخاتمة |
| ١٢١ | إسلام حمزة وعمر | ٢٤ | العرب حين البعثة |
| ١٢٣ | المقاطعة العامة | ٢٧ | رسول معام |
| ١٢٨ | عام الحزن | ٤٦ | النبي وخوارق العادات |
| ١٣٠ | في الطائف | ٥٧ | من الميلاد إلى البعث |
| ١٣٤ | الإسماء والمعراج | ٦٣ | شق الصدر |
| ١٣٩ | حكمة الإسماء | ٦٨ | بجيرا الراهب |
| ١٤٠ | لكمال البناء | ٦٩ | حياة الكدح |
| ١٤٢ | سلامة الفطرة | ٧٤ | حرب الفجار |
| ١٤٣ | فرض الصلاة | ٧٤ | حلف الفضول |
| ١٤٤ | قريش والإسماء | ٧٦ | قوة ونشاط |
| ١٤٦ | الهجرة العامة: مقدماتها ونهايتها | ٧٨ | خديجة |
| ١٥١ | فروق بين البلدين | ٨١ | السكبة |
| ١٥٣ | صنع اليهود | ٨٥ | باحثون عن الحق |
| ١٥٤ | بيعة العقبة الأولى | ٨٨ | في غار حراء |
| ١٥٦ | بيعة العقبة الكبرى | ٩٠ | ورقة بن نوفل |
| ١٦٣ | طلائع الهجرة | ٩٣ | جهاد الدعوة |
| ١٦٧ | في دار الندوة | ٩٦ | إلام يدعو الناس؟ |
| ١٦٨ | هجرة الرسول | ٩٨ | الرعي الأول |
| ١٧١ | درع في سياسة الأمور | ١٠٠ | إظهار الدعوة |
| ١٧٢ | في الغار | ١٠٣ | أبو طالب |
| ١٧٤ | في الطريق إلى المدينة | ١٠٦ | الاضطهاد |
| ١٧٦ | دعاء | | |

| صفحة | الموضوع | صفحة | الموضوع |
|------|-------------------------------|------|---------------------------------|
| ٣٦٨ | مع اليهود مرة أخرى | ١٧٩ | الوصول إلى المدينة |
| ٣٧٩ | عودة مهاجري الحبشة | ١٨١ | الاستقرار بالمدينة |
| ٣٨١ | تأديب الأعراب | ١٨٧ | أسس البناء للتجمع الجديد |
| ٣٨٤ | مكانة الملوكة والأمراء | ١٨٩ | المسجد |
| ٣٩٣ | عمرة القضاء | ١٠١ | الأخوة |
| ٣٩٥ | غزوة مؤتة | ١٩٥ | غير المسلمين |
| ٤٠١ | ذات السلاسل | ٢٠٠ | المصطفون الاختيار |
| ٤٠٥ | الفتح الأعظم | ٢٠٥ | معنى العبادة |
| ٤٢٠ | معركة حنين | ٢١٢ | قيادة تهوى إليها الأفتدة |
| ٤٢١ | هزيمة | ٢٢١ | الكفاح الدامى |
| ٤٢٣ | الثبات والنصر | ٢٢٧ | مرايا |
| ٤٢٥ | الغنائم | ٢٢٩ | صربة عبد الله بن جحش |
| ٤٢٨ | حكمة هذا التقسيم | ٢٣٢ | معركة بدر |
| ٤٣٠ | عودة وفد هوازن | ٢٥٠ | محاسبة وعتاب |
| ٤٣١ | حصار الطائف | ٢٥٥ | فى أعقاب بدر |
| ٤٣٢ | إلى دار الهجرة | ٢٥٧ | بدء الصراع بين اليهود والمسلمين |
| ٤٣٤ | موقف المتأفقين | ٢٦٤ | مناوشات مع قريش |
| ٤٣٥ | تيوك زريب | ٢٦٨ | معركة أحد |
| ٤٤٣ | المخلفون | ٢٨٠ | عبر المحنة |
| ٤٤٧ | مسجد الضرار | ٢٨٩ | شهداء أحد |
| ٤٤٩ | طليعة الوفود | ٢٩٤ | آثار أحد |
| ٤٥٢ | حج أبى بكر | ٣٠١ | إجلاء بنى النضير |
| ٤٥٥ | وفد اللاميين ووفد لأهل الكتاب | ٣٠٥ | بدر الآخرة |
| ٤٦٤ | أمهات المؤمنين | ٣٠٦ | دومة الجندل |
| ٤٨٤ | استقرار | ٣١١ | حديث الإفك |
| ٤٨٦ | حجة الوداع | ٣١٦ | غزوة الأحزاب |
| ٤٩١ | إلى المدينة | ٣٣٥ | مع قريظة |
| ٤٩٣ | الرفيق الأعلى | ٣٤٧ | طور جديد |
| ٥٠٥ | خاتمة | ٣٤٨ | عمرة الحديبية |